الدكتور فهمي توفيق مقبل

دور العرب والمسلمين
في اكتشاف العالم الجديد



دار أسامة
للنشر والتوزيع



هذا الكتاب

رؤية جديدة في دراسة أكاديمية

لدور العرب والمسلمين في اكتشاف العالم الجديد (أمريكا)

في زمن طغيان العولمة، وتقليص هويات الشعوب، وانحسار حسّها القومي، علينا كأمة -ذات دور حضاري- أن لا نقف متفرجين عاجزين، نشهد حركة الحياة ولا نشارك فيها، نسمع الإساءة إلى دورنا، ونرى التشويه لصورتنا، ولا ندافع بالقول والفعل.

من أفق هذا الحس القومي العروبي الإسلامي، أماط هذا الكتاب اللثام عن صفحة مشرقة من تاريخ أمتنا، بوصفه دراسة موضوعية تنطوي على قيمة علمية كبيرة، تثمن بأسلوب منهجي علمي دقيق، دور العرب والمسلمين التاريخي في اكتشاف العالم الجديد. لقد جاءت هذه الدراسة التي تضع الشيء في موضعه، وتعترف بالفضل لذويه، بمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية الخامسة لاكتشاف النصف الثاني من الكرة الأرضية. وهي محاولة جادة منصفة يراد منها رد الاعتبار لجهود عربية وإسلامية رائدة، مثيرة، غير مسبوقة، ساهمت في تحقيق أعظم إنجاز حضاري عرفته الإنسانية.

فبفضل علوم العرب والمسلمين وخرائطهم وأجهزتهم الملاحية ومعرفتهم الواسعة الدقيقة وخبرتهم العميقة في عالم البحار، تمكن كولومبوس اكتشاف الدنيا الجديدة، موطن القوة العظمى اليوم في عالمنا المعاصر.



الأردن - عمان - تلفاكس : 4647447 ص.ب : 141781

الإدارة : 5658253-5658254

دور
العرب والمسلمين
في
اكتشاف العالم الجديد

وغياب المنافسة البحرية العثمانية في هذه الكشوف

تأليف
الدكتور فهمي توفيق مقبل
"جامعة الملك فيصل-الأحساء-كلية التربية"

دار أسامة للنشر والتوزيع
عمان - الأردن

الناشر

دار أسامة للنشر و التوزيع

الأردن – عمان

هاتف : ٥٦٥٨٢٥٣ – فاكس : ٥٦٥٨٢٥٤ – تلفاكس : ٤٦٤٧٤٤٧

ص. ب : ١٤١٧٨١

الطبعة الأولى

٢٠٠٤م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٢٣١٣ / ١١ / ٢٠٠٣)

٩٥٦

مقبل، فهمي توفيق

دور العرب والمسلمين في اكتشاف العالم الجديد وغياب المنافسة البحرية العثمانية في هذه الكشوف/فهمي توفيق مقبل.- عمان: دار أسامة للنشر، ٢٠٠٣.

(   ) ص .

ر.إ :٢٣١٣/١١/٢٠٠٣.

الواصفات :/التاريخ الإسلامي// التاريخ الأمريكي// الاكتشافات الجغرافية/

تم إعداد بيانات الفهرسة و التصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

في زمن طغيان العولمة، وتقليص هويات الشعوب، وانحسار حسّها القومي، علينا _ كأمة ذات دور حضاري – أن لا نقف متفرجين عاجزين، نشهد حركة الحياة، ولا نشارك فيها، نسمع الإساءة إلى دورنا، ونرى التشويه لصورتنا، ولا ندافع عن أنفسنا بالقول والفعل.

من أفق هذا الحس القومي العروبي الإسلامي، انطلق الزميل العزيز، والعالم الجليل الدكتور فهمي مقبل، مدركاً لدوره المناط به، مؤمناً بحق أمته المـُغيَّب ظلماً وعدواناً، فنذر الكثير من وقته وجهده، عاكفاً على استجلاء هذه الحقائق التاريخية من مظانها، ديدنه الموضوعية والحيدة، وغايته إماطة اللثام عن صفحة مشرقة من تاريخ أمتنا، سالكاً بذلك منهجاً علمياً دقيقاً، يعرف كيف يصل إلى الحقيقة، لا يدور حولها، ولا يراوغها، لا يكتفي بالمصدر الواحد من تراثه العربي الإسلامي، بل مدَّ بصره إلى تراث الغرب ومكتباته، وعزز رأيه بما ذهب إليه المنصفون من علماء الغرب، وناقش المغرضين الحاقدين منهم، دون أن يتخلى عن خُلُق العلماء الرفيع ومنهجهم العلمي الدقيق.

لا غضاضة أن تأتي كلماتي من أُفق الإعجاب والتقدير لما قدمه صاحب الكتاب، فالدراسة تنطوي على قيمة علمية كبيرة، جديرة بالثناء والإطراء، فهي الأسلوب الأمثل لخوض غمار المرحلة، ولمواجهة تيار العولمة، الذي غدا حقيقة قائمة في حياتنا، لا مفر منه، وعلينا أن لا ندفن رؤوسنا في الرمال كالنعام، بل لا بد من أن يتحمل كلّ منا تبعاته الملقاة على عاتقه، وأن نواجه، وأن نتحدّى .. فهذا هو فعل الحياة، وهذا هو ضمان ديمومة هذه الأمة.

وما أحرانا – والحال كذلك – من أن نضع مثل هذا الكتاب الجاد بين أيدي أبناء أمتنا، فنحن بحاجة إلى ترميم أرواحنا، وتأثيث عقولنا بهذا الزخم من الحقائق الناصعة

المتصلة بشخصية أمتنا، ففي زمن الهزيمة يفتح لنا هذا الكتاب كُوىً مضيئة، ومساحات من الحلم المشروع بغدٍ مشرق، وحياةٍ أفضل .

فبورك مثل هذا الجهد المثمر، الذي يُعدّ إضافة نوعية إلى مكتبتنا العربية ، الذي لا يبغي منه صاحبه سوى وجه الله تعالى، ورفعة هذه الأمة العظيمة.

أ.د.أحمد موسى الخطيب

رئيس قسم اللغة العربية

بجامعة البتراء

عمان-الأردن

المقدمـة

تتأهب الدنيا للاحتفال بالذكرى المئوية الخامسة لاكتشاف مـا سـمي زوراً بـ (العالم الجديد) وسط طنين إعلامي شديد، يصم الآذان، واحتشاد رسـمي وجمـاهيري هائل، مع بذخ بلا حدود، بهدف إعطاء الحدث (المناسبة) بعداً إضافياً جديداً على نحـو غير مسبوق ولا مألوف، ولا نملك نحن في هذه المناسبة إلا أن نتساءل دون أي نية منا بأن نفسد على المحتفلين احتفالهم، ولا على الفرحين أفراحهم: لماذا هذا الإمعان فـي تجاهل الجهود السابقة في الكشوف الجغرافية، التي ولدت حضارات قديمة جديدة فـي النصف الثاني المكتشف من العالم؟

بكلمة أخرى، لماذا هذا الإصرار على تغييب الدور التاريخي للعرب وطمسه في هذه الكشوف الجغرافية المثيرة حديثها وقديمها ؟ خصوصاً بعد أن أصبح مـن الثـابت للمحتفلين أنفسهم وللمهتمين عموماً بهذه المناسبة، أن كريستوفر كولومبوس[1]كان يعلـم أنه ليس في رحلة لغزو الفضاء، حتى يظن أنه سيكون أول إنسان ستطأ قدمـه سـطح أول كوكب يصل إليه، بل إنه مـن المحقق الآن، أنه كان يخشى ألا يجد موطئاً لقـدم عند وصول سفنه الثلاث – إلى شواطئ– ما عرف بعد رحيله عن الدنيا بـ (العـالم الجديد)، أو (الدنيا الجديـدة)، أو (الأرض الجديـدة)، أو الاسـم الأول الـذي أطلقـه كولومبوس عليها عند وصوله هناك (الهند الغربية)، وهو الاسم الذي بقيت معروفة بـه عند الأوربيين حتى بعد وفاة كولومبوس بسنوات، ويبدو أن كولومبوس كان متيقناً أنـه ذاهب إلى الهند، أكثر الأماكن ازدحاماً بالسكان، حتى وإن كان هناك أرض جديدة، فإن من المرجح أنه كان واثقاً أن هناك من سبقه إليها، خصوصاً العرب.[2]

لا ريب في أن الغرب الذي حاول أن يستأثر وحده بهذا الكشف التاريخي، بعـد أن سكتنا عن الكثير من سرقاته لحضارة أمتنا، يجد في تجيير هذا الإنجاز الحضـاري بالذات لحسابه إسباغاً لألوان المجد والقمة التي يتربع عليها اليوم واحتكـاراً لكرسـي الحضارة، وخلق عالمية جديدة بديلة لعالمية الحضارات والرسالات، تتجسد بـالتغريب في إطارها العام، و(الأمركة) في إطارها الخاص، والعالم الجديد معنيٌ أكثر من غـيره اليوم باعتبار الكشف التاريخي نقطة تحول فاصلة في تاريخ الغرب بعامـة، وأمريكـا

بخاصة، وعلى كل الصعد (السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعلمية، والاستراتيجية) فضلاً عن اعتبار انتقال السيادة من العالم القديم إلى العالم الجديد، بكل ما تعنيه من نهاية مرحلة إلى بداية مرحلة للقوى العظمى، التي يريدها العالم الجديد جزءاً لا يتجزأ من شخصيته، ومن ثم الثوابت الاستراتيجية المستقبلية لكيانه وديمومة تفوقه وقوته.

ولعلنا نجد للغرب في صورته القديمة والجديدة، بعض العذر في استلال خناجره، ومحاولة الإجهاز على (الشاة) العربية الذبيح، المثخنة بالجراح قبل أن تموت، وكأنها رصاصة الرحمة ! وفي رشة الماء الأسود كذلك على وجه تاريخنا الحضاري الأجمل لتشويهه وطمس معالمه، لكننا لا نجد أي عذر لأولئك المخدوعين المحسوبين ظلماً علينا ومن أبناء جلدتنا، الذين جعلوا من أنفسهم بوقاً للغرب في خيره وشره، غثه وثمينه، نافعه وضاره، ودون أن يكلفوا أنفسهم عناء التمييز بينها، حتى أصبحوا كالريشة في مهب رياحه. ويبدو أن أعداء أمتنا استطاعوا أن يجعلوا منهم (حصان طروادة) لاختراق حصوننا من الداخل، والتشكيك في ثروتنا الحضارية – التي قويت على البقاء داخل الزمن وخارجه – والحط من قابلية الآباء والأجداد في الابتكار، والإبداع، والأصالة العلمية والفكرية، وبقدراتنا على الخلق، والتجديد والاكتشاف، والاستمرار في التمييز، والفعل الحضاري والإيجابي. لكن عزاءنا أننا في كل يوم يأتينا منه جديد من براهين وأدلة، تثبت آيات فضل أمتنا على العالم في كل الصعد، والممتدة آثارها من الماضي في الحاضر والمستقبل، وهي ما نرجو أن تتكفل بإبرازه هذه الصفحات الموقوفة لهذه المهمة العلمية المنزهة عن أي غرض.

"وليسَ يَصُحُّ في الأذهانِ شيءٌ ... إذا احتاجَ النهارُ إلى دَليلِ"

أرجو ألا أكون مبالغاً إذا قلت : إننا نتعرض بالأمس واليوم، إلى أسوأ سرقة حضارية في تاريخنا الحديث، تتمثل في طمس دور أمتنا التاريخي في الكشوف الجغرافية الكبرى، وبالتالي إنكار الأسبقية التاريخية لأمتنا في الوصول إلى (العالم الجديد) قبل كولومبوس بأزمان بعيدة وقريبة من عصره، ولسنا هنا من ينكأ الجراح،

طالما كانت الحكمة ضالتنا، ولكننا نميط اللثام عن صفحات منسية أو قدر لها – بقصد أو بدون قصد – أن تطوى غياهب جب النسيان، وتحديداً تلك الصفحات وثيقة الصلة بالفكر الجغرافي، والكشوف الجغرافية، وعلوم البحار للآباء والأجداد منذ عصور فجر التاريخ وحتى العصور الحديثة، وذلك نشدان للحقيقة، وانتصارٌ لجهود أمتنا وتضحياتها في هذا المعترك الحضاري المهم من دنيا البحر والملاحة والاستكشاف وهم الذين عملوا ما عملوه من إنجازات حضارية خصوصاً بعد الإسلام ليس من أجل أنفسهم أو أمتهم فحسب، بل من أجل البشرية دون تمييز.

وعندما نسلط الضوء على هذه الصفحات من كنوز تراثنا الجغرافي والملاحي، لا نهدف على الإطلاق إلى تكريس شعور بالعداء أو الاستعلاء، الذي ليس من شيمنا أساساً، بل بكل أسف أصبح اليوم من شيم الغرب الذي يمشي في الأرض مرحاً، ويستعلي على الشرق، يمعن في ازدرائه واستلابه أي ميزة حضارية، كما أننا لا يمكن أن نسمح لمركب النقص – الذي تعاني منه أمتنا، التي تمر في أخطر انتكاسة وانحدار شامل في تاريخها – أن يجعلنا نضيف لحسابنا أي حقوق لغيرنا، فليس هناك كائن نسيج وحده، كذلك الحضارات، فكل حضارة أفادت من الأخرى، ولكن دائماً يبقى الأوائل ، وهدفنا الأول هنا هو البحث عن هؤلاء الأوائل.

بعيداً عن مستوى الأحكام المسبقة، نرجو أن نكون قد قدمنا من الأدلة التي ترتقي إلى مستوى القناعة بأن أمت نا قدمت دائماً الأوائل لقيادة البشرية، ومع إكباري وإجلالي لعلم الآثار وعلمائه، يؤسفني أن يكون هذا العلم – على عظيم قدره – قد أخفق حتى الآن في التوصل إلى جذور العرب في التاريخ، وإنني أهيب – في ضوء ما عرضناه من وثائق وشهادات – بعلمائنا العرب والمسلمين والغيورين على حضارتنا من علماء العالم المتمدن أن يبذلوا المزيد من الجهود للتنقيب في المواقع التي جاء ذكرها في هذا العمل، وقدمنا لها أدلة علمية وافية، وإننا على ثقة بأن تضافر التاريخ مع الآثار سيوصلنا إلى حقائق مذهلة جديدة قد تعيد كتابة التاريخ الإنساني من جديد، وإننا هنا نحيِّي جهود الأثريين من عرب وعجم الذين أنصفوا أمتنا، ويعملون دائماً على

إظهار الحقيقة التي تقود إلى دور هذه الأمة الريادي والحضاري في تشكيل وجه العالم المتحضر.

يكفينا فخراً أن علماء الغرب المنصفين شهدوا لأمتنا بالفضل على العالم بعامّة، والغرب بخاصة، مؤكدين أن الغرب مدين للعرب والمسلمين في مجمل النواحي العلمية والأدبية والخلقية، حتى في كمالياته وأولياته من مأكل ومشرب وملبس. (٣) وتؤكد البحوث العلمية الحديثة، تؤيدها الكشوف الأثرية المعتبرة، أن الحضارة العربية أم الحضارات القديمة كلها، وأن العرب هم آباء البشرية وجزيرتهم العربية هي منبع الحضارة الإنسانية الأم، وأيد هذه المعلومات، التي ترتقي إلى درجة المسلمات علماء ما قبل التاريخ، الذين جزموا بأن حوض البحر الأبيض المتوسط كان المركز الرئيسي الذي تكونت فيه أقدم حضارات الجنس البشري التي عرفها كوكبنا منذ فجر التاريخ... وبالتالي فإن الشرق كان أسبق في الوجود الإنساني والحضاري من الغرب، كوطن للإنسان الأول ونشاطه الحضاري البدائي – بأزمنة سحيقة يصعب تحديد بداياتها.

من الثابت عند العديد من العلماء أن إنسان الشرق – لأسباب عديدة – انتقل من مكانه وزمانه الأول لاستعمار الأرض وإخضاعها لمصالحه، ولا يرتاب العلماء في أن الموطن الأول لإنسان الشرق هو الجزيرة العربية بعينها، حيث انتقل منها كالسيل العارم في هجرات كثيرة، وفي أوقات متفاوتة إلى أصقاع المعمورة، وصل فيها إلى المعلوم والمجهول من كوكبه(٤) لكن صعوبات كثيرة، منها صعوبة الاتصال الممثلة في المسافات الهائلة التي تفصل العالم القديم عن العالم الجديد، ومستوى الإنسان القديم العلمي والثقافي المتواضع، حالت دون معرفته التامة بجغرافية الأرض والعالم المحيط به، وبالتالي انتظاره طويلاً في صياغة قدراته ومعارفه، حتى تسنى له السيطرة تماماً على كل الأرض ومعرفة كل أسرارها الظاهرة والباطنة، ليلتقي العالم القديم بالجديد بعد أن ظن كل الظن أن لا تلاقيا.

وهنا لا يفوتنا أن نذكر، أن فرصة ثمينة لا تعوَّض سنحت للدولة العثمانية، للمنافسة البحرية في الكشوف الجغرافية للعالم الجديد، حيث تزامنت حركة الكشوف الجغرافية الأوروبية التي أدت إلى اكتشاف العالم الجديد (القارة الأمريكية) مع ذروة

تفوق الدولة العثمانية واتساعها، فما الأسباب الكامنة وراء تقصير الدولة العثمانية في منازلة الأساطيل البحرية الأوربية، وجني ثمار مادية ومعنوية وحقوق تاريخية في العالم الجديد، لا تقل عن الحقوق نفسها التي تمتعت بها أوربا في هذا المضمار !؟ علماً بأن الدولة العثمانية عهدئذ، كانت تمثل المرجعية السياسية الوحيدة للأمة الإسلامية ! هذا ما سيجيب عنه (الفصل الثامن) من هذا الكتاب .

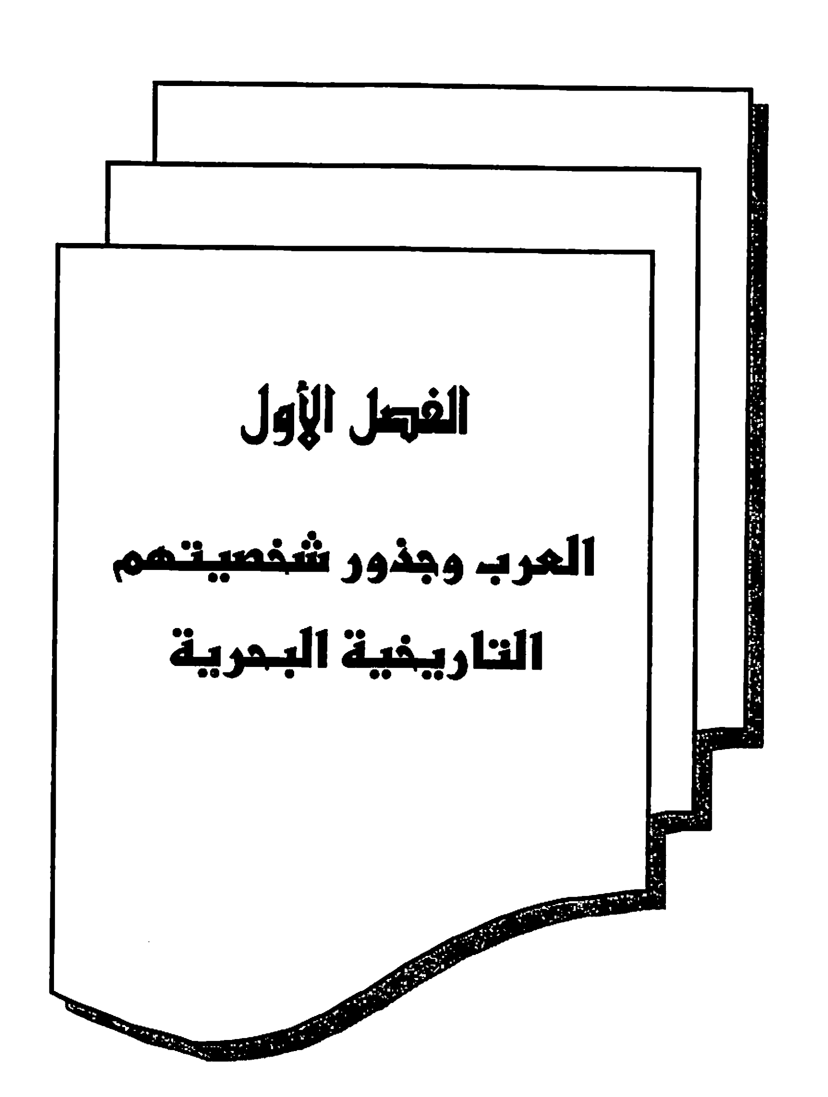
بعد ونحن نبحر في ركاب حضارة أمتنا العظيمة، نرجو مخلصين أن تقدم الصفحات التالية البرهان الصادق على علو كعب تلك الأمة كابراً عن كابر في مختلف ميادين العلم والفكر، ومنها ريادتها في عالم البحار ومخر عبابها، وفي أسبقيتها في ميدان الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، التي كانت السبب الرئيسي في عودة الأرض المجهولة إلى الكوكب الأم ولا غرو، أياً كان المستفيد في اللحظة الأخيرة من اكتشاف (الدنيا الجديدة)، فإنه باتفاق العلماء والأدلة القوية التي لا تقبل التأويل قد تغذى بعلومنا، وقرأ الطريق إليها بلغتنا، واستهدى بخرائطنا، وأبحرت سفنه بأشرعتنا، واستعان بأجهزتنا الملاحية، وحقق حلمه بالوصول إلى شواطئ الأمان ببحّارتنا، وأيا كانت المتغيرات والثوابت، سيبقى فضل أمتنا على الإنسانية محيطاً بلا شواطئ، يتجدد أثراً بعد أثر في ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

هوامش المقدمة

١. كريستوفر دومينيك كولومبوس أو خريستـوف دومينيـك كولومبـوس . Christopher Dominic Columbus or Christoph Dominco Colombo بحار إيطـالي شـهير مـن مواليد مدينة جنوى (٨٥٥-٩١٢هـ = ١٤٥١-١٥٠٦م).

٢. Aileen Vincent-Bar wood (Columbus: What if?) in Aramco World (Magazine) vol.43, No.1, Jan-Feb. 1992, pp 2-9, See here p5. جورج يعقوب (المستشرق الألماني) أثر الشرق في الغرب خاصة في العصور الوسطى، نقله إلـى العربيـة فؤاد حسنين علي، من منشورات لجنة البيان العربي، دار مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٤٦م .

٣. محمد معروف الدواليبي، دراسات تاريخية عن أصل العـرب وحضاراتـهم الإنسـانية، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧١م، ص٥ وما بعدها، انظر كذلك جورج يعقوب ، المرجع السـابق، ص٦، أيضـا: Gordon Childe, New Light on the Most Ancient East Edinburgh University, 1943, pp.77 ff.



الفصل الأول

العرب وجذور شخصيتهم التاريخية البحرية

الفصل الأول

العرب وجذور شخصيتهم التاريخية البحرية

قبل فجر التاريخ ومعرفة الكتابة والتدوين، عرف البحـــر العـــرب، وعرفـــوه، ومخروا عبابه وحرثوه، وسبروا أغواره القريبة والبعيدة، وألفوه، وكانت وسيلتهم فـــي التعاطي مع هذا الوله البحري الساحر قواربهم البدائية المصنوعة من الجلود، أو جذوع الأشجار المجوفة، أو أي مادة أخرى استطاعوا أن يصنعـــوا منـــها ســـفنهم الأولـــى لأغراض الملاحـــة أولاً، والتعاطي مع البحر كشأن حياتي وتواصل حضاري ثانيـــاً. فاصطادوا من أسماكه، وغاصوا فيه لاستخراج لآلئه، وكلما امتلأت قلوبـــهم بعشـــقه، ازدادوا نهماً بحبه، وكلما امتلأت جعبتهم بمعرفته وكشف أسراره وكنوزه، قالوا: هـــل من مزيد، وما قصة القرآن عن نوح وسفينته، ويونس وحوته – التي جاءت في ســـياق القصص القرآني المعجز للعظة والعبرة – وذكر المـــاء والبحـــر والبحـــار، والنـــهر والأنهار، وعين وعيون الماء، والفلك والسفينة والجوار المنشآت كالأعلام(١) في معظـــم سور القرآن الكريم وآياته، إلا دلالة واضحة، وإشارة قرآنية صريحـــة علـــى الصلـــة الوثيقة والعلاقة الأزلية الحميمة بين البحر العرب القدماء الجدد(٢).

جاء انسجاماً مع هذا البعد القرآني معنى كلمة (عرب) وجميع مادتها ومشـــتقاتها ودلالاتها لتصب جميعاً في معين دلالة الكلمة القرآنية الثرة. فقد وردت فـــي معـــاجم اللغة بمعنى الماء الكثير، والعرب: الماء الصافي، يقال: ماء عرب كثير، ونهر عـــرب، وبئر عربة : كثيرة الماء، والعربة، جمع عربات، وعربات : النهر الشـــديد الجـــري، والعربات، سفن رواكد كانت في بغداد على نهر دجلة (٣). وتبعاً لهذا المعنـــى جـــاءت (أسماء الأماكن الكثيرة والمألوفة في جزيرة العرب، التي تحمل اسم (عربة)، منها باحة إسماعيل عليه السلام في مكة، فقد سميت (عربة) لوجود ماء زمزم فيها). وهكذا لـــم تلبـــث صيغة الجمع لكلمة عربة أن أصبحت علماً – في اللغات العربية القديمة – على مـــهد العرب في جزيرتهم لكثرة المياه والأنهار فيها، وإلى هذا الاسم نسبوا وســـموا، عربـــا باسم بلدهم (العربات) لا بمعنى البداوة والجفاف والصحراء كما نقل عن العبرانيين (٤) .

لقد جعل المؤرخون العلاقة بين الماء والحضارة وطيدة، ذلك أن الماء كان أحد أهم عوامل الاستقطاب والجذب للإنسان قبل التاريخ وبعده، حيث أنشأ عليها حضاراته الأولى المستقرة، من زراعة للأراضي، واستئناس للحيوان، واختراع للإبرة، وإنشاء للمدن، واختراع للكتابة (الأبجدية)، وارتقاء للفكر، وقيام للدول والنظم السياسية الرفيعة، ولعل للعرب القدح المعلى في خلق وتكوين هذا كله.

أما عن علاقتنا بالبحر، فكلام أعداء أمتنا ومن دار في فلكهم مردود عليهم، ولا يتفق مع أبسط قواعد المعرفة العلمية وألف باء تاريخ العرب، ولا نظن أنه من الصعوبة بمكان التثبت من ذلك بعد أن ظهر للعيان ألف دليل ودليل على هذه العلاقة، حتى جزمت عشرات المصادر العلمية الرصينة بأن أمتنا أستاذة العالم ومدرسته البحرية، وما الهجرات التي تدفقت كالنهر الخضم من شبه الجزيرة العربية إلى الجهات الأربع من العالم المعروف، إلا دليلاً على أننا النواة التي انبثقت منها الحضارات الإنسانية في بحرها وبرها وبالتالي لواقح الفكر البشري الراقي والسامي.

حول معنى كلمة عرب، يقول د. محمد معروف الدواليبي، في كتابه الموجز : <u>دراسات تاريخية عن أصل العرب وحضاراتهم الإنسانية</u>، "إنّ ما ذهب إليه المستشرقون اليهود، بأن معنى كلمة (عرب) ومادتها في اللغة العبرانية إنما يعني في الأصل الجفاف والصحراء والبداوة، وأن كلمة عرب مأخوذة من مادة (عرب) بمعنى أمحل وأجدب في كثير من اللغات السامية، وأن صيغة (عرابة أو عربة) العبرانية استعملت اسماً للأرض القفر". ويدحض د. الدواليبي آراء المستشرقين اليهود، وما توصلوا إليه من مدلول لمعنى الكلمة عن سابق سوء نية، عندما تعمدوا إهمال ما جاء في أهم اللغات السامية اليوم، وهي اللغة العربية، والتي يحمل أصحابها وحدهم اسم (العرب)، وأن معنى المادة في اللغة العربية جاء مخالفاً تمام المخالفة لما جاء في اللغة العبرانية، وأن موضوع المخالفة متعلق ببلاد اللغة العربية، ولا يجوز الحكم على معاني كلماتها الأساسية بمعان مستوردة من لغة غير عربية !

بما أن الهوة واسعة بين اللغتين العربية والعبرانية في معنى كلمة (عرب)، فإنه أصبح من الضروري الأخذ بالمعنى الثابت عند أهل اللغة العربية، لا عند أصحاب

غير اللغة العربية.[٥] هذا بالإضافة إلى إهمال المستشرقين اليهود – بنية خبيثة مبيتة – المعلومات التي وردت في كتب اليونان وغيرها من النصوص القديمة، وكذلك ما جاء على لسان المصريين القدماء، التي تدعمها بين الفينة والفينة اكتشافات أثرية مبهرة، كلها تؤكد وجود أنهار طويلة في بلاد العرب، كذلك تجاهلهم استعراض نصوص العهد القديم (التوراة) فيما يتعلق بالدلالة على مفهوم كلمة (عربة) فيها، فهي كثيرة، وكلها تتفق بقوة بأن كلمة (عرب) ومادتها إنما تدل حصراً على (الأرض الطيبة) ذات الأمطار والعيون والأنهار، وأنها تفيض لبناً وعسلاً في أرض الكنعانيين الساكنين في أرض العرب، وهذا يعكس تناقض الكتب العبرية، ويبطل ما جاء فيها من أن كلمة (عرب) إنما تدل على الصحراء والجفاف والبدو والجدب والأرض الموات القفراء [٦].

وتوصل د. هالي مكلور Maclure (جيولوجي متقاعد) – في رسالة علمية أعدها لنيل درجة الدكتوراه من جامعة لندن (١٩٨٤م=١٤٠٤هـ) – إلى أن جزيرة العرب – وفي ربعها الخالي بالذات– كانت مملوءة بالبحيرات، مسجلاً بذلك فجوة في خريطة تاريخ المناخ العالمي، فيشير: "إلى أن صحراء الربع الخالي بدأت في التكون قبل ما يزيد على مليوني سنة، بينما تبدو بحيراتها وكأنها قد تكونت بالأمس القريب، في لغة الجيولوجيا. ويرى أن الأدلة تشير إلى تكون بحيرات في الربع الخالي خلال فترتين تاريخيتين : الأولى في الفترة التاريخية الممتدة من ٣٧٠٠٠ إلى ١٧٠٠٠ سنة مضت، والثانية في الفترة التاريخية الممتدة من ١٠٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ سنة مضت".

لقد قوبلت فكرة تكون البحيرات في الربع الخالي – في فترة السبعينات من هذا القرن – بكثير من الاستهجان والحذر، ولكن مكلور قدم من الأدلة والمعلومات ما يرتقي إلى مستوى المسلمات والحجية العلمية، مستنداً إلى معلومات كان قد جمعها المنقب هاري جون فيلبي Philby من وسط الصحراء العربية منذ أكثر من خمسين عاماً، بالإضافة إلى اكتشافات أرامكو في (العربية السعودية)، Arabian (Aramco) American Oil Company وكلها تثبت أن هذه المنطقة من جزيرة العرب كان يوجد فيها أكثر من ألف بحيرة. يقول فيلبي نفسه في كتابه الذي أطلق عليه اسم (الربع

الخالي) The Empty Quarter إنني أستطيع تصور الرجل البدائي على ضفاف نهر قديم أو بحيرة يمارس مهنة الصيد، مستخدماً رماحه وأقواسه ليصطاد البهائم التي قدمت لتشرب من المياه الوفيرة؟ لقد تزامن بناء الحضارة في صحراء الربع الخالي مع حضارات عظيمة، كالتي بنيت في مصر وبلاد ما بين النهرين ، ولكن الظروف الطبيعية قضت على حضارة تلك المناطق (٧).

لعل هذا ما حمل المصريين القدماء على تسمية بلاد العرب في كتاباتهم بـ (أرض الله)، لوفرة خيراتها وغاباتها الكثيفة المكتظة بالأشجار. ولوجود أخشاب ضخمة فيها تستغل في صناعة السفن... ويبدو، في هذا السياق، أن حديث المؤرخ والرحالة اليوناني، هيرودوت Herodotus (٤٨٤ – ٤٢٥ ق.م) الملقب بـ (أبو التاريخ) عن الرحلة المصرية التي وجهها الفرعون (الملك) نخاو Naco حول أفريقيا من المشرق إلى المغرب حديثاً صحيحاً. كذلك يمتدح بلاد العرب – التي زارها بنفسه – ووصفها بأنها تزخر أريجاً وعطراً، وذكر أن فيها نهراً قال عنه كورس (Koras): "إنه من الأنهر العظيمة، وإنه كان يصب في البحر الأحمر"، كما تحدث ثيوفراست Theophrastos (٣٧١ – ٢٨٧ ق.م) – تلميذ أرسطو Aristotle (ت ٣٢٢ ق.م)– في كتابه، تاريخ النبات، عن أطياب بلاد العرب الشهيرة. ويصف السبأيين بأنهم محاربون وزراع وتجار، يسافرون على وجوه البحار في السفن أو زوارق من الجلد للتجار. (٨) ومثله ديودور الصقلي Diodoros (ت ٤٠ ق.م) – مؤرخ يوناني معروف – وصف بلاد سبأ "بأنها تفوح في طول البلاد وعرضها روائح عطر طبيعي. كما ذكر بطليموس Ptilemy (٩٠-١٨٦م) – الذي يعد من أعظم فلكيي وجغرافيي اليونان – نهراً آخر عظيماً سماه (لار lar) وقال إنه ينبع من منطقة نجران، ثم يسير نحو الجهة الشمالية الشرقية مخترقاً بلاد العرب حتى يصب في الخليج العربي". (٩)

وخير دليل على ذلك، نصوص القرآن الكريم، والسنة المطهرة، التي أعطتنا أنقى صورة عن أحوال جزيرة العرب فيما قبل التاريخ، حيث كانت تتمتع بأجواء رطبة وسماء كثيرة الأمطار، وأرض كثيرة الأنهار.. وجاء في القرآن الكريم آيات صريحة

في المياه والجنان والعمران والنعمة التي نَعِمَ بها الأقوام من عرب بائدة وباقية، ما يصل إلى نحو من أربعين آية، جاءت جميعها في معرض التذكير للعرب عند نزول القرآن الكريم وحتى اكتماله، بهدف الاتعاظ بمن سبقهم من الأقوام، الذين خسروا هذا النعيم المقيم لكفرهم بأنعم الله. قال تعالى "**أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ، وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ**". (الأنعام: ٦) وفي هذه الآية الكريمة، يستدل على أن سكان شبه جزيرة العرب القدماء كانوا ينعمون بالأجواء الممطرة والأنهار الوافرة.

كذلك تشير الأحاديث النبوية إلى كثرة الأمطار والأنهار قديماً في شبه جزيرة العرب، وإلى أنها ستعود كما كانت في سابق عهدها جنات وأنهاراً ... قال رسول الله: ﷺ "لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض، وحتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحداً يقبلها منه، وحتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهارا". (أخرجه الحاكم) وهذا ما أثبته العلم الحديث، من صحة كون جزيرة العرب في الماضي منطقة عامرة بالخضرة والمياه الوفيرة، بل ذهب علماء المناخ إلى الحد الذي أكدوا فيه، أن الظروف المناخية نفسها ستعود إلى جزيرة العرب مرة أخرى في مستقبل غير بعيد".(١٠)

يرى بعض الباحثين – في صلب الموضوع – ضرورة الأخذ بعين الاعتبار ما تردد في العقود الأولى من هذا القرن من نظريات تقول : إن الكلمة البابلية (مات تميم) التي تعني (أرض البحر)، كانت ترمز إلى الجزيرة العربية في عصورها القديمة، وإن كلمة (جملوا) البابلية أيضاً كانت تعني حرفياً (حيوان أرض البحر). كما أن التسميات العربية الكثيرة للعديد من القبائل والمواقع تعزز من هذه الفرضيات العلمية، مثل اسم قبيلة تميم المشتق على الأرجح من الاسم البابلي (تمتيم) وتعني البحر، ومما يزيد في صحة المعنى وجود إله قديم لدى بعض الأقوام السامية باسم (يم) وتعني البحر، ومن غير المستبعد كذلك أن يكون المقصود بـ (تيم) (تيمتا) وهي الصيغة البابلية لـ (البحر)، وما تزال كلمة اليم تعني البحر باللغة العربية والعبرية.

يمكن أيضاً إيراد كلمات عربية أخرى، تنهض دليلاً على صحة هذا الافتراض مثل البحرين، وكذلك اليمامة من (اليم – البحر) وكذلك تيماء والخضرمة (وهو اسم اليمامة القديم، وربما اشتق من الخضرم – البحر المظلم)، وحضرموت (وهي من الخضرمة) وقد أبدلت الخاء حاء وفق لهجة قديمة، ذكرها صاحب لسان مادة العرب (حضرم). وتهامة (المنخفض، أو إله البحر في البابلية تيامات). وهذه كلها تدل على البحر في اللغة العربية والسامية القديمة، وكذلك الحال مع كلمات عاد (من الماء العد)، وثمود (من الثمد – ركايا لجمع ماء المطر) حسب المراجع العربية المعتمدة (١١). هذا فضلاً عن أن العرب كانوا يتسمون بأسماء حيوانات مائية، ويتخذون من بعضها (طوطماً)، ومن أشهر القبائل العربية التي تسمت باسم من أسماء الحيوانات المائية قبيلة قريش العربية نفسها (١٢).

لعل فيما تقدم تفنيداً لحجج المستشرقين اليهود وأضاليل المعاجم العبرية، التي تحاول طمس الحقيقة بتفسير معنى كلمة (العرب) على نحو مخالف لأبسط قواعد الأمانة العلمية، لتعطي صورة مشوهة عن أمتنا، إرضاء لنفوسهم المريضة التي تفيض بالحقد والكراهية على العروبة والإسلام!؟

جاء هذا التجذير لكلمة عرب في إطار الخلفية التاريخية لموضوعنا لضرورات قومية وحضارية، بعد أن أضحى الصراع الحضاري مع أعداء أمتنا خاصة – اليهود – أمراً واقعاً وملموساً، ولا أدل على ذلك من هذا السيل المنظم من كتب ودراسات، تشرف على نشرها جهات عديدة مشبوهة وبكل اللغات هدفها النيل من شخصيتنا، ومقومات حضارتنا، وثقافتنا، وديننا، وهم أول من بدأ بتدمير أساسياتنا بالادعاء أن كلمة (عرب) تعني البادية (الصحراء) والبداوة، وبالتالي لا تنطوي هذه الكلمة على بعد حضاري، أو دلالات في المعنى لهذا المفهوم، والنتيجة عندهم أن أمتنا تعاني من إفلاس حضاري وتصحر فكري عام، وبهذا يحاولون رسم صورة في أذهان العالم بأن تاريخنا العربي وأصول حضارتنا وليدة الصحراء المقفرة الجافة ورمالها الحارة الميتة، وهذه الصورة يمكن تكبيرها صحراوياً بهدف مصادرة أي مفهوم يقود إلى علاقة أمتنا العربية بالبحر وعالمه، وما ينطوي عليه هذا المفهوم من مزايا وأبعاد حضارية .

يكفي أن نشير إلى أن العرب عبر التاريخ كانوا سكان البادية والحضر، وفي الوقت الذي عرف فيه سكان البادية بالبدو، فقد عرف سكان الحضر بأسماء قبائلهم أو بأسماء الأماكن (المواقع) التي يقيمون فيها، وينهض دليلاً حياً على ذلك ما أكدته حفريات واكتشافات الفاو الرائعة، التي أسكتت إلى الأبد المزاعم التي كانت تنكر - حتى ساعة الفتوحات الأثرية لحملة الفاو - أن للعرب أي دور حضاري في ميدان الفن المعماري والهندسي، أو أي صلة بالفنون بشتى مسمياتها وأنواعها، وكانت النتيجة أن أبرزت هذه الحملة نقوشاً وآثاراً باقية أظهرت أن أمتنا إلى جانب شعرها ونثرها الخالد، تملك ثروة حضارية - ولا أثمن - تتمثل في الآثار التي تركها الآباء والأجداد منتشرة في أنحاء الجزيرة العربية، في الفاو، ومعين، ومأرب، وشبوة، وصرواح، ونجران، وتيماء، والحجر، وغيرها، من بقايا المدن والحصون والقصور والسدود والأعمدة والألواح الرخامية والبرونزية والمسكوكات، حيث تعتبر من أرقى تراث الأمم العلمي والفني. وهي تثبت في الوقت نفسه، أن العرب كانوا على علم واسع بالهندسة والحساب والمتواليات العددية، وأن المثلث والأشكال الرباعية والمستطيل والدائرة وشبه المنحرف كان كل ذلك جزءاً لا يتجزأ من علومهم ومعارفهم الكثيرة، التي كانت لا تقل عن معارف باقي شعوب العالم القديم الأخرى المعروفة، فضلاً عن تضلعهم في علم الكيمياء والتعدين والري والملاحة [١٣].

من المحزن أن يكون دور أمتنا الرائد في مختلف الصور الحضارية غائباً عن أذهان أجيالنا، وإن حضر فانه يحاط بالشك والريبة، ونغيبه من ضمائرنا في موقف استسلامي خطير لأشرس حرب ثقافية شاملة، لم تعهد لها أمتنا مثيلاً من قبل، وقد شحذ العدو فيها كل أسلحته لتصفية الشخصية العربية الإسلامية روحياً وجسدياً.

من هنا تأتي أهمية هذه التوطئة من الدراسة في تقديم الأدلة التاريخية الأثرية كسند قانوني يؤكد أسبقية أمتنا التاريخية في صياغة الحضارة الإنسانية في إطارها العام، ومن ثم دورها على وجه التحديد (هو موضوع دراستنا) في الكشوف الجغرافية والفكر الجغرافي، الذي يعود إليه الفضل الأول في اكتشاف النصف الثاني للأرض.

يبدو من الأهمية بمكان أن تختتم هذه الفقرة، بالإشارة إلى البحوث العلمية الرصينة، المبنية على دراسة الآثار الحضارية القديمة، والتي جزمت بحقيقتين علميتين جديدتين هما: (أولاً) إن الحضارة الإنسانية الأم إنما نشأت في جزيرة العرب وفي جنوبها على وجه الدقة، ثم اضطرت هذه الحضارة – تحت تأثير حدوث الجفاف في الجزيرة العربية – فريقاً من أصحابها من أكديين وبابليين وآشوريين وغيرهم من الانتقال والانتشار إلى جوانب الرافدين في العراق وما حوله، كما اضطرت فريقاً آخر من أصحابها، بجميع أسرهم الجنوبية والشمالية إلى الانتقال والانتشار على جانبي النيل.[١٤] (ثانياً) إن الأبحاث الأثرية العلمية أيضاً أكدت أن هجرات عربية أخرى امتدت منذ زمن ما قبل التاريخ إلى كل من أفريقيا الشرقية والشمالية، والبلقان، وإيطاليا، وإسبانيا، كما وصلت إلى كل من القفقاس وبحر الخزر (قزوين) من جهة، وإلى ترانسيلفانيا (الآن مقاطعة في وسط رومانيا إلى الجنوب)، وسلوفاكية (الإقليم الشرقي من تشيكوسلوفاكيا وأعالي بوهيمية في ألمانيا) عن طريق مجرى الدانوب من جهة أخرى، وأخيراً إلى كل من فرنسا، والجزر البريطانية، وأيرلندة، واسكندنافية (السويد والنرويج والدانمارك) من جهة ثالثة.[١٥]

هكذا يبدو بوضوح أن هجرات عربية ضخمة انطلقت من جزيرة العرب في موجات متتابعة، بين الموجة والأخرى زهاء ألف عام، وظلت الجزيرة العربية الخزان البشري الذي يفيض من سعته، ثم يتدفق هجرات تنتشر في جميع أنحاء العالم آنذاك، ويمكن القول إن هؤلاء المهاجرين من بلاد العرب، في عصور مختلفة لم يكونوا قوماً بدائيين، بل كانوا أصحاب ثقافة مميزة وعلى مستوى حضاري رفيع أهلهم أن يقيموا نظماً معتبرة وحياة اجتماعية محترمة،[١٦] ومن نافلة القول ما كان للعرب من مكانة علمية ومنعة وقوة منذ الألف الثاني (على الأقل) قبل الميلاد، عندما أقاموا الدول الكبرى التي استمرت ما يقرب من ألفي سنة. ولعل أهمها: دولة معين العربية (١٣٠٠ – ٦٥٠ ق.م) ودولة سبأ العربية (٦٥٠–١١٥ ق.م) ودولة حمير العربية (١١٥ ق.م – ٥٢٥ م).[١٧]

وقد اكتشفت حديثاً د.يوري زارينــز Y.Zarins (أستاذ الآثار في جامعة ساوث إيست ميسوري الحكومية الرسمية في سبرنغفيلد) وفريق التنقيب الذي يصحبه، بمنطقـة شيسعر في عُمان، حضارة سفارا العاصمة القديمة لمملكة تجـــارة اللبـــان أو البخـــور المعروفة باسم عاد، التي يعود تاريخها إلى خمسة آلاف ســنة قبــل الميـــلاد. وكـــان الجغرافي المعروف بطليموس قد ذكر الكثير عن عظمة تلك المدينة وثروتها في كتاباته وخرائطه عنها، و د. زاريـــز على قناعة تامة بأن حاضرة سفارا، أو عيـــن حمـــران كما تدعي اليوم، إضافة إلى مواقع مهمة أخرى – برية وبحرية – على مسافة قريبـــة من ميناء صلالة، هي مركز تجارة البخور في العصور القديمة، التي كانت تمتد إلـــى البحر المتوسط وبلاد الرافدين وبلاد الهند في الألف الخامسة قبل الميـــلاد، ويقـــول د. زاريـــز إن أحد الجوانب التي نعمل على إتمامها الربـــط بيـــن العنـــاصر والخـــروج بتصور شامل عن أن الناس الذين كانوا يقطنون شبه الجزيرة العربية حوالـــي الألـــف الخامسة قبل الميلاد كانوا يتعاطون التجارة مع أقاليم نائية (من العالم القديم). ويتوقـــع زاريـــز أن تسفر الاكتشافات في النهاية عن نتائج تؤكد وجـــود تلـــك الإمبراطوريـــة التجارية القديمة، وبالتالي فكرته القائلة أن سكان سلاسل قارا الجبلية فـــي عُمـــان هـــم الأحفاد المباشرون لقوم عاد الذين ذكروا في الكتب السماوية.(١٨)

كما حظيت اللغة العربية نفسها باهتمام الباحثين ودراساتهم التي ناقشـــت بعمـــق معنى كلمة (عربي) ولفظة (عرب) وتطورها التاريخي، والبحث عن أول مـــن نطـــق بالعربية، وقد تمخض عن هذه الدراسات معلومات تؤكد بأن اللغة العربية هي أم اللغات جميعاً، من هذه الدراسات العلمية القيمة التي ظهرت في الســـنوات القليلـــة الماضيـــة دراسة أعدتها بالغة الإنجليزية د. فتحية إسماعيل الأستاذة المتخصصة في علم اللغويات بجامعة الأزهر بعنوان (اللغة العربية أصل اللغات) وقد ألحقت بالكتاب جـــداول تبيـــن الألفاظ المشتركة بين اللغة العربية والإنجليزية، وبين العربية واللاتينية، وبين العربيـــة والهيروغليفية، وبين العربية والألمانية، وبين العربية والأنجلوسكسونية وبين العربيـــة والأوربية القديمة، وبين العربية واليونانية، وبين العربية والسنســـكريتية، لتصـــل فـــي

النهاية إلى أن هذا الكم الهائل المشترك بين العربية وجميع هذه اللغات المختلفة أساسه معين واحد ونبع واحد هو اللغة العربية الأم.(١٩)

في القرآن الكريم أصدق دليل على عالمية اللغة العربية، وقد جاءت لفظة العربي في الكتاب الكريم، لتعبر عن المعنى القومي للأمة العربية العالمية الواحدة، واللسان العربي العالمي الواحد، يقول د. جواد علي "علماء العربية لم يتنصلوا من عروبة حمير ولا عروبة غيرهم ممن كان يتكلم بلسان آخر مخالف للساننا، بل عدوُّهم من صميم العرب ومن لبّهم، ونحن لا نستطيع أن ننكر على الأقوام العربية المنسية عروبتها لمجرد اختلاف لسانها عن لساننا، ووصول كتابات منها مكتوبة بلغة لا نفهمها، فلغتها هي لغة عربية ما في ذلك شبهة ولا شك".(٢٠)

أما عن الحضارة العربية قبل الإسلام، فهي من العلو لدرجة لا يستطيع أحد أن يقفز عنها أو يتجاهلها، وحسبنا ما أجمع عليه المؤرخون: "من الربط بين الحضارة والماء، وبأن العلاقة وطيدة بينهما – كما تقدم بالتالي كان الماء مسئولاً عن تكوين المدن، ونمو الحضارة المستقرة، وعن الازدهار والرخاء الاقتصادي، ورقي الفكر الإنساني. هذا ما كانت عليه جزيرتنا العربية في تاريخها القديم، من أجواء مطيرة، وأنهار طويلة، وبحيرات كثيرة، وغابات كثيفة، ومحاصيل وفيرة، ومن ثم ليس من المنطق أو المعقول أن ينزل القرآن الكريم بجلاله وقدره، مع فصاحة لفظ وبلاغة أسلوب وبيان على قوم رُحّلْ لا يدركون ما فيه من سمو المعاني، وما اشتمل عليه من أساليب معجزة تبهر العقول، ومن قصص وأخبار، تُذَكِّر أولي الأبصار، ومن تراكيب مفخمة، ومن آداب وحكم، وعلم ومنطق، وفكر وتشريع" الخ. (٢١)

لقد هيّأ موقع الجزيرة العربية الاستراتيجي، ومكانتها الدينية والتاريخية، لتكون قلب الدنيا النابض، وأم الأرض، وجاء في الأثر: " أول ما خلق الله في الأرض مكة، ومنها دحيت الأرض"، (تفسير الطبري ٨/٤) لهذا فإن الأمة التي جاء من رحمها إنسان الأرض لها الحق في حماية إنجازاتها التاريخية ورصيدها الحضاري الأمثل، وحسبها أنها الأمة التي حملت رسالة الله الأخيرة إلى العالم، لتخرجه من ظلمات الجهالة والهمجية إلى نور العلم والمعرفة والحق المبين، علىمبدأ " **إنما المؤمنون إخوة** "

(الحجرات:١٠) و" إن أكرمكم عند الله أتقاكم " (الحجرات: ١٣) وأنه "لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى" (أخرجه الطبراني) إنها هدية الله الدائمة إلى الأرض.

صلة العالم القديم بالجديد جغرافياً وبشرياً

(أ) الصلة الجغرافية :

قبل سنة (٨٩٨هـ = ١٤٩٢م) لم يكن يخطر ببال الإنسان العادي في أوربا أن هناك جزءاً ثانياً مجهولاً من الكرة الأرضية. اللهم إلا ما فتح العرب أعينهم عليه من معلومات جغرافية وملاحية دقيقة، لكن الإنسان طالما فكر في الكوكب الذي يعيش فيه، وعمر كرته الأرضية، الذي ظل دائماً سراً من أسرار هذا الكون الرحب، ولغزاً من ألغازه المحيرة، وقد سعى الإنسان بثبات للتوصل إلى إجابة شافية عن هذه المسألة، وقد ظهرت نظريات علمية جديدة لعلماء الفلك والجيولوجيا، بعثت الأمل في النفوس بإمكانية التوصل لإجابة حاسمة عن هذه المسألة، تعطي المزيد من الحقائق عن الكون والطريقة التي ربما تكونت بها الأرض والشمس وسر نشأة الكون بشكل عام.

في هذا السياق، تم حديثاً إعلان أهم اكتشاف علمي في القرن العشرين يتعلق (بسر الانفجار الكوني الكبير) فقد اكتشف أحد الأقمار الاصطناعية التابع لوكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) NASA كميات كبيرة من الموجات الصغيرة قرب حافة الكون من شأنها أن تميط اللثام عن كيفية تكَوُّن المجرات والنجوم وتطورها منذ الانفجار الكبير، كما ظهرت أيضاً نظريات جديدة تنسف المسلمات الفلكية الشائعة عن كواكب المجموعة الشمسية بالقول إن كواكب المجموعة الشمسية عدة مئات لا تسعة فقط ، وهذا من شأنه أن يحدث ثورة كبرى في علم الفلك ويقلبه رأساً على عقب.[٢٢] وقد أدى هذا كله أيضاً إلى توفر معلومات جمة عن الأرض تتعلق بالتغيرات الهائلة التي طرأت عليها، وقد أكد القرآن الكريم وكتب التفسير هذه الحقائق العلمية -وليس النظريات- وكان للقرآن الكريم وسيبقى دور كبير في إعطاء العلماء تعريفاً دقيقاً لهذه الظواهر الكونية.

يعتقد العلماء أن سطح الأرض كان منذ أزمنةسحيقة خالياً من القارات والمحيطات، وسبب ذلك أن الأرض كانت على شكل كرة متماسكة تماماً، ثم لعوامل ومتغيرات كونية وطبيعية – عبر مراحل زمنية متتالية ومتباعدة – أخذت البحار والمحيطات في الظهور، ومن ثم حدث انفصال القارات المعروفة اليوم، وطرأ على الأرض خلال ملايين السنين تغيرات جوهرية متلاحقة، فأجزاء كثيرة من اليابسة التي نعرفها اليوم كانت عبارة عن بحار، وعلى العكس من ذلك فإن أجزاء من الأرض التي تغطيها البحار الآن كانت أجزاء من اليابسة، ويرجح العلماء أن كوكب الأرض تعرض بدوره إلى ما اصطلح على تسميته ب (الانفجار الكبير) أو (الدوي الكبير) الذي حدث للكون عموماً وترتب عليه شكل الكون بشكل سنة، وكوكب الأرض بشكل خاص – وبالقدر نفسه الذي احتار العلماء في تقدير عمر الأرض، احتاروا كذلك في عمر الإنسان نفسه.

مع أن أقوالاً عديدة قيلت في نشأة الإنسان على الأرض، وتتأرجح التقديرات هذه بين المليون والمليار سنة! إلا أن هناك شبه إجماع بين علماء الأنثربولوجيا، يرجح أن الإنسان الأول دب على الأرض منذ نحو مليون سنة مضت.(٢٣) وإذا صح هذا الافتراض، فإن ما عناه العلماء هنا في كلمة الأرض، يعني النصف المعروف منها (العالم القديم) أما نصف الكرة الغربي (العالم الجديد أمريكا) فإنه في هذه الفترة من تاريخه، دخل في الحقبة الأولى من الحقب الجليدية الأربع، ثم بحركة بطيئة هبطت كتل الثلج الهائلة نحو الجنوب، لتتراجع مرة أخرى خلال آلاف السنين، وعند مضيق بيرنغ، (٢٤)حيث تكاد تتصل آسيا (سيبيريا الروسية Siberia بطرف ألاسكا الأمريكية Alaska ،(٢٥) في أقصى الشمال، هنا تكوّن جسر من الجليد Glacial Land Bridge ربط نصفي الكرة القديم والجديد.(٢٦)

(ب) الصلة البشرية :

يرجح العلماء أن إنسان آسيا عبر إلى النصف الكرة الغربي (العالم الجديد) فوق هذا الجسر الجليدي منذ حوالي ١٢ ألف سنة مضت تقريباً. ودعم هذه النظرية الهياكل العظمية التي عثر عليها هناك، والتي ترجع إلى ما قبل التاريخ لها الخواص

(المونغولية) نفسها التي للإنسان الآسيوي. كما أن لـلآسيويين شعراً أسود مسترسلاً، وعيوناً سوداء منحرفة، وبشرة في لون البرونز، وهي الصفات نفسها التي يتميز بها أبناء آسيا عموماً، والهنود المحدثون خصوصاً – علماً أن في عرف الأوربيين آنذاك أن الهنود المحدثين هم من غير العرب – ومن هنا جاء الخطأ الذي وقع فيه كولومبوس بتسميته سكان القارة الجديدة الأصليين (هنوداً)– حيث ظل يعتقد حتى وفاته أنه وصل إلى الهند فعلاً –لهذا كان من الطبيعي أن يلتصق هذا الاسم الخاطئ بسكان العالم الجديد الأصليين، كالوشم في ظاهر اليد.(٢٧)

لذلك أصبح من المسلمات في العصر الحديث أن كولومبوس لم يكن أول من عرف القارة الجديدة، وبالتالي لم يكن هذا (العالم الجديد) – كما ظن بعض العلماء – بكراً، حيث وجد (كولومبوس) – كما رأينا عند وصوله لشواطئ هذه القارة – أن إنسان آسيا قد سبقه إلى هناك منذ زمن موغل في القدم، وهذا ما أثبتته بالنص مجلة (ريدرز دايجست) الأمريكية الواسعة الانتشار، نقلاً عن "يو إس نيوز آند ريبورت U.S. News and Report ". يقول النص :"إن (العالم الجديد) يمكن أن يكون أي شيء إلا أن يكون خالياً (من السكان) في عصر كولومبوس، وأن الأمريكيين الأوائل كانوا آسيويين، وقد أتوا إلى (العالم الجديد) منذ أكثر من ١٢ ألف سنة مضت، ومن المرجح أنهم عبروا فوق جسر جليدي يصل بين سيبيريا والاسكا".(٢٨)

مهما يكن من أمر، فإن العلماء يعتقدون بأن إنسان آسيا استوطن (العالم الجديد) منذ زمن طويل، يصل ما بين عشرة إلى عشرين ألف سنة، وقد عاش هذا الإنسان على الصيد، وسكن الكهوف، وصنع أسلحته من الحجارة، واستخدم النار وبعض الآلات اليدوية، وكانت خبرته من المعرفة قليلة، لكنه ما لبث – تحت وطأة العصر الجليدي القاسي– أن توسع جنوباً، ثم تفرق على شكل هجرات جماعية، هبط بعضها الهضبة المكسيكية، ليواصل مسيرته عبر برزخ بنما Panama إلى الجزء الجنوبي من القارة (أمريكا الجنوبية)، ثم واصل بعض منهم انتشاره في جميع أنحاء القارة. (٢٩)

أما ما يتصل بالتطور الحضاري لهذه الشعوب الآسيوية في مراحل استقرارها فلا يعرف عنه الكثير، لكن من المرجح أن مرحلة الاستقرار الحيوية للمهاجرين الآسيويين الأوائل بدأت بممارسة الزراعة التي أملت عليهم الاستيطان كعامل أساسي في تأمين مصادرهم الضرورية للحياة والبقاء، لكن من المؤكد الآن أنه بمرور الوقت، توطدت هناك ثلاثة حضارات كبرى متقدمة باقية أصولها حتى اليوم، وهي حضارة الأزتيك Aztec .[٣٠] وحضارة الأنكا Inca (s) [٣١]، وحضارة المايا Maya (s) [٣٢].

(هـ) العرب والعالم الجديد :

يرجع كثير من العلماء أصل إنسان هذه الحضارات الثلاث، أو إنسان العالم الجديد (أمريكا)– الذي التقى به كولومبوس لأول مرة عند وصوله شواطئ الأرض الجديدة – إلى أصول عربية صريحة،[٣٣] فقد أوردت مجلة (اللسان العربي) معلومات تدل على أن القرطاجيين الكنعانيين – البونيين،[٣٤] قد وصلوا إلى البرازيل في خط هجرتهم القديمة في مطلع التاريخ، وهذا ما أثبتته البحوث العلمية الحديثة من وصول العرب إلى أمريكا في مطالع العهود التاريخية.. وأصدق دليل على ذلك، تلك الوثيقة التي عثر عليها في البرازيل مكتوبة باللغة القرطاجية سنة ١٢٥ق.م، ومنقوشة على رخامة جاء فيها (هنا إحنا بني كنعان م. فريم حقري حمل أوش حر حصل هك؟) وترجمته بعربيتنا (هنا نحن من بني كنعان من فرايم حملنا الحقارة (في إشارة لمحنة ألمت بهم) أليس هذا حراماً أن نحصل هكذا؟) ثم يصف أصحاب هذه الرخامة شدة وقعوا فيها من أسر ومرض وهلاك! [٣٥]

وجاء في مقالة للأب انستاس الكرملي (١٢٨٣-١٣٦٧هـ = ١٨٦٦-١٩٤٧م) تحت عنوان : (عرف العرب أمريكا قبل أن يعرفها أبناء الغرب) أثبت فيها من مصادر غربية: (أن العرب منذ أقدم الأزمنة قد سبقوا سائر الأمم إلى معرفة تيار الخليج الدافئ الذي يصل المكسيك، وأنهم نزلوا في المكسيك، ويعرف نزولهم فيها من أسماء الحيوانات التي تحمل حتى اليوم أسماء عربية، تعود إلى لغة العرب في تلك العهود القديمة).[٣٦]

كذلك أكد العالم المكسيكي ابيزاير لامارينا La marina أن الفينيقيين العـــرب[٣٧] هم أول من وصل إلى أمريكا قبل كريستوفر كولومبوس، وكان اكتشافهم للعالم الجديـــد من باب المصادفة قبل ٢٦ قرناً، كما يشير العالم المكسيكي إلى أنهم أقاموا مدة طويلـــة من الزمن في هذه البلاد قبل الاستعداد لرحلة العودة، إلا أنهم قبل أن يرحلوا عن القارة أمر ربان السفينة كاتباً أن يختار حجراً، ويكتب عليه ما يمكن اعتبـــاره دليـــلاً علـــى وجودهم في هذه الأراضي النائية، وهكذا بينما كانت السفينة تتأهب للإقلاع بـــدأ فـــي كتابة الرسالة: " نحن أبناء كنعان من صيدا مدينة الملك، التجارة جاءت بنا إلـــى هـــذا الساحل النائي من أرض الجبال، لقد ركبنا البحر في البحر الأحمر وأبحرنا في عشـــر سفن ومكثنا في البحر مدة سنتين ندور حول أرض حام أفريقيا إلا أننا فرقنا علـــى يـــد بعل[٣٨] بواسطة عاصفة فافترقنا عن أصدقائنا، ولا يعرف أحد إذا ما كانوا قد عـــادوا إلى أراضيهم الأصلية أم لا."

إلا أن المؤرخ الإغريقي (اليوناني) هيرودوت (٤٨٤-٤٢٥ ق.م) كان قد ســـجل في تاريخه مغامرة، قام بها مع جماعة من الفينيقيين على متن عشر سفن تحت إمـــرة أمير البحر كودمو (مؤسس أثينا، [٣٩] ومرافئ جزيرة قبرص وكريطا)[٤٠] حيث هبـــت عليهم عاصفة بحرية قبالة البرازيل.وأورد هيرودوت بطولات ومآثر خارقة قـــام بـــها كودمو بدورانه حول الأرض بعد أن عبر بحرين، ونزل وأصحابه أكثر من مرة فـــي العديد من السواحل، وبطولات من هذا القبيل معروفة عن الفينيقيين العرب، بوصفـــهم أول أمة بحرية عرفها التاريخ الإنساني.

هذا الحجر الذي كتب عليه الفينيقيـــون رسالتهـــم ظـــل هنـــاك فـــي ســـاحل بارايبا Paraiba في البرازيل مدة ٢٥ قرناً حتى عثر عليه أحد أبناء تلك المنطقة ســـنة (١٢٨٩هـ= ١٨٧٢م). وبعد اكتشاف الحجر وتنظيفه والاعتقاد أنه كـــنز أثـــري فـــي وثيقة تاريخية ذات قيمة عظيمة، تم تسليمه إلى أكاديمية العلوم في ريـــو دي جـــانيرو Rio de Janeiro، حيث شك الأركيولوجيون أول الأمر في صحتها، وظـــل العلمـــاء البرازيليون أكثر من مائة سنة يترددون في إعطاء حكم نهائي بأصالتها، حتى أظـــهر د. سايروس جوردن S. Jordan – وهو أستاذ آثار أمريكي– رغبته واهتمامه في تحليـــل

الوثيقة الحجر، وكانت المفاجأة الكبرى حين حسم هذا العالم الآركيولوجي الشك باليقين بإعلانه أن الحجر حقيقي، وأنه وثيقة حجرية أصلية لا يرقى إليها الشك.

أكد الباحث المكسيكي أنه بعد حجر (بارايبا) تم العثور على دلائل أخرى تؤكد وجود الفينيقيين في البرازيل، ففي مصب نهر الأمازون، تم اكتشاف أشكال خزفية عليها عدة رسوم فينيقية، يمكن للعالم أجمع أن يراها، ويتأملها في متحف جويل دي بليم Goel de Belem في البرازيل، هذا بالإضافة إلى العثور على عدة معالم في مناطق الغابات في أدغال (ماطو جروسو)، تشبه إلى حد بعيد البقايا والآثار الأركيولوجية التي اكتشفت في نواحي مدينة صيدا (لبنان).[٤١]

في دراسة علمية أخرى أجراها د. باري فل الأمريكي B. Phil، قدم أدلة عديدة مقنعة تشير إلى أن العرب كانت لهم رحلات مبكرة إلى القارة الأمريكية، وأن الآثار والكتابات التي تركوها هناك لدليل قاطع على وجودهم في القارة التي دعيت بعد أكثر من ١٧ قرناً (أمريكا)، وقد نشر الدكتور فل، كتابين الأول بعنوان (أمريكا قبل الميلاد)، والثاني (قصة حياة أمريكا)، وفي كلا الكتابين يجمع الأدلة من عدد من المكتشفات الأثرية، والآثار المعمارية، والمقارنات اللغوية، والرموز والمخربشات التي حلت رموزها، وكانت حتى ذلك الحين نقوشاً طلسما لا يعرف أولها من آخرها.

وقد حشد د. فل، تلك الأدلة كلها ليبرهن على نظريته المتعلقة بتاريخ أمريكا القديم، الذي يرى أنه يمتد إلى ما يزيد على ألفي سنة، شهدت خلالها القارة سفراً وترحالاً وتجارة واستعماراً وتبادلاً ثقافياً مع ثقافات وحضارات أخرى، ومن الأمور المهمة، تلك التحريات والدراسات التي قام بها هذا العالم للنقوش الصخرية الموجودة في حوض الكولورادو، والمعروف بـ (منحنى الحوض الكبير)، وكذلك لأشكال شبيهة من الكتابات التي وجدت، واكتشفت في جميع أنحاء الولايات الجنوبية الغربية، والمعروفة بالكتابة (الدودية)، لأن خطوطها تشبه الخط الذي تخلفه وراءها الديدان عند حركتها، وقد حفزت النتائج الباهرة التي توصل إليها د. فل إلى قيامه بسلسلة مقابلات ومراسلات مع علماء عرب أذهلتهم اكتشافاته.

نتيجة لذلك، بدأت الحقائق تفصح عن نفسها، وتتشابه الكتابات المنقوشة في (الحوض الكبير) و (الكتابات الدودية) مع الأبجدية البربرية في شمال أفريقيا إلى حد كبير، كما أنها لا تختلف كثيراً عن شكل كل من الخط الكوفي والنسخي والمغربي للكتابات العربية بعد ظهور الإسلام، وكان من نتائج هذا الاكتشاف المهم دراسة آلاف الصور الفوتوغرافية والمكتشفات الأخرى في مجال الخطوط المنحنية في منطقة (الحوض الكبير) والكتابات الدودية، ومع أن الفحص لم يتجاوز حدود كشط سطوح النماذج المتوفرة، فإن الفحص الدقيق يظهر نماذج عديدة من التعابير العربية الدينية، وأسماء عربية شائعة كثيرة، تركها مكتشفو القارة الأوائل على صخورها.[٤٢]

وأفادت مصادر أمريكية حديثة، (أن هؤلاء العرب هم أول من أتصل بـ (أمريكا) في العهود السحيقة في القدم، وحققوا المعجزة في اجتياز المحيط، وتستدل هذه المصادر على ذلك من أسماء بعض الأسماك التي تحمل أسماء عربية أصيلة منذ ذلك العهد البعيد).[٤٣] ويمكن أن نتقبل مثل هذه المعلومات بكل بساطة إذا علمنا أن الفينيقيين العرب كانوا من أمهر الخبراء في بناء السفن، والآية القرآنية الكريمة (**وَلَهُ الجَوارِ المُنْشَآتُ في البَحْرِ كَالأَعْلام**).[٤٤] تأتي مصداقاً على صحة هذه المعلومات، ولما وصل إليه العرب القدماء من فن بناء السفن المرفوعات الجاريات في البحر كالجبال في العظم والضخامة، تبحر من قطر إلى قطر محملة بالأرزاق والمكاسب والمتاجر والثقافة.

هذا يؤكد حقيقة إتقانهم فن الملاحة إتقاناً يفوق الوصف، مكنهم من جعل البحرين الأبيض والأسود حوضاً لسفنهم، وقهر البحار المحيطة والوصول إلى أماكن بعيدة جداً.[٤٥] وتشاء العناية الإلهية أن يقوم عالم البحار النرويجي ثور هايردال Heyrdal في أوائل شهر حزيران (يونيو) سنة (١٣٨٩هـ = ١٩٦٩م) بتجربة عملية للتأكد من صحة إمكانية وصول سفن العرب القدماء إلى شواطئ (العالم الجديد)، فقد صمم لهذا الغرض (التجربة) مركباً مماثلاً لتلك المراكب الفينيقية القديمة ومن المواد نفسها التي استخدمت في صنع سفن الآباء، وكانت النتيجة أن تم له بنجاح عبور المحيط

والوصول سالماً إلى شواطئ أمريكا ، وبذلك أثبت بالدليل صلات العرب مع الأرض الجديدة منذ آلاف السنين![٤٦]

والشاهد هنا الآية القرآنية الكريمة التي تشير بصراحة إلى المحيط الأطلسي كما نعرفه اليوم: "حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ". (الكهف: ٨٦) ويرى د. الدواليبي : أن العرب (اليمنيين) في عهد التبابعة هم الذين قد بلغوا مطلع الشمس ومغربها بسفنهم وفتوحاتهم، وهم الذين أقاموا سد الصين المشار إليه بالقرآن الكريم، والذي أصبح بعد ذلك مثلاً في الاقتباس، وهم الذين وصلوا إلى بحر الظلمات في شمالي بريطانيا، وهم الذين كانوا أول من بنى المنارات في تلك المنطقة من البحار العالمية لإرشاد السفن).[٤٧]

يروي ابن هشام في كتابه التيجان ص ٢٢٠ ، ما يشبه الأسطورة قائلاً: "إن مالك بن يعفر بن حمير (ويعرف في المصادر العربية باسم ناشر النعم) جمع حمير وقبائل قحطان، وخرج بالجيوش إلى ما حوى آباؤه التبابعة العظماء، فوطئ موطئاً من الأرض عظيماً، واشتد سلطانه، فخرج إلى المغرب حتى بلغ إلى البحر المحيط، فأمر ابنه شمر أن يركب المحيط، فركب في عشرة آلاف مركب، وسار يريد وادي الرمل، وقال له لا ترجع حتى تعبره، وترجع إلي بما رأيت، فركب شمر، ونزل ناشر النعم على صنم ذي القرنين، فأخرج عساكر الإفرنج والسكس (السكسون)، وعبرت عناصره أرض الصقالبة [٤٨] فغنموا الأموال، وسبوا الذراري، ورجعوا إليه بسبي من كل أمة في جزائر البحر".[٤٩]

ومما يجعل هذا النص أقرب إلى الحقيقة منه إلى الأسطورة، أن دولة سبأ العربية (٦٣٠– ١١٥ق.م) كان لها أسطول بحري عظيم، نافس الأساطيل اليونانية ثم الرومانية في بحار العالم القديم. وقد أطلق المؤرخ المعروف فيليب حتي على السبئيين لقب (فينيقي البحر الجنوبي)، ليس لكونهم أصحاب أساطيل بحرية مهيبة فقط، بل بوصفهم وكلاء عن كل شيء يقع تحت اسم النقل من آسيا إلى أوربا، وهذا جعلهم أغنى شعوب العالم في زمانهم بلا منازع.[٥٠] لذا كان من الطبيعي أن ترث دولة حمير العربية (١١٥ ق.م–٥٢٥م) هذه الزعامة البحرية، ولطالما قام الحميريون

(وأجدادهم) برحلات بحرية تجارية إلى مختلف موانئ العالم المعروف من المحيط الهندي وحدود الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي وحدود أوربا غرباً.

لقد كان لموقع شبه الجزيرة العربية المتوسط بين بلاد آسيا وأفريقيا أهمية استراتيجية، جعلتها حلقة الوصل والاتصال الحضاري والإنساني بكل أبعاده وصوره، وهذا يدل دلالة واضحة على أن العرب ما كانوا متقوقعين في جزيرتهم، لا يؤثرون ولا يتأثرون، بل كانوا على اتصال دائم بأمم العالم القديم كهمزة وصل تجارية وحضارية بين الشرق والغرب.(٥١) لذلك لا عجب بعد هذا كله في أن تكون جزيرتنا العربية رحم العروبة الذي جاء منه إنسان الأرض، وفي الوقت نفسه مستودع الحبوب والغلال الذي عاش منه هذا الإنسان، حيث انساحت سفننا تمخر عباب البحار والمحيطات محملة بكل ألوان سلع التجارة الدولية إلى كل مكان في المعمورة.

عالمية الفكر الجغرافي وعلوم البحار والملاحة عند العرب والمسلمين في العصور الوسطى

مع انبلاج فجر جديد للعرب ببزوغ شمس الإسلام، ربح العالم آفاقاً بلا حدود من بعث روح وحياة جديدة، وقوة إيمانية خلاقة تتزايد حيوية، وديناميكية هائلة تحركها طاقة لا تفنى، وتوثباً لاجتراح المعجزات في ميادين العلم والمعرفة كافة، موشحةً ببطولات خارقة في ساحات الشرف، وانتشار حضاري لا يعرف الحدود. وآية ذلك، أنهم انطلقوا من فورهم في طريق الخير والبناء، والمجد والإصلاح الشامل، حاملين معهم رسالة عالمية شريفة. باذلين أرواحهم رخيصة في حماية أعظم أمانة تاريخية، وسموا في العلم إلى الذروة، وأعطوا الناس منه وما بخلوا، وتركوا لنا كنوزاً علمية ثرة غير مسبوقة، انسجاماً مع موقف الإسلام العظيم من العلم وأهله، وحسبنا جميعاً فخراً أنه لا يوجد كتاب سماوي ولا غير سماوي، رفع قيمة العلم، وميز العلماء، وأشاد بفضلهم، وأعلى منزلتهم في الدنيا ويوم يقوم الحساب، كما جاء به القرآن الكريم في المئات من آياته الكريمة، حتى بلغت تلك الآيات مقدار سدس القرآن – أو زد على ذلك.(٥٢)

يقول غوستاف لوبون : Lebon "لقد كان أثر حضارة المسلمين في الغرب قوياً في النواحي العلمية والأدبية والخلقية، في القرن السابع الميلادي (الأول الهجري) هب المسلمون من شبه جزيرة العرب ليكوّنوا دولة عظمى مترامية الأطراف، فسارت الحضارة في ركابهم أينما حلوا، وصاحبتهم المدنية كيفما اتجهوا".(٥٣) وقد أدى هذا التوسع الهائل للمسلمين من أطراف الصين شرقاً إلى مشارف المحيط الأطلسي غرباً، حيث طرقت أساطيلهم أبواب إيطاليا وفرنسا إلى ازدياد الطلب على العلوم الجغرافية والملاحية، ومن ثم تحقيق المزيد من الكشوف في هذا المضمار والسبق فيه، مثبتين أن عنايتهم بالبحر بعد الإسلام لا تقل أبداً عنها قبله، بل تأصلت وازدادت علاقتهم بالبحر وعالمه. حيث لم يلبثوا أن نشطوا توسعاً في أعمال الملاحة، فصار لهم الأساطيل الحربية إلى جانب سفنهم التجارية الكثيرة التي كانت تمخر عباب المحيط الهندي والبحر المتوسط بعد أن أزاحوا من طريقهم إمبراطوريتي الروم والفرس، وليضعوا – غير مسبوقين– أساس أول دستور بحري والتقاليد الملاحية بمفهومها العلمي الواسع.(٥٤)

وقد ألهمت فريضة الحج وزيارة بيت الله الحرام – إلى جانب اتساع نطاق التجارة نتيجة الفتوحات الكبرى – الجغرافيين العرب والمسلمين لوضع مؤلفات جغرافية جامعة في أحسن المسالك، ووصف المدن، والمواقع، والأماكن لتأمين وصول الحجيج من كل فج عميق إلى مكة المكرمة بيسر وأمان، ولم تكن الطرق البحرية مستثناة من هذه القاعدة، فقد نشطت السفن بدورها لنقل الحجيج إلى ثغر جدة الإسلامي، وقد كانت فريضة الحج نفسها إحدى أهم بواعث الازدهار التجاري، إذ كانت المراكب في موسمه تمخر مياه الخليج ونهري دجلة والفرات، وقد اشتهرت في تلك الحقبة التاريخية ثلاث مدن ملاحية ضخمة على الخليج العربي هي: البصرة، والأبلة، وسيراف، وكانت الأخيرة تعد أحد الثغور الإسلامية التي تربط الخليج بالصين تجارياً.

لحسن الطالع أن العرب المسلمين قد وجدوا سبل التوسع ممهدة بفضل أجدادهم الذين كانوا من طلائع التجار والملاحين، الذين تجشموا الصعاب في البحر والبر، وأسسوا المحطات (المستعمرات) التجارية على سواحل العالم القديم كافة قبل ظهور

الإسلام. لهذا كله، يقول د. حسين فوزي " يصعب إنكار ما للعرب من أثر في تقدم المعارف الجغرافية، فقبل أن توجه الدولة الإسلامية عنايتها إلى العلوم اليونانية والفارسية والهندية، كانت معرفة البلدان لازمة من لوازم الفتح والتوسع. وقد وجد العرب المسلمون سبيل التوسع ممهداً بفضل طلائع التجار والملاحين الذين تجشموا الصعاب في البحر وبالبر، وأنشئوا مراكز للتجارة على شواطئ البحر الشرقي الكبير قبل ظهور الإسلام، وتجمعت المعارف الجغرافية حول مغامرات أولئك الرجال. فلما بدأ تكوين الدولة الإسلامية الكبرى، اقتضى ذلك تنظيم المسالك والبريد، وتعرف طرق الملاحة، وكان هذا وذاك أساساً من الأسس الهامة للجغرافية العربية الإسلامية".(٥٥)

يقول حوراني أيضا في هذا: "والحق أن القرآن يعكس شعوراً بالبحر ينبض بالحياة، ويمثل لنعم الله بإشارات عدة إلى منافع البحر وأخطاره، والحق أيضاً أن قريشاً في مكة كانت على صلة وثيقة بالحبشة عبر البحر الأحمر، بدليل هجرة نفر من أوائل المسلمين إلى تلك البلاد حوالي (٦١٥م)، أي قبل الهجرة بسبع سنوات".(٥٦) وتنهض التجارة البحرية لعرب الجنوب من حضارمة وحميريين وعمانيين مع الهند كدليل حي على ذلك ، والقرن الإفريقي وساحل أفريقيا الشرقي- حيث أبحر قبلهم بأكثر من ألف سنة أجدادهم الفينيقيون، وداروا حول أفريقيا – وجزر الملايو وإندونيسيا، وكانت لهم مع تلك البلاد صلات قوية وجاليات عربية مقيمة، ومن الجدير بالذكر أن الملاحة عبر المحيط الهندي كانت تتعذر على من يجهل سر الرياح الموسمية في هذا المحيط، إلا أن عرب الجنوب قد عرفوا هذا السر، وتوارثه ملاحوهم جيلاً بعد جيل، وعنهم عرف اليونان القدامى السر، ثم ورثه الرومان منهم.(٥٧) ومن المعروف أنه ظلت لنا اليد العليا في المحيط الهندي حتى سنة (٩٠٤هـ = ١٤٩٨م)، وهي السنة التي اكتشف فيها فاسكو دي غاما Vasco da Gama (٨٧٤-٩٣١هـ=١٤٦٩-١٥٢٤م) رأس الرجاء الصالح، Cape of Good Hope (The) ومن ثم طريقه وطرق أوربا، إلى الهند حيث السيطرة على طرق التجارة الاستراتيجية، ليخسر العرب ومعهم المسلمون بهذا الكشف أهم مورد اقتصادي. بالجملة، أدخل هذا الاكتشاف الأوربي، الوطن العربي

بخاصة، والإسلامي بعامة، في منعطف تاريخي خطير على الصعد كافة، حيث سبب بانهيار دولة المماليك من جهة، كما كان مؤشراً سلبياً لبداية الانحدار والتراجع الخطير لمكانة أمتنا وحضارتها العالمية في معظم المجالات!؟

مهما يكن من أمر، فقد أدى اشتغال العرب المسلمين بالتجارة في المحيط الهندي وشرق أفريقيا والبحر المتوسط وفي أوربا إسبانيا (الأندلس) إلى ازدياد خبرتهم وعلومهم الجغرافية والملاحية في العالم القديم، حيث لم يمض على وفاة الرسولﷺ مائة سنة، حتى صار العرب المسلمون القوة البحرية العظمى في العالم، فقد استطاعوا بناء أسطول ضخم في فترة زمنية قياسية، مكنهم من السيادة على البحر المتوسط من شرقه إلى غربه، ليضعوا بذلك نهاية الأسطول البيزنطي وسيطرته في هذا البحر، خصوصاً بعد انتصارهم الكبير والحاسم في معركة ذات الصَّواري البحرية[٥٨]. ومن ثم ليبحروا قدماً في اتجاه بلدان الشرق الأقصى - المعروفة اليوم - وقد اكتشفوا في طريقهم جزيرة مدغشقر (في المحيط الهندي - جنوب شرق أفريقيا)، كما توغلوا في الأراضي السودانية التي تقع إلى الجنوب من نطاق الصحراء الكبرى، حيث أقاموا صلات تجارية وثقافية سنة (٤٦٩هـ = ١٠٧٦م)، وأحرزوا قصب السبق في اختراق مناطق الأستبس الأوربية، حيث وصلوا إلى الأراضي الروسية والبولندية.[٥٩]

تزودنا كتب التاريخ بمعلومات تفيد بتمتع الجالية العربية الإسلامية في الصين - التي أقامت هناك لأغراض تجارية وعلمية - بامتيازات خاصة عند ملك الصين أشبه ما تكون بالحكم الذاتي، إذ منحهم حق إحالة خلافاتهم إلى قاض منهم، يحكم بينهم بشرع الإسلام لا بشرع الصين، مع حق تمتعهم بممارسة شعائرهم الدينية والمحافظة على ثقافتهم وأعرافهم العربية الإسلامية.[٦٠]

هذا التوسع الإسلامي في الشرق والغرب أدى إلى ازدياد الاهتمام بعلوم البحر وفنونه، وإلى بناء السفن، فقد توافر لمعاوية بن أبي سفيان (الخليفة الأموي الأول) (٤١-٦٠هـ = ٦٤١-٦٨٠م) وحده أكثر من ألف وسبعمائة سفينة حربية، ولقد أنشأ لهذا الغرض داراً لصناعة السفن في عكا (فلسطين)، وقد استطاع بعدد من هذه السفن أن يغزو جزيرة رودس (من جزر الأرخبيل اليوناني) سنة (٥٤هـ = ٦٧٣م)، ثم

بعدها جزيرة كريت (أقرطيش) اليونانية أيضاً، علماً بأنه قبل توليه الخلافة كان قد خرج في أول غزوة بحرية في الإسلام لجزيرة قبرص سنة (٢٨-٢٩هـ=٦٤٨-٦٤٩م)، فأحرزت الحملة نجاحاً باهراً، ثم تبعتها حملة أخرى تأديبية لتلك الجزيرة سنة (٣٣هـ= ٦٥٣م) لتخضع إلى السيادة الإسلامية، بإرغام حاكمها على توقيع معاهدة تقضي بأن يلتزم القبارصة بسياسة الحياد، ومنع الروم من اتخاذ قبرص قاعدة للعدوان، تنطلق منها سفنهم الحربية لشن هجمات ضد مصر والشام.

هكذا بدأ الأسطول العربي الإسلامي مهمته في حماية مصالح الأمة والدفاع عن كيانها وممتلكاتها وفرض هيبتها، وعلى هذا النهج سار خلفاء معاوية من بني أمية، فأقام عبد الملك بن مروان (الخليفة الأموي الخامس) (٦٥-٨٦هـ= ٦٨٥-٧٠٥م) داراً لصناعة السفن في تونس، وفي عهده وصلت تجارة العرب إلى سرنديب (سيلان) سريلانكا الحالية، وفي عهد ابنه الوليد (٨٦-٩٦هـ= ٧٠٥-٧١٥م) وصلت الدولة الإسلامية ذروة اتساعها في الشرق والغرب، ففي الغرب – لصلته بموضوعنا – أحرز الأسطول الإسلامي بقيادة طارق بن زياد (ت ١٠٢هـ =٧٢٠م) سنة (٩٢هـ= ٧١١م) انتصاراً تاريخياً فتح فيه أبواب قارة أوربا على مصراعيها أمام العرب المسلمين، وذلك بدخوله فاتحاً شبه جزيرة ايبيريا (إسبانيا والبرتغال)، ولتشهد بعدها إسبانيا وأوربا أزهى عصورها الذهبية.[٦١]

في هذا المناخ البحري سرعان ما غدت الملاحة الإسلامية فناً علمياً متطوراً ومستقلاً بذاته، يستهوي البحارة العرب والمسلمين، فألفت فيها الكتب الموسومة، ودون فيها ربابنة السفن الحربية والتجارية، عصارة تجاربهم بأسلوب علمي راق يفيض حيوية ويمتلئ بالحقائق والأدلة العلمية الموثوقة، حتى أصبحت العلوم البحرية، كما يقول المسعودي (علي بن الحسين) (ت ٣٤٥هـ=٩٥٦م): "تراثاً يتداوله الملاحون ويتوارثونه ويتبادلون الانتفاع به فلكل من يركب هذه البحار من الناس أرياح يعرفونها في أوقات تكون فيها مهابها، قد علم ذلك بالعادات وطول التجارب، يتوارثون علم ذلك قولاً وعملاً، ودلائل وعلامات، يعملون بها إبان هيجانه وأحوال رسوبه وثورانه".[٦٢]

وهكذا نرى بوضوح أن المسلمين استطاعوا في فترة زمنية قياسية أن يجعلوا من أنفسهم فرساناً في البر والبحر في آن واحد، ومن المفارقات اللافتة للانتباه في هذا السياق، ما يثيره بعض الناس بتساؤلات بأسلوب الغمز واللمز عن سر تلك الرسالة التي بعث بها عمر بن الخطاب ﷺ (١٣-٢٣هـ=٦٣٤-٦٤٤م) إلى معاوية ينهاه فيها عن ركوب البحر، وهذه الرسالة في رأيهم لا تنسجم مع هذا الزخم الهائل من النشاط البحري للعرب قبل الإسلام وبعده. وحقيقة الأمر، أن هذه الرسالة لا تمثل اتجاه الدولة الإسلامية أو موقفاً إسلامياً ثابتاً من البحر وركوبه، بل هي وجهة نظر سياسية، اقتضتها ظروف الدولة الإسلامية آنذاك، اختلطت بها مشاعر الأبوة مع روح المسؤولية عند عمر لخشيته أن ينشغل أبناء الإسلام في حرب على جبهتين عريضتين برية وبحرية، خصوصاً أن الجيوش الإسلامية في حينها كانت مشغولة بتثبيت أقدامها في الأراضي الواسعة التي فتحتها، وليس من سبيل في وقتها سوى الاكتفاء بحماية الثغور البحرية الإسلامية، وقد عبر عمر بذلك عن موقف استراتيجي، يتفاعل مع المتغيرات، وليس من الثوابت في سياسته.

وينطلق أيضاً دعاة الأراجيف من فرضية ثانية، تقول بأن سكان المناطق الداخلية في شبه الجزيرة العربية، لم يكونوا على صلات وثيقة وقوية مع البحر وأهله، وهذه الفرية تشهد ضدهم، وتدعم الرأي الآخر، ذلك أنه حتى في حال صحة افتراضهم، فإنهم نسوا أو تناسوا بأن ذلك لا يمكن أن ينطبق بأي حال من الأحوال على العرب من سكان المناطق الساحلية من جزيرتهم، مثل: اليمن وعمان والبحرين وسائر بلاد الخليج العربي، فهم أبناء البحر، نشئوا على شواطئه، وركبوا غواربه، وصارعوه وصارعهم في جميع مراحل حياتهم، ولعل في قيام أبي العلاء الحضرمي (ت ٢٨هـ= ٦٤٩م)- عامل عمر في البحرين- بركوب البحر ومهاجمته المدن الفارسية على الساحل الشرقي للخليج العربي، دون أن يستأذن عمر نفسه، دليلاً على صحة ما ذهبنا إليه، بأن موقف عمر من البحر أملته اعتبارات وظروف مرحلية، كانت تجتازها الدولة الإسلامية في زمنه، وبالتالي ليس بالضرورة أن يكون موقف الأمة أو ملزماً لها، في المدى القريب أو البعيد.(٦٣)

أياً كانت الفرضيات، فإنه بات علو كعب العرب والمسلمين في ميدان النشاط البحري أمراً لا يحتاج إلى دليل، فمن بني أمية إلى بني العباس ازدهرت الملاحة، ففي عهد بني العباس (١٣٢-٦٥٦هـ= ٧٥٠-١٢٥٨م) تطورت حركة الملاحة، ونشطت التجارة البحرية، لتصل إلى الذروة في القرن (٣هـ=٩م) إلى الحد الذي فكر فيه هارون الرشيد (الخليفة العباسي الخامس) (١٧٠-١٩٣هـ= ٧٨٦-٨٠٩م) ربط البحرين الأبيض والأحمر بشق قناة السويس. لكنه عدل عن فكرته خشية أن تكون سلاحاً ذا حدين، يستفيد منه العدو الرومي (البيزنطي) في شن هجمات مباغتة خصوصاً على الديار المقدسة بالذات.

وفكرة شق قناة السويس هذه طالما شغلت بال الكثيرين من القادة المسلمين، ومنهم عمرو بن العاص (٤٣هـ = ٦٦٤م) وذلك بهدف جعل الخطوط التجارية ممتدة الشريان دون انقطاع من إسبانيا إلى الصين، لتؤمن للدولة الإسلامية الكبرى الاتصال البحري دون انقطاع،[٦٤] وقد عنى الفاطميون بمصر (٣٥٩-٥٦٧هـ=٩٦٩-١١٧١م) عناية متناهية بصناعة السفن وتطويرها، وأنشئوا ديواناً خاصاً للأسطول حتى غدوا في أواخر القرن (٦هـ=١٢م) قوة بحرية مرهوبة الجانب، وهذا ينسحب بدوره على عهد صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢-٥٨٩هـ= ١١٣٨-١١٩٣م) حيث كانت سفن المسلمين الحربية يضيق بها حوض البحر الأبيض المتوسط.

وقد أدى هذا إلى تحول الديار الإسلامية البحرية في جميع العهود إلى ورشة كبرى لصناعة السفن، فقد أقيمت الدور الكثيرة لتنشيط هذه الصناعة في مشرق العالم الإسلامي ومغربه، وعلى وجه الخصوص، في عهدي (المرابطون) (٤٤٨-٥٤٢هـ = ١٠٥٦-١١٤٧م) و (الموحدون) (٤٤٨-٦٦٨هـ= ١١٤٧-١٢٦٩م) حيث قامت دور لصناعة السفن في طرابلس، والقيروان، وسوسة (في المغرب العربي) ودانية، وشلطيش، ولقنت، ومالقة، والدويرة، والصويرة، وبرباط (في الأندلس). أما في المشرق العربي فكانت هناك دور لهذه الصناعة في البحار الجنوبية، مثل عيذاب، والبصرة، وهرمز، وسيراف، وصحار في (عمان)، وجزيرة قيس (كيس) (في الخليج العربي ١٢٠كم٢)، والجار (وهي ميناء المدينة المنورة القديمة وهي قريبة من موقع

مدينة ينبع الآن، والمرجح أنها (البريكة) حاليا)، وغلافقة (وهي ميناء اليمـــن القديـــم، ومنها كانت تسافر المراكب إلى الحبشة)، إلى جانب عدد وافر من دور صناعة الســـفن في مصر والشام وسواهما.(٦٥)

هوامش الفصل الأول

١. الجوار المنشئات كالأعلام : السفن المرفوعات ، الجاريات في البحر كالجبال في ضخامة الحجم وروعة البناء (ولا يعقل أن الله يخاطب قوماً بما يجهلون). للتفسير راجع محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت، ١٩٨١م. انظر هنا المجلد ١٧، تفسير سورة الرحمن: ٢٤، ص١٥ كذلك انظر وقارن: Peter Miller, "Riddle of the Pyramid Boats" in National Geographic (Magazine) vol. 173, 4, April 1988, pp. 535-550.

٢. تكررت كلمة ماء في القرآن الكريم ثلاثاً وستين مرة، كما تكررت في الحديث النبوي الشريف كثيراً . وفي القرآن الكريم كذلك ثمانٍ وعشرون آية في سور مختلفة تتصل بالبحر والفلك والملاحة، منها ما يتعلق بالصيد واستخراج اللؤلؤ والمرجان أو نقل التجارة والركاب) انظر أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، سلسلة عالم المعرفة، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٩م، ص٢٣-٢٨، انظر هنا ص ٣١ وما بعدها.

٣. الدواليبي، المرجع السابق، ص٣٤ وما بعدها ، كذلك عبد العال سالم مكرم، الدلالة التاريخية واللغوية لكلمة (عرب) . في الكتاب التذكاري بمناسبة مرور عشرين عاماً على تأسيس قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الكويت. بحوث في اللغة والأدب، إعداد وإشراف سهام الفريح، الناشر مكتبة المعلا، الكويت ، ١٩٨٧م، ص٣٥-٦١، انظر هنا ص٥٠ و ٥٧ وما بعدها. للمزيد انظر معاجم اللغة مادة (عرب) اللسان، القاموس المحيط، تاج العروس، المعجم الوسيط، وعن الصيغ التي تشكلت منها جذور (عرب) في القرآن الكريم، راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة (ع - ر -ب) .

٤. الدواليبي، المرجع السابق، ص٣٤-٣٥ ، أيضا مكرم، المرجع السابق، ص٥٨.

٥. الدواليبي، المرجع السابق، ص ٣٦-٣٧. انظر أيضا : Marshal, G. S Hodgson, The Venture of Islam, Conscience and History in a World Civilization, vol., 1 (the Classical Age of Islam), The University of Chicago Press, Chicago and London, 1974, pp. 150-154.

٦. لدواليبي، المرجع السابق، ص ٣٧-٣٨.

٧. عادل أحمد صادق (ترجمة) "بحيرات الربع الخالي، أوهم هي أم حقيقة" في القافلة (مجلة) العدد الخامس، المجلد الثامن والثلاثون، ١٩٨٨م ، ص٣٦-٤٢. انظر هنا ص٣٧، ٣٨ و ٣٩.

٨. الدواليبي، المرجع السابق، ص٣٩-٤٠، كذلك سالم، المرجع السابق، ص٨٨-٨٩. أيضا حسين فوزي "المعارف الملاحية العربية في القرون الوسطى وأثرها في عصر النهضة" في كتاب أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية، رئيس التحرير محمد خلف الله احمد، من منشورات

مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم الثقافية (اليونسكو) القاهرة، ١٩٨٧م، ص٣٠٧، يذكر هيرودوت (ت. ٤٢٥ ق.م) Herodotos بلاد العرب على أنها (Arabia) وهي عنده إلى جانب شبه الجزيرة العربية، كل القسم الداخلي من سوريا (بادية الشام) كذلك يطلقها على شبه جزيرة سيناء وصحراء مصر الشرقية التي تقع بين النيل والسواحل الغربية للبحر الأحمر والتي تعرف أحيانا باسم صحراء العرب، وقد وصف بلنيوس الأكبر Plinus (ت ٧٩م) من علماء الطبيعة الرومان في كتابه الشهير (التاريخ الطبيعي) Historia Naturalis أحوال شبه الجزيرة العربية على نحو مفصل وشامل . كذلك ذكر سترابون Strabo (ت ١٩م) (جغرافي يوناني كبير) – صاحب أليوس جالوس A. Gallus في سنة ٢٤ ق.م في حملته الفاشلة على الجزيرة العربية – نقلا عن أراتوستنيس Eratothenes (فلكي يوناني- ليبي المولد) والمعروف بـ (أراتوسطين الجغرافي عند العرب) بأن سكان شبه الجزيرة العربية بخاصة الجنوبية اشتهروا بالزراعة المكثفة التي تتم مرتين في السنة وعند الشعوب الأربعة الرئيسية وهم المعنيون Miaioi والسبأيون Sabaioi والقتبانيون Katabanies والحضارمة Chatramotitae محددا المكان الذي يشغله كل شعب والعواصم والحياة السياسية التي يمارسونها . (Strabo, xvi, 4:2)

٩. سالم ، المرجع السابق، ص٨٩. أيضا الدواليبي، المرجع السابق، ص٤٠. انظر كذلك الهمداني (الحسن بن أحمد بن يعقوب) صفة جزيرة العرب، ط٣، تحقيق محمد بن علي الأكوع مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ودار الآداب بيروت، ١٩٨٣م، ص٣١٤ وما بعدها. أيضا محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام ط٢، من إصدارات لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٩٨٠م، ص١٢٣ وما بعدها. Philip Hitti, History of the Arabs, Oxford 1960, pp.19-20.

١٠. الدواليبي، المرجع السابق، ص٤٢ – ٤٣ . أيضا عادل صادق، المرجع السابق، ص٤٢ .

١١. إبراهيم علاوي "نظريات جديدة تربط حضارات شبه الجزيرة العربية والبحر المتوسط: اكتشاف وبار قد يحل بعض ألغاز التاريخ العربي القديم" في الحياة (جريدة) العدد ١٠٦٢٩، (١٥ آذار (مارس) ١٩٩٢م) ص١٩ وقارن جورج فاضل حوراني، العرب والملاحة في = = المحيط الهندي، في العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى، ترجمة يعقوب بكر، مكتبة الأنجلو المصرية، د.ت، ص٣٠٩.

١٢. سالم، المرجع السابق، ص٤٠٥. وعن قريش انظر الدراسة الرائعة التي أعدها حسين مؤنس، تاريخ قريش : دراسة في تاريخ أصغر قبيلة عربية جعلها الإسلام أعظم قبيلة في تاريخ البشر، الدار السعودية، جدة، ١٩٨٨م، ص٦٩-٧٥.

١٣. السيد عبد العزيز سالم، دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د.ت، ص٤٣-٤٤ وقارن ٤٧-٥٢. كذلك انظر الدواليبي، المرجع السابق، ص٣٧-

٣٨، أحمد حسين شرف الدين: تأملات في تراثنا الإسلامي، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٩٨٣م، ص١٢-١٣. وعن النتائج المبهرة لاكتشافات وأبحاث قرية الفاو انظر عبد الرحمن الطيب الأنصاري، قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية، جامعة الرياض (الملك سعود) الرياض، ١٩٨٢م، ص١٤-٣٢، وقارن عبد القادر الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية، خصائصها وآثارها في سورية، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٩م، ص٩-٢٦، وأيضا هيثم زغيب، (قلعة أثرية تعود إلى الألف الثامن قبل الميلاد بقايا مدينة أريحا تكشف أقدم استيطان) في الحياة (جريدة) العدد ١٠٧٠٨، ٣ حزيران (يونيو) ١٩٩٢م، ص١٧.

١٤. الدواليبي، المرجع السابق، ص٥-٦ ، وقارن مهران، المرجع السابق، ص١٩٥-٢١٢ ، ومؤنس، المرجع السابق، ص١٧-١٩ .

١٥. الدواليبي، المرجع السابق، ص٦ .

١٦. الدواليبي، المرجع السابق، ص١٣. أيضا مهران المرجع السابق، ص٢١٢. مؤنس، المرجع السابق، ص ٢٣-٢٥ .

١٧. للمزيد والتوسع انظر سالم، المرجع السابق، ص١٠١ وما بعدها. مهران، المرجع السابق، ص٢١٣ وما بعدها .

١٨. عبد الجبار محمود السامرائي، " الملاحة عند العرب قبل الإسلام "، في الفيصل (مجلة) العدد ٣٧، أيار وحزيران (مايو ويونيو) ١٩٨٠م، ص١١١-١١٢ . أيضا، الحياة (جريدة) العدد ١٠٦٧١، (٢٧ نيسان (أبريل) ١٩٩٢م) الصفحة الأخيرة.

١٩. مصطفى محمود، " اللغة التي تكلم بها آدم" أخبار اليوم (جريدة) العدد ١٩٨٩، الصفحة الأخيرة. كذلك انظر نبيل الجنابي، " اللغة الإنجليزية اصلها اللغة العربية " في العرب اليوم (جريدة) العدد ٤٠٦ ، ١٨ حزيران (يونيو) ١٩٩٨م، ص٢٠ . انظر أيضا، عبد الرحمن البوريني "لغات العالم لهجات من العربية – بحث جديد في أن اللغة العربية أصل اللغات جميعها ". في النور (مجلة) العدد ٧٣، ص٤٤-٤٧. سليمان الحكيم، " اعتماداً على تحليل = = الشواهد اللغوية والأثرية، الأصول المشتركة بين اللغتين العربية والفرعونية : هؤلاء المصريون وأسمائهم الغريبة " في الحياة (جريدة) العدد ١٠٧٠٥، ٣١ أيار (مايو) ١٩٩٢م، ص١٧. وللمزيد انظر قاموس للكلمات الألمانية ذات الأصل العربي لمؤلفه Nabil Osman, Kleines Lexikon Deutscher Worter Arabischer Herkunfr, C.H. Beck, Munich, Germany,1989. انظر كذلك سالم، المرجع السابق، ص٤٣ وما بعدها. مهران، المرجع السابق، ص١٣٧ وما بعدها. وقارن: Cf. Albert C. Baugh and Thomas Cable, A History of the English Language, 3rd

ed. Routledge and Kegan pual, London, 1980, pp 1-13. Also Hodgson, op cit. vol. 1, pp.3 40-43, 153.

٢٠. مكرم، المرجع السابق، ص٤٥. للمزيد راجع جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، ج١، ص٢٣ .

٢١. مكرم، المرجع السابق، ص٤٩ وانظر كذلك عبد الصبور شاهين، " نظرية جديدة في دلالة الكلمة القرآنية "، في كتاب بحوث في اللغة والآداب، مرجع تقدم ذكره، ص٦٣-٧٤. أيضا سالم، المرجع السابق، ص٤٤ وما بعدها. شرف الدين، المرجع السابق، ص١١-١٤، ٢١ وما بعدها.

٢٢. نديم نحاس وإمام محمد " بعد إعلان أهم اكتشاف علمي في القرن العشرين : القرآن الكريم أذن بالبحث عن حقائق خلق الكون " في الشرق الأوسط (جريدة) العدد ٤٨٩٧، ٢٥ نيسان (إبريل) ١٩٩٢م، = ص١ و٤، وانظر نفس العدد، حاتم كمال، " نظرية جديدة تقلب علم الفلك، كواكب المجموعة الشمسية عدة مئات لا تسعة فقط " ص١٣، وانظر أيضا في الحياة (جريدة) " سر الانفجار الكبير " العدد ١٠٦٦٩، ٢٥ نيسان (أبريل) ١٩٩٢م، الصفحة الأخيرة .

٢٣. محمد فؤاد إبراهيم وآخرون (الإشراف العلمي) موسوعة المعرفة العالمية، م١، الناشر شركة ترادكسيم، سويسرا جنيف، ترجمة دار الأهرام القاهرة، د.ت، ص١. وانظر أيضا مؤنس، المرجع السابق، ص١٩-٢٥.

٢٤. اكتشفه البحار الدانمركي فيتوس بيرنغ Bering (Behring) سنة، ١٧٢٨م.

٢٥. اشترتها الولايات المتحدة الأمريكية من روسيا القيصرية سنة (١٢٨٤هـ=١٨٦٧م) بمبلغ سبعة ملايين ونصف المليون دولار أمريكي، لكنها لم تنضم رسمياً إلى الاتحاد إلا في سنة (١٣٧٩هـ=١٩٥٩م) لتصبح بذلك الولاية الاتحادية الأمريكية رقم ٤٩، للمزيد عن ألاسكا، انظر United States Information Agency, An Outline of American Geography,Published by U.S.I.A. itself, Washington N.D., pp.113-116, See here p.113 ، انظر هنا ص ١١٣ ، كذلك انظر يوسف = = فايد ومحمد محسوب، جغرافية الأمريكيتين، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٢م، ص١٤٣.

٢٦. Lewis Lord with Sarah Burke " Those First Americans", in Readers Digest, Jan. 1992, p.100. كذلك موسوعة المعرفة العالمية، المرجع السابق، م١، ص١٦-٢٧، يونس، المرجع السابق، ص٢٠-٢٢، فايد ومحسوب، المرجع السابق، ص١٤٣ وما بعدها.

٢٧. موسوعة المعرفة العالمية، المرجع السابق، م١ ، ص٢٦ .

٢٨. نثبت هنا النص الإنجليزي لقيمته التوثيقية: Yet the New World was Anything but were Asians, who came over 12,000 years ago. Probably Crossing a Glacial Land Bridge Between Siberia and Alaska. للمزيد انظر L. Lord with S. Burke, op. Cit., p100

٢٩. موسوعة المعرفة العالمية ، المرجع السابق ، م١ ، ص٢٦ ، وقارن :Cf. Lord with Burke, op. Cit., pp. 99-102.

٣٠. يعتقد بعض العلماء أن قبائل الأزتيك Aztec, Aztiques هجرة عربية انطلقت من جنوب الجزيرة العربية لتستقر منذ أكثر من ألف سنة في الأرض الجديدة، ويرجح أنها من قبائل الأزد (الأسد) العربية، وقد استطاع الأزتيك الاندماج في قبيلة المكسيكاس، حيث أسسوا سلالة قوية استقرت في مركز مدينة مكسيكيو (عاصمة جمهورية المكسيك حالياً) (٧٧٧-٩٣١هـ=١٣٧٥-١٥٢٤م) قضى عليها الأسبان، بعد أن كان الأزتيك قد تمكنوا من إقامة دولة حضارية قوية، شملت معظم بلاد المكسيك الحالية. للمزيد، انظر عبد المجيد نعنعي، تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٣م، ص٢٦-٢٩، أيضا : Encyclopedia of Britanica, vol.2, pp. 548-552; Macropedia, vol.1, p.700. عن الاعتقاد بأن قبائل الأزتيك فخذ من قبائل الأزد العربية اليمنية. انظر إحسان جعفر، " ابن الوردي، وصف أمريكا قبل اكتشافها بمائة عام " في الفيصل (مجلة) العدد ١٧٩ ص٩٦-٩٩. انظر هنا ص٩٩، وقارن، الدواليبي، المرجع السابق، ص٨، كذلك انظر الشرق الأوسط (جريدة) " انعكاسات الحضارة العربية على مرآة الزمن " العدد ٤٩٠١، ٢٩ نيسان (إبريل) ١٩٩٢م، ص٣١. وانظر كذلك جان الكسان، " ٥٠٠ عام على اكتشاف أمريكا (١٤٩٢-١٩٩٢م) هل اكتشف العرب والمسلمون القارة الأمريكية قبل كولومبوس؟ " في الخفجي (مجلة) عدد تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٢م، ص٤٣ . انظر هنا حديث الروائي والمؤرخ المكسيكي كارلوس فونتيس (Fuentes) ورؤياه الخاصة للهوية الأصلية التي تشكلت منها شعوب القارة الأمريكية اللاتينية والتي قدمتها محطة التلفزيون البريطانية (B.B.C) في خمس حلقات في = = إطار برنامج (مرآة الزمان والتي تعد بانوراما عريضة مليئة بالكثير من معالم الحضارة والتراث العربي الإسلامي في الأندلس والإسهامات التي قدمها المفكرون والعلماء والفنانون العرب وأضاءت على هذه البقعة من طرف القارة الأوربية طريق الكشوفات، وسهلت القيام بها. وعن تاريخ الأزد وما جاء في الحديث النبوي الشريف من ثناء عليهم ، الخ. انظر ابن سعيد الأندلسي (٦١٠-٦٨٥هـ=١٢١٣-١٢٨٦م) نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب،جزآن، تحقيق نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمّان، ١٩٨٢م. انظر هنا ج١، ص١٨٧، كذلك انظر الهمداني، المرجع السابق، (الفهارس) مادة الأزد (الأسد) ص٤٨٩.

٣١. الأنكا أنكا (س) Inca (s) من المرجح أن قبائل الأنكاس ترجع إلى أصول عربية، وينهض دليلاً على ذلك تسميتهم أيضا بـ (الكوشيين) Quechua (s)، والتي قد تكون محرفة من كلمة (الكوشيين) وتكتب المصادر الأجنبية كلمة الأنكا (س) (Ancacsh Ancash) راجع Macropedia, vol.1, p.346 والكوشيون عموماً ورد اسمهم في التوراة باعتبارهم من كوش بن

حام. وقد استوطنوا أفريقيا منذ فجر التاريخ، ومارسوا التجارة مع المعينيين والسبئيين بحكم الجوار. وأما قبائل الأنكاس المهاجرة، فقد تمكنت من تأسيس إمبراطورية مزدهرة وحضارة غنية منذ مطلع القرن (٦هـ=١٣م) وحتى الاحتلال الأسباني (للأرض الجديدة). وقد امتد نفوذها حتى شمل بلاد البيرو وبوليفيا والإكوادور والتشيلي. انظر موسوعة المعرفة العالمية، المرجع السابق، م٣، ص٥٣٩. نعنعي، المرجع السابق، ص٣٠، أيضا الدواليبي، المرجع السابق، ص١٢. سالم، المرجع السابق، ص١٠٤ ، ١٢٠.

٣٢. المايا مايا (س)Maya(s) من شعوب أمريكا الوسطى، دلت الحفريات الأثرية على وجود تشابه كبير بين الماياس والحضارة المصرية القديمة، ويتجلى ذلك في أنقاض القصور والمعابد والأهرامات الباقية، ويرجح إلى درجة كبيرة أن الماياس قبائل عربية (معينيه)، وقد عرفت الحضارة المعينية عند المؤرخين اليونان والرومان قديماً بالحضارة المانيوية (Minaioi) كما يعتقد أنها فخذ من قبيلة الأزتيك (انظر الهامش رقم٤٠). أسس المايا (س) مدينة راقية في بلاد الهندوراس وغواتيمالا، وخاصة في يوكاتان (شبه جزيرة في جنوب شرقي المكسيك). انظر نعنعي، المرجع السابق، ص٢٨ وما بعدها. أيضا انظر Encyclopedia of Britanica, vol.11, pp.71,23; Also in Saudi Gazette "Mayan Culture", March 24, 1985, p.14

٣٣. انظر الهوامش ٣٥ ،٣٦، ٣٧ .

٣٤. نسبة إلى منطقة (بون) في العربية الجنوبية (اليمن) وهي من الهجرات العربية القديمة التي امتدت إلى الجزائر وتونس، وأسست مدينة باسم (بون) في الجزائر المعروفة اليوم بمدينة عنابة. انظر الدواليبي، المرجع السابق، ص٨ .

٣٥. الدواليبي، المرجع السابق، ص٢٥،٣٠،٦٠ وانظر هنا ص٣، نقلاً عن اللسان العربي (مجلة)، العدد الثالث، آب (أغسطس) ١٩٦٥م، ص١٣٠.

٣٦. الدواليبي، المرجع السابق، ص٢٥-٢٦، نقلاً عن مجلة المقتطف المصرية، العدد الثاني من المجلد السادس بعد المائة... وهي محاضرة ألقاها في بغداد في كانون الأول (ديسمبر)سنة ١٩٤٤م بعنوان " عرف العرب أمريكا قبل أن يعرفها أبناء الغرب".

٣٧. الفينيقيون (Phoenician) عرب ساميون صرحاء... ويعتقد أكثر المؤرخين بأن الفينيقيين بعد هجرتهم الأولى من جنوبي الجزيرة العربية، استقروا فترة من الزمن في شواطئ الخليج (البحرين)، ثم انتقلوا إلى الساحل السوري، وأنهم سموا مدينة (صور) على شاطئ المتوسط (لبنان)تيمناً باسم مدينتهم الأولى على شاطيء الخليج .. استوطن الفينيقيون لبنان (القرن ٢٨ق. م.) ويرجح د. محمد أبو المحاسن عصفور، أن اليونان استعملوا الكلمة المصرية (فنخو) بعد تحريفها إلى (Phoivikes) للدلالة على فينيقيا و (Phoivikn) للدلالة على الفينيقيين، أو قد يكون اسم فينيقي

أيضا مشتقاً من الكلمة اليونانية فوينوس (Phoinos) ومعناها أحمر دموي، وذلك بسبب بشرتهم التي لفحتها الشمس. كما أن الرومان بدورهم أطلقوا لفظ بوني (poeni). قارن الدواليبي، المرجع السابق، ص٨، وهو لفظ محرف لاتينياً من اللفظ اليوناني للدلالة على القرطاجيين وغيرهم من الممثلين لهذا الشعب غرب البحر الأبيض المتوسط وذلك تمييزاً لهم من الفينيقيين في الشرق، حيث أطلقوا على هؤلاء اسم فوينيقي (Phoenices) لكنهم في الوقت نفسه يعترفون بانتمائهم إلى جنس واحد، ويرى الشيخ نسيب وهيبة الخازن أن (الفوني أو الفينيقي، هو الكنعاني لعصر الحديد. والكنعاني هو اسم الفينيقي في العصر البرونزي). يعد الفينيقيون (العرب) أول أمة بحرية في التاريخ، ويعزى لهم الفضل في تأسيس الطرق البحرية بين الشرق والغرب وتحقيق الكشوف الجغرافية الكبرى. ويحلو لبعض المؤرخين من الأجانب كلما تكلموا عن هجرة العرب من شبه جزيرتهم العربية، اكتفوا بالتعبير عنهم – على نحو غامض– بالساميين، و(يريدون بهم العرب). للدراسة والتوسع انظر الشيخ نسيب وهيب الخازن، من الساميين إلى العرب، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩م، ص١٦، ٤٠– ٤٢ ، وعن أصل الساميين انظر نفس المرجع، ص٩-١٨. أيضا محمد أبو المحاسن عصفور، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨١م، ص١٥٨-١٦٦، ولنفس المؤلف، المدن الفينيقية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م، ص١٣ وما بعدها. انظر كذلك عبد العزيز الدالي، الخطاطة: الكتابة العربية، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ١٩٨٠م، ص٩-١٣. قدري قلعجي، الخليج العربي، دار الكتاب العربي، بيروت ،١٩٦٥م، ص٦٥. موسوعة المعرفة العالمية، = = المرجع السابق، م٣، ص٤٥٠-٤٥١. وقارن الدواليبي، المرجع السابق، ص١، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٨ – ٦١. أيضا Lord with Burke, op. cit., p.101.

٣٨. بعل (Baal) اسم أطلق على عدة آلهة سامية أشهرها معبود فينيقي هو إله الخصب والزراعة والتناسل. وكلمة بعل معناها (رب أو سيد أو زوج). عن أسرة الآلهة الفينيقية – الكنعانية، انظر عصفور، المرجع السابق، ص١٣٩-١٥٠. انظر هنا ص١٤٠. وانظر كذلك المنجد في اللغة والأعلام، ط٢٨، المرجع السابق. وقارن الخازن، المرجع السابق، ص٣٢-٣٥.

٣٩. يعني به قدموس (Cadmos) الفينيقي العربي، الذي حمل الأبجدية (ألف باء العرب) إلى اليونان. وقيل إن قدموس ابن آجنور ملك فينيقيا. وتتحدث الأساطير اليونانية التي تنطوي على مغزى جغرافي وتاريخي في وقت واحد معاً، عن قصة اختطاف الأميرة الكنعانية (أوربا) وذهاب شقيقها قدموس إلى الغرب ليستردها بعد أن اختطفها (زيفس) كبير آلهة (أوثان) اليونان. فتوقف في بلاد اليونان، وأدخل فيها الأبجدية، وأنشأ مدينة ثيبة أو ثيبس (Thebes) (اسمها الحالي ثيفا)حوالي القرن ١٥ق.م، وتقرن الأسطورة أوربا بآسيا، وتقول إن أوربا كانت أميرة صيدا، أبوها كنعان أو (آجنور الكنعاني) ملك صيدا وأمها آسيا. شاهدت في الحلم، وهي بعد في حضانة

أمها وأبيها، أن قارتين اتخذتا هيئتي امرأتين حاولتا امتلاكها، أحدهما تدعى آسيا التي جاءت تطالب بها انطلاقاً من أمومتها لها، والأخرى كانت لا تزال بلا اسم (وهي قارة أوربا قبل وصول الأميرة (أوربا) إليها لتعطيها اسمها فيما بعد. عن قدموس وعن أسطورة أوربا (الأميرة). انظر علي الشوك، " رؤية جديدة لأسطورة زيفس وأميرة كنعان، قدموس الباحث عن (أوربا) لن يلتقيها أبداً " في الحياة (جريدة) العدد ١٠٦٥٩، (١٥ نيسان (أبريل) ١٩٩٢م، ص١٧. انظر أيضا الدواليبي، المرجع السابق، ص ٥٨. كذلك انظر المنجد في اللغة والإعلام، المرجع السابق، ص٢٠٤، ٥٤٦ .

٤٠. هي كريت (أقريطش) (Crete) جزيرة يونانية في المتوسط. انظر الدواليبي، المرجع السابق، ص٢٦، كذلك عصفور، المرجع السابق، ص٥٥. وقارن سالم، المرجع السابق، ص١٠٤-١٠٥. وعن الحضارة الكريتية، انظر موسوعة المعرفة العالمية، المرجع السابق، م٣، ص٤٨١-٤٨٢.

٤١. انظر الشرق الأوسط (جريدة) العدد٤٨٠٢، (٢١ كانون الثاني (يناير) ١٩٩٢م، ص٢٣، نقلاً عن جريدة أكسلسيور المكسيكية، عدد ١٣، كانون أول (ديسمبر) ١٩٩١م. انظر أيضا إيلي سعادة، "على هامش العثور على حطام السفسنة الفينيقية .. التجارة والمستعمرات في عصر ملاحتهم الذهبي" ، في الحياة (جريدة) العدد ١٣٠٥٠ ، ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٨م ، ص٢٠ .

٤٢. انظر سعاده سوداح، "احتفالات عربية وإسلامية بذكرى الوصول إلى القارة الأمريكية – الأدلة الآثارية والتاريخية على وصول الفينيقيين والمسلمين إلى الأرض الجديدة"، في الحياة (جريدة) العدد ١٢٦٦٩ ، ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٧م، ص٢١. نور الدين دوركي، (الدراسات العلمية التاريخية تؤكد : العرب اكتشفوا أمريكا قبل كولومبوس) في أهلاً وسهلاً (مجلة) تصدر عن السعودية (الخطوط الجوية) العدد ١٠ تشرين أول (أكتوبر) ١٩٨٥م، ص٩-١٣. انظر هنا ص١٣. انظر أيضا الكسان، المرجع السابق، ص٤٠ وما بعدها.

٤٣. الدواليبي، المرجع السابق، ص٥٩.

٤٤. انظر وقارن عبد الله شحاته، تفسير الآيات الكونية، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٠م، ص٤٤، ٢١٥-٢١٩.

٤٥. انظر موسوعة المعرفة العالمية، المرجع السابق، م٣، ص٤٥٠-٤٥١ ، ٤٦٦-٤٦٧. أيضا الحوراني، المرجع السابق، ص٣٤ وما بعدها. عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، دار العلم للملايين، بيروت ،١٩٨٠م، ص٥٦. انظر كذلك الدواليبي، المرجع السابق، ص٢٥-٢٦.

٤٦. انظر حسني عبد الحافظ، (المسلمون وصلوا إلى القارة الأمريكية قبل كولومبوس) في الخفجي (مجلة) عدد نيسان (إبريل) ١٩٨٧م، ص١٦-١٨. انظر هنا ص١٦.

٤٧. انظر الدواليبي، المرجع السابق، ص٥٩. للتفسير انظر الصابوني، المرجع السابق، ج٨، ص٢٨-٢٩. وقارن المقال العلمي الرائع للدكتور محمد جمال الدين الفندي، " تراث المسلمين في ميدان

العلوم في كتاب دراسات في الحضارة الإسلامية – بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري " – م٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م ، ص٢٣٩–٢٩٤ ، انظر هنا ص٢٤٢ .

٤٨. الصقالبة عند مؤرخي العرب هم الشعوب السلافية القاطنة بين جبال الأورال والبحر الادرياتيكي في أوربا الشرقية والوسطى وهم فرعان، صقالبة الشمال (الروس والروس البيض والبولونيون) وصقالبة الجنوب أو اليوغوسلافيون (الصرب والكرواتيون والسلوفاكيون والبلغاريون) انظر المنجد في اللغة الأعلام، المرجع السابق، ص٤٢٤ انظر هنا سالم، المرجع السابق، ص١١٧ .

٤٩. انظر سالم، المرجع السابق، ص١١٧. أيضا مهران، المرجع السابق، ص٣٢٣ وما بعدها.

٥٠. انظر سالم، المرجع السابق، ص١٠٩ وقارن ص٨٩ . انظر أيضا حوراني، المرجع السابق، ص٥٩–٦٠. كذلك موسوعة المعرفة العالمية، المرجع السابق، م٣، ص٤٥٠. انظر هنا نفس الصفحة المفصلة للمستعمرات والتوسع الفينيقي البحري في العالم.

٥١. انظر شرف الدين، المرجع السابق، ص١١–١٤، انظر هنا ص١٣. كذلك انظر سالم، المرجع السابق، ص١١٤–١١٦. أيضا علي حسين الناصر، النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية أواخر العصور الوسطى (٦٤٨–٩٢٣هـ=١٢٥٠–١٥١٧م) مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٠م، ص١٣، ٢٣ وما بعدها. وقارن نقولا زيادة، " الجزيرة العربية حتى ظهور الإسلام – دول شمال الجزيرة العربية " في الخفجي (مجلة) عدد نيسان (أبريل) ١٩٨٨م، ص٦–٧. مهران، المرجع السابق، ص٣١٠–٣١٣. حوراني، المرجع السابق، (الفهارس) (عدن بلاد العرب السعيدة) و (عمان العمانيون) ص٣٩٦. أيضا Philip C. Hammond "Petra Myth and Reality", in Aramco World, No5, Sept.-Oct.,1991, pp.32-41. (Magazine), vol.42.

٥٢. انظر محمد نمر الخطيب (الشيخ)، موقف الدين من العلم، دار العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٢م، ص١٣.

٥٣. انظر غوستاف لوبون، حضارة العرب، ط٢، نقله إلى العربية عادل زعيتر، البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٤٨م، ص٧٦. وقارن الخطيب (الشيخ) المرجع السابق، ص٦٠.

٥٤. انظر أنور عبد العليم، المرجع السابق، ص١٣. أيضا عز الدين فراج، فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٨م، ص١٣٦–١٣٧.

٥٥. انظر قلعجي، المرجع السابق، ص٥٢. أيضا حوراني، المرجع السابق، ص٤٥–٤٦، ١٩٦–١٩٧. وعن الأبلة (أبولوجوس) (أبو لوم) في النقوش الاكادية. انظر المرجع نفسه، ص٤٦، وانظر الفهارس، (الأبلة) ص٣٧١، (البصرة) ص٣٨٠ (سيراف) ص٣٩٣. علي عبد الله الدفاع،

الموجز في التراث العلمي الإسلامي، دار جون وايلي وأولاده، نيويورك، ١٩٧٩م، ص٤١ وما بعدها.

٥٦. انظر حوراني، المرجع السابق، ص١٠٥. انظر أيضا فوزي، المرجع السابق، ص٣١٦.

٥٧. انظر أنور عبد العليم، المرجع السابق، ص١٨.

٥٨. ذات الصواري معركة بحرية وقعت سنة (٣٥هـ=٦٥٥م) على ساحل ليقيه (قديماً منطقة في جنوب تركيا الآسيوية وآسيا الصغرى) بين العرب المسلمين بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي السرح، والبيزنطيين بقيادة قسطنطين الثاني بن هرقل، وأسفرت عن أول انتصار بحري كبير أحرزه المسلمون وقضوا بذلك على سيادة الروم البحرية أثناء ولاية معاوية على الشام. وسميت هذه الموقعة بذات الصواري لكثرة صواري السفن التي استخدمت فيها. انظر عبد العليم، المرجع السابق، ص٩٢ -٩٣، كذلك انظر السامرائي، المرجع السابق، ص١١١-١١٨. أيضا المنجد في اللغة والأعلام، المرجع السابق، ص٢٩٨ و ٦٢٠.

٥٩. انظر يسري الجوهري، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، منشأة المعارف الإسكندرية، ١٩٧٩م، ص٧٥-٧٦. وانظر أيضا ، محمد المبارك التيرابي، " المظاهر الحضارية والصلات التجارية قديماً في بلاد السودان – المحطات التجارية القديمة جنوب الصحراء الكبرى " في الحياة (جريدة) العدد ١٠٧٠٠، ٢٦ أيار (مايو) ١٩٩٢م، ص٨.

٦٠. انظر فراج، المرجع السابق، ص ١٣٧.

٦١. انظر عبد العليم، المرجع السابق، ص٨٩،٩١-٩٢. كذلك فراج، المرجع السابق، ص١٣٩-١٤٠. انظر أيضا السامرائي، المرجع السابق، ص١١٢-١١٣ .

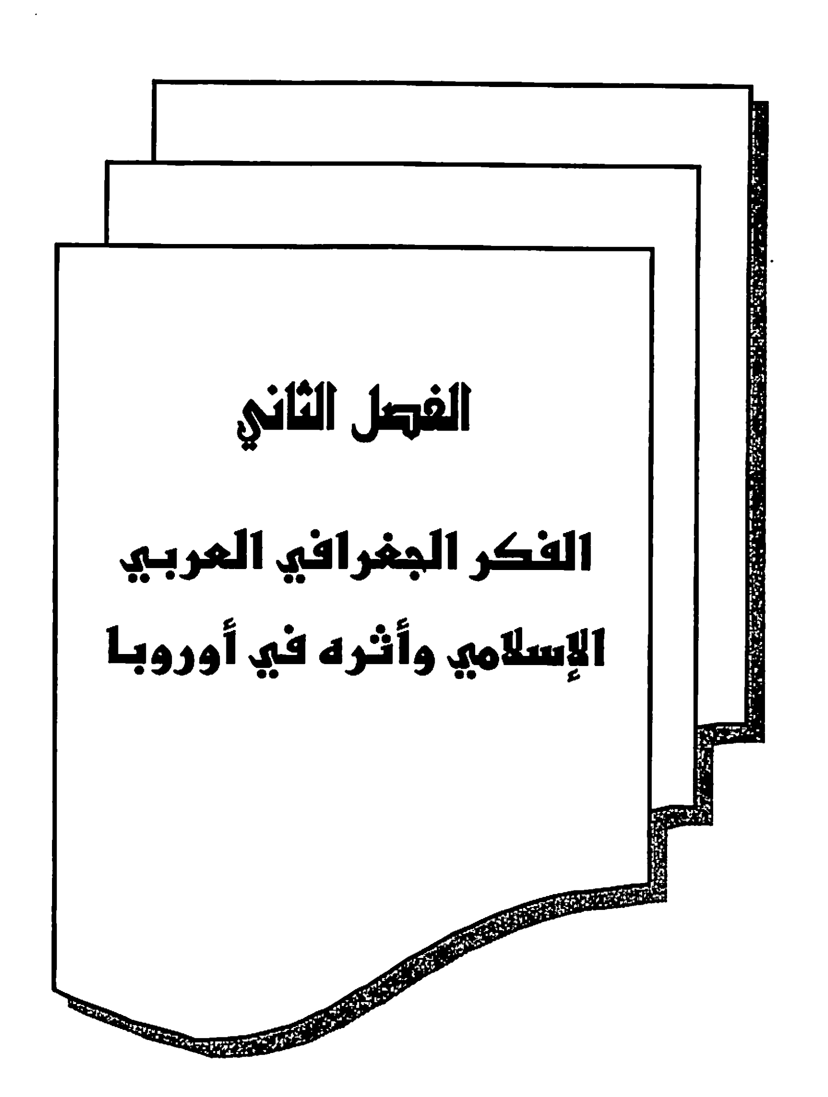
٦٢. انظر قلعجي، المرجع السابق، ص٢١. وانظر كذلك عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م، ص٧٩. للدراسة انظر المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحرير وترجمة باربييه دومينار وبافيه دوكروتي، باريس، المطبعة الإمبراطورية، ١٨٦٧م، وبتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٥٨م، ثم المطبعة التجارية، القاهرة، ١٩٦٤م. هنا ج١، ص٥٣.

٦٣. انظر قلعجي، المرجع السابق، ص٢١-٢٢. نص رسالة عمر إلى معاوية، انظر هنا في نفس المرجع، ص٢٢. وانظر كذلك عبد العليم، المرجع السابق، ص٧٨.

٦٤. انظر قلعجي، المرجع السابق، ص٤٤-٥٧. انظر هنا، ص٤٧-٤٨. كذلك انظر الناصر، المرجع السابق، ص٤٤-٤٧. عبد العليم، المرجع السابق، ص٩٠.

٦٥. انظر عبد العليم، المرجع السابق، ص٨٧-٩٢. عن الطرق البحرية وأسماء الموانئ ومواقعها انظر نفس المرجع، ص٦٩-٨٦. انظر هنا ص٧٧-٨٣. للمزيد انظر ماجد، المرجع السابق،

ص٧٣-٨٠ فهمي مقبل، الفاطميون والصليبيــون، الدار الجامعيــة، بـــيروت، ١٩٨٠م، ص١٠١ وما بعدها.



الفصل الثاني

الفكر الجغرافي العربي الإسلامي وأثره في أوروبا

الفصل الثاني
الفكر الجغرافي العربي الإسلامي وأثره في أوربا

ببزوغ شمس الإسلام على العالم، ولدت خير أمة أخرجت للناس، وصـــير هــذا الدين العرب خلقاً جديداً، يجمعون بين قوة الإيمان وحب العلم، وفي توازن رائع بيـــن الثوابت من الدين والمتغيرات من زينة الحياة الدنيا، منطلقـــة جحافلـــهم فـــي مسـيرة خضراء، تحمل الحب والسلام، تبني ولا تهدم، فكوّنوا حضارة إسلامية عالمية، قـــامت على تقديس العلم والمعرفة، شعارها العلم والحرية والخير للجميع دون تمييز، فكـــانت الحضارة التي تناسب أهل الأرض كافة، تقوم على فكر ومبادئ خالدة، لم يصل إليـــها العقل البشري من قبل، صاغت أمة لا تعترف بالحواجز النفســية والحــدود السياســية (الجغرافية)، جعلها الإسلام كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجســد بالسهر والحمى.

من رحمة الله بالإنسانية أن زامن تشريف أمتنا بدينه الحنيف القيــم، وإخراجــها من دائرة الشعور القبلي الضيق إلى أفق العالمية اللامحــــدودة، مـــع عصـــر الظـــلام والانحطاط الذي كانت تغرق فيه أوربا، عندما أوقد المسلمون مشاعل أوربا المنطفئـــة بنور قناديلهم، وطاردوا ظلمات الجهل في أوربا وفي كل مكان بنور علومهم وثقافتـــهم، فبددوا تلك الظلمات، وقهروها ليصبحوا بطيب خاطر رواداً للعلم في مختلـــف فـــروع المعرفة، وأساتذة لأمم الشرق والغرب،[١] ومن ثم توأموا بين الإسلام والإنسان طـــوال رحلة العمر (من المهد إلى اللحد). وجعلوا معابر أنهار تجري عبر الأندلس وصقليـــة والشام لتصب في أوربا علوماً نافعة، ومعارف بناءة، فغســلت أوربـــا مـــن أدرانـــها، وأخرجتها من عزلتها، ووفرت لها الأقلام والمداد، فنقلت، وحاكت، وتعلمت، تغـــرف من بحور كنوزنا الثقافية والعلمية بلا حساب – طوعاً أو كرهاً .

وكانت اللغة العربية في هذا الزمن الذهبي من عمر حضارتنا الإســلامية، لغـــة العلم العالمية، ويكفي شاهداً ملايين المخطوطات العربية الإسلامية من نتـــاج الســلف الصالح، والموجودة حتى الآن في معظم مكتبات، ومتاحف، ودور العلم في العالم بلغتها

الأصلية، والمترجمة بلغات العالم القديم، ويجمع مئات العلماء والمستشرقين المنصفين أنه لولا كنوزنا هذه لتأخر ظهور الحضارة في أوربا قروناً طويلة. وحسبنا أنه لقرون قليلة مضت، كان لكلية الطب الباريسية مكتبة مؤلفة من كتاب واحد، لأحد أشهر أطباء الإنسانية – في عصره وما تلاه من عصور !- أبي بكر الرازي (٢٥٠-٣٢٠هـ = ٨٦٤-٩٣٢م)، استعان بهذا الكنز الباقي، لويس الحادي عشر Louis XI (٨٦٦-٨٨٨هـ = ١٤٦١-١٤٨٣م) ملك فرنسا المسيحية، رغبة منه في أن ينسخ له أطباؤه نسخة يرجعون إليها إذا ما هدد صحته وصحة عائلته داء أو مرض.(٢)

على امتداد سبعة قرون (من القرن ١ إلى القرن ٧هـ = ٧ – ١٤م) كانت الأمصار الإسلامية مركز العالم وقبلته العلمية الأثيرة، لكل من ينشد الازدهار الحضاري والرقي العقلي والفكري، حقاً، لقد كان لجيوش المسلمين الفاتحة رسالتان: (الأولى) أن يبلغوا الناس رسالة الإسلام، ويدخلوا في قلوبهم نور التوحيد، ونور الإيمان، والثانية: أن يأخذوا، ويقتبسوا من تلك الأمم ما عندها من معارف وعلوم.(٣) وهم في هذا كله، لم تأخذهم العزة بالإثم، ولم يختالوا كالطواويس بما هم فيه من قوة ونصر مبين، بل حفزهم اتساع سلطانهم أن يأخذوا ما عند الأمم المغلوبة من المعارف وأنواع الفنون، انطلاقاً من قوله تعالى: "وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا" (طه:١١٤) ولما جاء في الأثر (عند الترمذي) "الحكمة ضالة المؤمن". وفي مدة زمنية قصيرة كانت لديهم آداب الفرس ومعارفها وعلوم الروم، وفلسفة اليونان، وحكمة الهند، وكل شاردة أو واردة نافعة، من نتاج الفكر الإنساني قبل الإسلام، متخذين من الترجمة وسيلة العصر، لنقل هذه المعارف في شتى فروعها الأدبية، والعلمية، والفلسفية، ... إلى كل نفس متعطشة لها، إنه الأسلوب الإسلامي المميز في مسايرة التيارات الفكرية العالمية، ومواكبة حركة التقدم لتغيير وجه العالم الحضاري، وبالترجمة اقتحمت الشعوب المختلفة مجالات التقدم، وبدأت عصرها الذهبي.(٤)

وغدت اللغة العربية بذلك سيدة اللغات العالمية، وأصبح بالتالي تعلمها مطلباً حضارياً في المظهر والجوهر، حيث تخلت الشعوب المغلوبة عن لغاتها المحلية، وأخذت تتكلم باللغة الجديدة، حتى أصبحت لسان جميع هذه الشعوب المعروفة بعراقتها

الحضارية قبل الإسلام، وقد جسمت لنا زيغريد هونكة Sigrid Honke هذه الصـورة بأبعادها وآثارها المتعددة، تحت عنوان، "الترجمة من حيث هي عامل حضـاري" فـي كتابها الموسوم، شمس العرب تسطع على الغرب، حيث تقول: "لم يكن ما أنقذه العـرب من ثقافات ليحفظ في المتاحف والأقبية بعيداً عن النور والهواء. كلا إن كل ما أنقـذوه من الفناء فد خرجوا به من عالم النسيان والتعفن، وبعثوا فيه حياة جديدة وجعلـوه فـي متناول كل إنسان عن طريق ترجمته. وقد ترجموه ليس إلى لغة جامدة غريبـة عـن الشعب لا يفهمها إلا الخاصة كاللاتينية في الغرب منذ القـرن (٥هـ = ١٢م)، بـل ترجموه إلى لغة حية في كل مكان آنذاك، هي لغة القرآن الكريم، فكان على كل مسـلم أن يقرأ ويتلو القرآن بالعربية، وأن يتعلم ويفهم اللغة، وكان كل مواطـن فـي الدولـة الإسلامية له حق الأخذ بنصيب من تلك النهضة العلمية التي اتخذت شكلاً رائعاً، ولـم تكن وقفاً على طبقة من الشعب دون أخرى".(٥)

لعل أول من افتتح باب عصر الترجمة، وبدأ جمع الثقافات لهذا الغرض حكيـم آل مروان، خالد بن يزيد بن معاوية (٨٥هـ = ٧٠٤م) لكن باب الترجمة لم يفتح علـى مصراعيه وعلى نطاق واسع مع تنظيم حركتها إلا في عهد المأمون (١٩٨-٢١٨هـ = ٨١٣-٨٣٣م) بعـد أن أصبـح النقـل منـذ أيـام أبـي جعفـر المنصـور (ت ١٥٨هـ=٧٧٥م) في كنف الدولة ورعايتها، لتصبح الترجمة من ثمَّ بالفعل ولقرون عدة حركة أمة خلاقة، لا ينضب معينها الثر، ولا تفتر ديناميتها الحيويـة المتجددة، ولا أدل على ذلك من أن المأمون وقف وقته جنباً إلى جنب مع شؤون السياسة - إدارة عجلـة الدولة - في رعاية العلم والعناية بالعلماء والمبالغة في إكرامهم، وحسبه أنه نظر إليـهم "كأنهم مخلوقات اختارهم الله لإكمال العقل، فهم مشاعل العالم وهداة الجنس البشـري، وبدونهم تعود الأرض إلى الهمجية الأولى". (٦)

هذا مع بذل بسخاء منقطع النظير لتشجيع المترجمين في كل الأجناس والأديـان، معطياً وزن ما يترجم له ذهباً، وأنشأ بيت الحكمة في بغداد (٢١٥هـ=٨٣٠م) ليكـون بيت العالم وخزانته المعرفية من كنوز الكتب، أو البحوث، أو المؤلفات العلمية الجديـدة في أبوابها، وتثمن زيغريد هونكة أثر هذه الكنوز العلمية بالقول: "إن سيلا عرمـاً مـن

نتاج الفكر العربي ومواد الحقيقة والعلم، وقد نقحته أيد عربية، ونظمته، وعرضته بشكل مثالي، قد اكتسح أوربا، وغمر أرضها الجافة غمراً، فأشبعها كما يشبع الماء والرمال الظمأى، وسمت بسالرنو (إيطاليا) بدفعات جديدة من الذخر العربي، وأعطت مواد الدراسة المثالية إلى بادوا (إيطاليا)، وباريس، وأوكسفورد، وفي مراكز العلم الأوربية، لم يكن هناك عالم واحد من بين العلماء إلا مد يديه إلى الكنوز العربية هذه يغرف منها ما شاء الله له أن يغرف، وينهل منها كما ينهل الظمآن من الماء العذب، رغبة منه في سد الثغرات التي لديه، وفي الارتقاء إلى مستوى عصره العلمي، ولم يكن هناك كتاب واحد، من بين الكتب التي صدرت في أوربا آنذاك إلا وقد ارتوت صفحاته بالري العميم من الينابيع العربية، وأخذ عنها إيماءاته وظهر فيه تأثيرها واضحاً كل الوضوح، ليس فقط في كلماته العربية، بل في محتواه، وأفكاره".(٧)

هكذا أصبحت أمتنا الوارث الجديد للفكر الإنساني معنية بإسلامية المعارف، بعد أن أصبح الأمل معقوداً عليها في العصور الوسطى وفي كل العصور لإنقاذ العالم من ظلمات الجهل، وتحرير العقل البشري من سلطان الخرافات والأوهام، فقد مكنتها رسالتها العالمية أن تنجز بسرعة مذهلة حضارة عظيمة، وأن تغير وجه العالم ليصبح الأجمل، وأن تقدم فكراً صافياً نابعاً من قرآنها على غير مثال سابق أو لاحق قولاً وعملاً، ومن هذا النهر الفرات والتربة الخصبة غرست أوربا جذور علومها ومعارفها الصحيحة، ومنها جذور الفكر الجغرافي وعلوم البحار، بعد أن تبين للأوربيين أن ما ورثوه من علوم جغرافية عن اليونان والرومان، لا يمكن الانتفاع به، ولا يرتقي إلى متطلبات عصرهم، وذلك لسببين: (الأول): لاحتوائه على أغلاط كثيرة تفسدها، و (الثاني) يرجع لانتشار الأمية، وانحطاط اللاتينية واضمحلالها، حتى أصبح من المتعذر على أبناء اللغة الأوربيين أنفسهم فهمها.

تقول هونكة : "لو أردنا دليلاً على مدى الهوة العميقة التي كانت تفصل الشرق عن الغرب، لكفانا أن نعرف أن نسبة ٩٥ في المائة على الأقل من سكان الغرب في القرون الـ (٤ و٥ و٦ و٧ هـ = ٩و١٠ و١١ و١٢ م) كانوا لا يستطيعون القراءة والكتابة" (٨) ويظهر هنا أهمية الترجمة العربية لأمهات الكتب الجغرافية اليونانية

والرومانية وتصحيحها وتشذيبها من الأخطاء الهائلة التي جعلت من يريد الأخذ عنها يأخذ بحذر شديد، والتي أصبحت في منتهى التواضع بعد أن قدم العرب جديدهم في الفكر الجغرافي والملاحي، وإذا كان العرب في أول أمرهم قد اعتمدوا على معلومات اليونان، فإنهم لم يلبثوا، أن فاقوا أساتذتهم فصححوا ما وقع فيه جغرافيو اليونان والرومان من أخطاء جغرافية شنيعة.

فقد صحح الجغرافيون العرب والمسلمون العديد من الأخطاء التي وقع فيها بطليموس (٩٠ – ١٦٨م) مثل مبالغته في تحديد طول البحر الأبيض المتوسط، وامتداد الجزء المعمور من الأرض، وكذلك تصوره خطأ بأن المحيط الهندي والمحيط الهادئ بحيرة مغلقة، كما أخفق في تعيين موقع بحر قزوين والخليج العربي، والعديد من المواقع والمدن، كذلك في تحديد حجم جزيرة سيلان (سريلانكا)، وكان يعتقد أن القارة الأفريقية يمتد طرفها الجنوبي إلى الشرق حتى يبلغ الأرخبيل الإندونيسي، والأكثر سوءاً، من هذا كله، اعتقاده أن الأرض مسطحة، وفشل كذلك فشلاً ذريعاً في التوصل إلى استعمال خطوط الطول والعرض، وكروية الأرض عموما.

لا غرابة بعد ذلك أن يحسن المستشرق الفرنسي جوزيف توسان رينو Joseph T. Reinnaud (ت ١٢٩٣هـ = ١٨٧٦م) الظن دائما بكل جغرافي عربي ينكر فكرة بطليموس هذه، في الوقت الذي لا يخفي فيه علماء أوربا اليوم، بأن العلماء العرب والمسلمين هم مخترعو خطوط الطول والعرض، وهم أول من قدم إثباتا فلكيا صحيحا على كروية الأرض، ومن الطبيعي أن يتفوق العلماء العرب والمسلمون على علماء الرومان في ميدان علم الجغرافيا وفروعه المتشعبة، ذلك لأنهم وصلوا إلى الصين وأفريقيا دون الرومان، وفي الوقت الذي كانت تحكم فيه العالم ثقافتان متباينتان: شرقية وغربية، فإن الحضارة الإسلامية هدمت الهوة ما بين الثقافتين لتصبح الحضارة والثقافة العالمية الواحدة في الشرق والغرب.(٩)

لا ريب أن العرب والمسلمون أضافوا إلى محصول المعرفة الجغرافية ما حقق تلك القفزة النوعية في هذا الميدان في العالم القديم، وهذا ينسجم مع ما عرف عن العرب والمسلمين من شغفهم بالسياحة والرحلات، التي حث عليها دينهم الإسلامي

الحنيف، في سياق تشجيعه على النشاط والحركة طلباً للرزق والعلم والدعوة إلـــى الله، قال تعالى "فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ الله) (الجمعة:١٠) ممــا حفزهــم على أن يجوبوا بلاد العالم طولاً وعرضاً، من شرق آسيا إلى مجاهل أفريقيــا وإقامــة علاقات تجارية وثقافية في بلاد لم يسمع بها الأوربيون في العصور الوسطى، أو حتــى شكوا في وجودها من قبل، وقد عبّر عن هذه الظاهرة (شعراً) أصدق تعبــير، الإمــام الشافعي (رضي الله عنه) (١٥٠-٢٠٤هـ = ٧٦٧-٨٢٠م) حيث يقول:

سافِرْ تَجِدْ عِوَضــاً عَمَّنْ تُفارِقُــهُ — وانْصَبْ فإنَّ لذيذَ العَيْشِ في النَّصَبِ
إني رأيتُ وقــوفَ المــاءِ يُفسِــدُهُ — إنْ ساحَ طابَ وإنْ لمْ يَجْرِ لمْ يَطِبِ
والشمسُ لو وَقَفَتْ في الفُلْكِ دائمةً — لَمَلَّها الناسُ من عُجْمٍ ومن عَرَبِ(١٠)

هنا تجدر الإشارة إلى الإدريسي (أبي عبــد الله المعروف بالشــريف) (٤٩٤-٥٦١هـ = ١١٠٠-١١٦٥م) كأبرز وخير مثال على هذه الأستاذية العربية، حيث يعــد مدرسة جغرافية قائمة بذاتها، وكتابه نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق والشهير باسم، نزهة المشتاق في اخــتراق الآفــاق، يعــد أضخم موسوعة جغرافية عالمية (في وصف الأرض) في عصره وفي عصور لاحقــة، وقد ترجمه الأوربيون إلى اللاتينية، وبقي معتمدهم أكثر من ثلاثة قرون، وقد أخــذت أوربا من هذا الكتاب وأضرابه اللبنات الأولى التي أعلــت فيــها صرحــها الفكــري الجغرافي.

وقد كتب الإدريسي موسوعته الجغرافية هذه بالعربية في صقليــة (إيطاليــا) – توضيحاً لخرائطه التي تزيد على الأربعين – في عهد ملكها (المستعرب) روجر الثــاني Roger II (٥٤٠- ٥٤٩هـ= ١١٤٥-١١٥٤م) الذي كانت تتملكه رغبة ملحة فــي رسم صورة واضحة للعالم تحاكي تلك الخريطة (الصورة) التي رسمها للعالم، ســبعون جغرافياً عربياً بأمر من المأمون في بغداد. لم يجد روجر الثاني أمامــه أفضــل مــن الشريف الإدريسي من علماء العالم آنذاك ليكلفه بوضع تلــك الخرائــط، حيــث قــام

الإدريسي بمهمته خير قيام، لتصل إلى درجة الكمال، ثم قام الإدريسي بنحت خريطة جامعة، للكرة الأرضية، على لوح من الفضة. صممها على شكل (كـرة مـن الفضة الخالصة عظيمة الجرم) "قطرها متران ووزنها يعادل وزن رجلين ناميين" وهـي مـن روائع إبداعاته وجليل أعماله.

وقد بهرت أعمال الإدريسي وخريطته الجامعة الملك روجر الثاني، وعززت ثقته بمعلومات العرب والمسلمين في العلوم الجغرافية، وأنه لا أحد في عصرهم يبزهم في هذا الميدان. تقول هونكة: "لقد كان الجغرافي العربي الإدريسي هو الذي مثل فـي قصر ملك صقلية روجر الثاني دور المعلم للغرب، وليس بطليموس كما يدعي بعضهم". ويقول المستشرق الروسي أغناطيوس كراتشكوفسكي Kratchkoviski (١٣٠١-١٣١٧هـ= ١٨٨٣-١٩٥١م) : "روجر وقد عاش على الحد الفاصل بين الحضارتين العالميتين لذلك العصر، كان على معرفة جيدة بالاثنتين، وتكليفه عالماً عربياً بالذات وَضْعَ وَصْفِ العالم آنذاك، لدليل ساطع على تفوق الحضارة العربية في ذلك العهد، وعلى اعتراف الجميع بهذا التفوق. وقد كان بلاط النورمان بصقلية نصف شرقي، هذا إذا لم يكن أكثر من النصف".[١١]

لم يكن الإدريسي في هذه المكانة العلمية نسيج وحدة، فقد ورث عن غيره مـن الآباء الكثير من العلوم الجغرافية، فمن المرجح أن علم الجغرافيا عند العرب والمسلمين ازدهر منذ الأسفار التي قام بها التاجر العربي سليمان إلى الصين (حوالي منتصف القرن ٤هـ = ٩م) الذي ينسب إليه الكتاب، أخبار الصين والهند، وجاب غيره من العرب والمسلمين البر والبحر، جنوبي آسيا وشرقها قبل الرحالة (الإيطالي) ماركوبولو Marco polo (٦٥٢-٧٢٤هـ=١٢٥٤-١٣٢٣م) بأكثر مـن أربعة قرون (وبينما كان الغرب عاكفاً خلف أسوار الأديرة يبحث عن الجغرافية فيما كتبه الأقدمون، وما وصلوا إليه من نظرية أو استنتاج، كان عالم مثل المقدسي (شمس الدين) (ت ٣٨٠هـ =٩٩٠م) يجوب الأرض طولاً وعرضاً ليكتب في القرن (٤هـ=١٠م) كتاباً في جغرافية الأرض وشعوبها اتخذ مادته من تجاربه ومشاهداته الخاصة فقط).[١٢]

في الوقت الذي لم يكن يعرف فيه الناس في أوربا الجغرافية المؤسسة على المراقبة والتجربة، وكانت خرائط الأديرة ترسم الأرض طبقاً لفهمهم للإنجيل على أنها قطعة من الأرض، يحيط بها بحر عالمي، وفي وسطها تقع الجنة![١٣] كان العلماء العرب والمسلمون قد أرسوا قواعد علم الجغرافية بتقسيماته العلمية الحديثة – الوصفية، والاقتصادية، والطبيعية، والرياضية (الفلكية) والتاريخية، والبشرية، الخ. إلى جانب معلومات جغرافية وتاريخية مهمة عن التقسيمات السياسية، والمناخ الجغرافي، وطوائف الناس وعاداتهم، ومواقع المدن، والقواعد البحرية، والبحار والأنهار، والجبال، والسهول، والوديان، والنباتات وأماكنها، كما أوضحوا العروة العلمية الوثقى بين الجغرافيا، والتاريخ، وعلم الاجتماع.

وتوصلوا كذلك إلى ما للأرض والمناخ من تأثير في بشرة الإنسان وبدنه، في إشارة للجاذبية الأرضية وأثرها في الكائنات والمخلوقات حجماً وشكلاً وخلقاً، كما توأموا بين علمي الجغرافية والفلك للصلة الوثيقة بينهما، ويمكن أن نلمس هذا بقوة في نظرياتهم في علم الجغرافية الرياضية التي اهتمت بمواقيت الصلاة والصيام والحج، فضلاً عن توصلهم بدقة متناهية إلى تحديد الموقع الجغرافي للبلدان المهمة بالنسبة إلى خطوط العرض والطول، يقول جورج كمبل: "حسب علماء العرب والمسلمين فخراً أنهم ربطوا الجغرافية بالفلك فسبقوا بذلك علماء القرن (١٤هـ=٢٠م) وهم بلا شك أول من رسم الكرة الأرضية".[١٤] وتقول دوروثي الملاخ: D. Al-Malakh "بقيت أوربا قروناً عديدة لا تعرف عن الكرة إلا القليل، حتى وصلتها مؤلفات العرب والمسلمين في علم الجغرافية، لذلك يتعين علينا أن نقول إن معرفة أوربا بمختلف أجزاء الكرة الأرضية إنما تستند إلى مكتشفات علماء المسلمين" وإذا كانت أوربا تفخر بأحد أبنائها الجغرافيين، جيرالد (س) مركاتور G. Mercator (٩١٨-١٠٠٠هـ = ١٥١٢-١٥٩١م) الألماني الأصل، فإنه لم يكن أكثر من ناقلٍ ومحاكٍ لكتب الشريف الإدريسي، وأبي الفداء (عماد الدين إسماعيل) (٦٧٢-٧٣١هـ = ١٢٧٣- ١٣٣١م).[١٥]

من إنجازات العرب التاريخية الباقية اختراع البوصلة، أو تحديثها إلى ما يرتقي إلى مستوى الاختراع وسموها الحُك (إبرة الملاحين تتجه دائماً إلى القطب الشمالي

فيهتدون بها)، وهي الإبرة المغناطيسية، فكانت كافية أن تحدث نقلة هائلة في تاريخ الرحلات والمواصلات البحرية على وجه الخصوص، يقول د. عاشور: "وإذا كان من الثابت أن البوصلة اختراع صيني، إلا أن فضل العرب في استخدامها يبدو في ناحيتين، الأولى، أنهم كانوا أول من استخدم البوصلة على نطاق واسع في الملاحة، والثانية، أنهم هم الذين نقلوا هذا الاختراع إلى أوربا، وعلّموا الأوربيين استعمال البوصلة، وذلك أن الصينيين كانوا ضعافاً في الملاحة. ولم نسمع عن قيامهم برحلات بحرية بعيدة عن شواطئ بلادهم، ولذلك لم يستخدموا البوصلة في البحر، وذلك بخلاف العرب الذين أثبتوا أنهم ملاّحون مهرة، فأسرعوا في استخدام البوصلة في الملاحة". (١٦)

هذا وقد تنازع الصينيون، والعرب، والإيطاليون أسبقية اختراع البوصلة، أما من جهة الصينيين، فلم يستطع مؤرخهم شويو Chu-Yu أن ينكر أنهم عرفوا البوصلة عن طريق ملاحين أجانب، وهؤلاء الأجانب أحد اثنين، إما هنود أو عرب، وبما أن المصادر (الوثائق) الهندية لم تشر إلى هذه الآلة، يصبح من شبه المؤكد أن الصينيين قد أخذوا البوصلة من العرب، أما على الصعيد الإيطالي، فقد ادعت إيطاليا أن اختراع البوصلة قد تم على يد أحد أبنائها العلماء (فلافيوجويا) إلا أن الأبحاث الحديثة أكدت أسبقية العرب في اختراعها، الدليل على ذلك، أن أقدم إشارات إلى البوصلة واستعمالاتها في المصادر الأوربية جاءت في كتاب فانسان دي بوفيه V. de Beauvis (ت ٦٦٣هـ=١٢٦٤م) Sepculum Naturale كذلك كتاب ألبرت ماجنوس A. Magnus (ت ٦٧٩هـ=١٢٨٠م) Mineralibus وقد اعتمد المؤلفان على مصدر واحد هو جيرارد الكريموني G. de Cremona (٥٠٨-٥٨٢هـ=١١١٤-١١٨٧م) وجيرارد هذا أفنى حياته كلها في ترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية، بما فيها الكتب المتعلقة بالبوصلة، مما يؤكد أن المصدر لكلا المؤلفين كان عربياً. (١٧)

مهما يكن من أمر، فإنه بفضل اختراع البوصلة، استطاع العرب أن يملكوا زمام المبادرة في البحر، وتطويعه لسفنهم التجارية التي أصبحت تتحكم في شرايين المواصلات البحرية بين الشرق والغرب، وسرعان ما أدى النشاط التجاري الواسع إلى ابتكارهم أنظمة مالية وتجارية جديدة، أخذتها أوربا عنهم. وقد أثبت العالم جريسهوف

Grasshoff أن أول من عرف نظام الحوالات المالية (النظام البنكي- المصرفي) هـم العرب، وعنهم أخذته أوربا في القرن (٤هـ=١٠م) عـن طريـق إسـبانيا وإيطاليـا، ودخلت الكلمات والمصطلحات العربية في الملاحة والفلك والتجارة، الخ التي انسـاحت في اللغات الأوربية لتصبح جزأ لا يتجزأ من عمودها الفقري اللغوي.[١٨] ومن الطريف الإشارة هنا إلى أن "مراكب المسلمين، كانت تتصل وهي في البحر ببعضها، أو حتـى بمن في البر عن طريق الحمام الزاجل، لذلك كان يوجد في مركـب قـائد الأسـطول والمراكب الأخرى أقفاص من الحمام الزاجل لغرض الإبقاء على الاتصال والتواصـل الدائم، كذلك كانت تزود مراكب رؤساء الأساطيل بفانوس خاص، لكي تراها المراكـب الأخرى، فتهتدي بها".[١٩]

هكذا يتبين لنا أثر الحضارة العربية في أوربا بعامة، وأثـر الفكـر الجغرافـي العربي الإسلامي فيها بخاصة، وستعطينا المادة التالية نافذة أوسع لنطـل منـها علـى جوانب أوضح من الصورة، تجعلنا نقترب أكثر من الأدلة التي تشي بفضـل العـرب على أوربا في ميدان الكشوف الحديثة، بوصولهم بنجاح إلى شواطئ النصـف الثـاني (الغربي) المجهول من الكرة الأرضية، ولعل أفضل ما نختتم به هذه الفقـرة، حديـث زيغريد هونكة وإنصافها لدور العرب والمسلمين التاريخي في أوربا، حيث تقـول: " إن العرب لم ينقذوا الحضارة الإغريقية من الزوال، ونظموها، ورتبوها، ثم أهدوها إلى الغرب فحسب، إنهم مؤسسو الطرق التجريبية في الكيمياء والطبيعة والحساب والجـبر والجيولوجيا وحساب المثلثات وعلم الاجتماع. وبالإضافة إلى عـدد لا يحصـى مـن الاكتشافات والاختراعات، في مختلف فروع العلوم، والتي سـرق أغلبـها، ونسـب لآخرين، قدم العرب أثمن هدية وهي طريقة البحث العلمي الصحيح التي مـهدت أمـام الغرب طرقـه لمعرفة أسرار الطبيعة وتسلطه عليها اليوم! ".[٢٠]

إنجازات العرب والمسلمين في اكتشاف العالم الجديد قبل ظهور كولومبوس

رأينا فيما تقدم، كيف أن الدولة العربية الإسلامية امتدت من أطـراف الصيـن شرقاً إلى مشارف المحيط الأطلسي غرباً، وكيف طرقـت أسـاطيلها أبـواب فرنسـا وإيطاليا، وعزونا ذلك إلى الإسلام وعالميته، الذي صاغ شخصية فريدة ترتقـي إلـى

مقاييس هذه العالمية، مما يتمايز به البشر من أفراد وجماعات، وأساس رقي الشعوب والأمم، هذه السجايا كانت بمثابة المهماز الذي حفز الآباء والأجداد على العمل الدؤوب المتقن للوصول إلى أقصى درجات الرقي الحضاري، ومراتب الكمال الإنساني، لذلك نافسوا بشرف ليتسيدوا البحار، ويحققوا الكشوف الجغرافية الكبرى، فكان من الإنصاف أن يعترف لهم بالفضل والأسبقية فيها، وهم الذين كان هاجسهم الدائم إيصال رسالة الله إلى الإنسانية، فوطنوا النفس على فتح الآفاق، دون طمع في الدنيا أو إغراءاتها الرخيصة.

فاندفعوا في كل صوب، يحدوهم الأمل أن وراء كل أفق فتحوه أفقاً آخر في انتظارهم، فجابوا بسفنهم العالم؛ المعروف منه والمجهول، القريب منه والبعيد، بحثاً عن أفق جديد ودنيا جديدة، يضعون عليها بيارقهم الأولى، وخير شاهد على ذلك ما أكدته المصادر الأوربية نفسها "بأن الملاحين والتجار العرب والمسلمين قد تجاوزوا الهند والصين، والهند الصينية ووصلوا إلى كوريا، وإلى جزائر (واق الواق) التي عرفت بأرض الذهب، وسماها ماركوبولو، (تسيبانجو)، ثم عرفت في العصور الحديثة باسم (اليابان) أي أرض الشمس المشرقة، وكذلك إلى فنلندا، وبريطانيا، وأيسلندا".(٢١)

كان ابن خرداذبة (أبو القاسم) (٢٠٥-٣٠١هـ=٨٢٠-٩١٣م) قد وضع دليلاً للمسافرين، يصف فيه الطريق البحري من مصب دجلة في الخليج العربي حتى موانئ الصين. وكان المؤرخ الكبير المسعودي قد ذكر بدوره محاولات عربية (أندلسية) لعبور المحيط باتجاه الأرض الجديدة، قام بها فتى عربي أندلسي، في أوائل (القرن ٣هـ=٩م) اسمه خشخاش القرطبي، يصحبه عدد من فتيان قرطبة، حيث استقلوا مراكب مناسبة للرحلة، وتوغلوا بها في المحيط غرباً، ثم عادوا بعد مدة بغنائم واسعة، والفتى خشخاش هذا، هو الذي تولى قيادة الأسطول العربي الأندلسي، أثناء تعرض سواحل الأندلس إلى غارات بحرية شنها الأسطول النورماندي (الفايكنج)، وقد استبسل خشخاش في مجاهدة النورمان حتى سقط شهيداً سنة (٢٤٥هـ = ٨٥٩م).(٢٢)

يروي الإدريسي كذلك محاولات عربية أخرى، بهدف الكشف الجغرافي في الأرض الجديدة، وقعت في القرن (٤هـ =١٠م) مثل حديثه عن قصة الشباب

المغررين، (أي المغامرين أو المخاطرين الشجعان) وهم عصبة من الشباب تتألف من ثمانية رجال، كلهم أبناء عم من مدينة الأشبونة (لشبونة – عاصمة البرتغال اليوم) قاموا ببناء مركب بحري مناسب لرحلتهم الطويلة، وأبحروا فيه في بحر الظلمات The Sea of Darkness (الأطلسي) وكان هدفهم الأول الاكتشاف ومعرفة ما في هذا البحر من الأخبار والعجائب، وبالفعل فقد وصلوا إلى نهاية بحر الظلمات، بعد مسيرة بحرية حوالي الشهر، حتى لاحت لهم جزيرة، وجدوا فيها عمارة وحرثاً، وما أن نزلوا حتى حوصروا فيها، وقد قابلوا ملكها في اليوم الرابع من حصارهم، وكلموه بواسطة مترجم عربي يعيش في الجزيرة، ثم عادوا بواسطة مساعدة ملك هذه البلاد، ويعتقد بعض العلماء، أن الفتية المغامرين هؤلاء قد وصلوا إلى شاطئ إحدى جزر أمريكا الجنوبية، ومن العجيب أنه كان يوجد عرب في هذه الجزيرة قبل الفتية المغررين، وقبل كولومبوس، بدليل وجود من يترجم لهم بالعربية، ويحتمل، من تصرف الملك في سجن الفتية، ووضع العصائب على أعينهم، وبعد المسافة كذلك، على أنها الأرض الجديدة (أمريكا)، كما يدل على ذلك أيضاً أن الملك كان يعرف أن جزيرته مجهولة.(٢٣)

ومما زاد في الاعتقاد أن يكون الشاطئ الذي رسوا فيه هو شاطئ إحدى جزر الأرض الجديدة، وعلى وجه التحديد (جزر أمريكا الجنوبية) ما ذكره ابن فضل الله العمري (ت ٤١٨هـ= ١٠٢٧م) في كتابه، "مسالك الأبصار" من أن جماعة من بني برزال أبحروا في بحر الظلمات، ويرجح أنهم وصلوا إلى مكان ما في الأرض الجديدة، حملت اسم البرازيل نسبة لاسمهم، كما يرجع هؤلاء العلماء الفضل إلى العرب، في اكتشافات البرتغال في أفريقيا، ووصول الأوربيين إلى الهند – في مطلع العصور الحديثة.(٢٤)

وقد أيدت الكشوف الأثرية الحديثة، التي قام (ويقوم) بها مجموعة من علماء الأركيولوجيا في عدة أماكن متفرقة في العالم الجديد – لاسيما السواحل الشرقية من أمريكا الجنوبية والشمالية، والتي تنشر أخبارها في أمهات الكتب وصحف العالم الجادة بين الفينة والفينة – أيدت القول بأن العرب المسلمين في بلاد الأندلس، وكذلك عرب

أفريقيا، وصلوا إلى الشواطئ الكندية والمكسيكية والكوبية والبرازيلية منذ أكثر من ألف عام.

وتشاء إرادة الله، أن تظهر أدلة ثبوتية تدعم ما توصل إليه هؤلاء العلماء، باكتشاف مجمع البحوث الإسلامية في القاهرة مجموعة وثائق علمية أصيلة من مقتنيات جامع (جامعة) الأزهر الشريف، تؤكد أسبقية العرب في الكشوف الجغرافية في الأمريكيتين، حيث أظهرت هذه الوثائق أن الإسلام عرف طريقه إلى هناك منذ القرن (٢هـ=٨م) أي قبل حركة الكشوف الجغرافية الأوربية في العالم الجديد بأكثر من خمسة قرون، وقد قدمت الوثائق أدلة أثرية، كشفت عن آثار إسلامية مكتوبة على الصخر بلغات قبائل غرب أفريقيا، وذلك في ٩٠ موقعاً بأمريكا الجنوبية والوسطى، كما عثر هناك أيضاً على عملات عربية إسلامية، يرجع تاريخها إلى سنة (٨٨هـ=٧٠٦م) (ويؤكد عالم الأجناس الأمريكي جيفريز Gifreese في أبحاثه عن أصل الشعوب الأمريكية، إن العرب كانوا على صلة بالشواطئ الأمريكية قبل مجيء كولومبوس بأربعة قرون).[٢٥]

في هذا السياق، تصبح قصة رحلة سلطان دولة مالي الأفريقية الإسلامية، أبي بكر الثاني، إلى هذا الجزء من الكرة الأرضية أقرب إلى الحقيقة منها إلى الأسطورة، حيث جاءت أخبار رحلته الأكثر إثارة من رحلة كولومبوس، في مجلة (العلم والحياة) الفرنسية، التي ذكرت أن أبا بكر انطلق في السنة (٧١١هـ=١٣١١م) في رحلة بحرية لعبور الأطلنطي على رأس أسطول تجاري كبير، ليصل في نهاية خط رحلته إلى هسبانيولا Hispanola (إسبانيا الصغيرة) التي تعرف اليوم باسم (كوبا)، وزاد الأمر تأكيداً كولومبوس نفسه، الذي جاء عنه أنه علم من السكان الأصليين هناك – بسؤاله عن الذهب الذي وجده بين أيديهم – بأنهم كانوا يتاجرون مع السود الذين باعوا لهم رؤوس حراب، تتألف من ١٨ قيراطاً من الذهب، وستة أقراط من الفضة، وثمانية أقراط من النحاس، وهي النسبة الكيمائية التي كان الماليون يستخدمونها.[٢٦]

وقد أكد برتن كرين B. Greene في مقالة مختصرة وجود كلمات عربية خالصة في لغات (ما اصطلح على تسميتهم) هنود أمريكا، وقد رد تاريخ استخدام

هذه الكلمات إلى السنة (٦٨٩هـ= ١٢٩٠م) أي قبل قرنين من وصول كولومبوس إلى الأرض الجديدة، كما أشار إلى وجود أبنية عربية الطراز مثل الأبنية التي أتخذها المايا والأزتيك – ويتضح من الاسم أنه محرف من اسم قبيلة الأزد العربية اليمنية – ويذكرنا هذا بأن الكاتب الأمريكي الأسود أليكس هيلي A. Haley اختار لأبطال كتابه الشهير، **الجذور The Roots** أسماء عربية – إسلامية، وتفسر الكاتبة ج فريدمان G. Friedman ظاهرة انتشار الإسلام والثقافة العربية بين الأمريكيين السود بأنها عودة إلى المنابع الثقافية، إذ يقول السود: "كان أجدادنا مسلمين عندما جلبوا إلى الولايات المتحدة، ونحن لا نفعل شيئا غريبا عندما نعتنق دين أجدادنا ".[٢٧]

أكد د. هوي لين H.Lane أستاذ علم النبات بجامعة بنسلفانيا – وهو من أصل صيني – في محاضرة ألقاها في المؤتمر الواحد والسبعين بعد المائة للجمعية الشرقية الأمريكية في مدينة فيلادلفيا – والمنعقد في شهر آذار (مارس) (١٣٨١هـ = ١٩٦١م)، وضم الصفوة من أساتذة الدراسات الجغرافية مستندا في بحثه إلى وثائق محفوظة في الصين يعود عهدها إلى القرن (٧هـ = ١٣م)، تؤكد أن المسلمين انطلقوا بسفنهم في السنة (٤٩٤هـ = ١١٠٠م) من الطرف الغربي للعالم الإسلامي، ومن ميناء الدار البيضاء على وجه التحديد، لترسو سفنهم في نهاية الرحلة بنجاح في عدة أماكن على سواحل أمريكا الشمالية والجنوبية، وقد وصل (لين) إلى هذا الرأي، بعد أن قضى ثمانية أعوام في تتبع انتشار المحاصيل الزراعية والحيوانية في شتى أنحاء العالم، وقد أيد نظريته هذه كل من د. لين يانغ Yang أستاذ التاريخ واللغة الصينية، بجامعة هارفارد الأمريكية المعروفة، ود. ريتشارد رودلف Rodolphe رئيس المؤتمر نفسه، والذي عقب على محاضرة د. لين بقوله: والآن ينبغي على الأساتذة العرب أن يتابعوا دراسة تاريخهم وليبدأوا من هذه النقطة.

من محاسن الصدف وعجائب المفارقات، أن الأستاذ رفيق العظمة، ذكر أن صديقه الأستاذ د. جون فانديك J. Vandec والمعروف في الأوساط العلمية في بيروت، أبرز له أمام مجموعة من الحاضرين مجلسه، رسالة كانت قد وصلته في التو واللحظة من أمريكا، تتضمن صورة فوتوغرافية لمحراب عليه آيات قرآنية كريمة

مكتوبة بالخط الكوفي القديم، اكتشف حديثاً في إحدى الخرائب المهجورة في أمريكا (٢٨)

وأخذت نظرية وجود عالم جديد (مجهول) تزداد وضوحاً في أذهان علماء العرب والمسلمين – إلى درجة اليقين – فقد ذكر العالم الموسوعي، ابن العربي (أبو بكر محمد بن عبد الله) (ت ٥٤٣هـ=١١٤٨م) – الذي يلاحظ من تاريخ وفاته أنه عاش قبل كولومبوس بأكثر من ثلاثة قرون – (أن وراء المحيط الأطلنطي أمما من بني أدم وعمراناً) وبعده بحوالي قرن ونصف، تحدث أبو الثناء الأصفهاني (ت ٦٨٤هـ= ١٢٨٥م) – الذي عاش كما يلاحظ أيضاً قبل كولومبوس بأكثر من مائة وخمسين سنة– عن وجود أرض وراء الجزر الخالدات (الكناري). (٢٩)

ازدادت الصورة وضوحاً أكثر في ذهن ابن الوردي (زين الدين عمر) (٦٨٩-٧٤٩هـ=١٢٩٠-١٣٤٨م) الشاعر، والمؤرخ، والأديب، صاحب (نصيحة الأخوان) المعروفة بـ (لامية العرب) "تتمة المختصر في تاريخ البشر" أو "تاريخ ابن الوردي" – وغيرها من أمهات الكتب التراثية في التاريخ والجغرافيا والأدب، ويلاحظ كذلك أنه عاش قبل كولومبوس بحوالي مائة سنة تقريباً، وهو الأكثر قرباً إلى زمان الكشوف الجغرافية الحديثة، حيث استطاع في كتابه، "خريدة العجائب وفريدة الغرائب" (٣٠) – وهو من كنوز الكتب الجغرافية الوصفية المعدودة – أن يقدم لنا صورة وصفية للدنيا الجديدة، تكاد تطابق صورة الواقع الحالي للأمريكيتين (القارة الجديدة) إلى درجة التمام، ويظهر تأثير كتاب ابن الوردي هذا في الفكر الجغرافي الأوربي، بعد أن ثبت أنه كان الأكثر نسخاً وانتشاراً في دوائر العلم الأوربية حينذاك، ويكفي للتدليل على ذلك، وجود تسع نسخ خطية منه في المكتبة الوطنية بباريس وحدها، وقيمة الكتاب الجغرافية العلمية أن ابن الوردي أبدع رسم خريطة عامة للأرض (القديمة والجديدة).

كان الشيخ عبد القادر المغربي (يرحمه الله) (ت ١٣٧٦هـ=١٩٥٦م) رئيس المجمع العلمي العربي في دمشق، وأحد أبرز الأدباء واللغويين في زمانه، أول من تنبه إلى وصف ابن الوردي للقارة الجديدة، فقد لفت الانتباه في إحدى محاضراته، سنة (١٣٥٠هـ = ١٩٣١م) إلى أن الوردي ذكر في جغرافيته، أنه يوجد وراء جزر

الخالدات، جزائر عظيمة معمورة بخلق كثير. ويقول ابن الوردي في كتابه (الخريدة) تحت عنوان (بحر الظلمة وهو البحر المحيط الغربي) (إنه يسمى المظلم لكثرة أهواله، وصعوبة متنه، وفي هذا البحر من الجزائر العامرة الخراب ما لا يعلمه إلا الله، وقد وصل (اكتشف) الناس منها، سبع عشر جزيرة، ثم سمى هذه الجزر كل واحدة باسمها. وهكذا يتضح حقاً أن جغرافية ابن الوردي وغيرها من مؤلفات الجغرافيين العرب كانت معروفة في أوربا، ولا يوجد مسوغ واحد يحول دون الاعتراف بأهميتها وفضلها في النهضة الجغرافية في أوربا، والتي مهدت بدورها للكشوف الأوربية في الدنيا الجديدة.

بات من شبه المؤكد أن كولومبوس اعتمد على مصادرنا وعلومنا الجغرافية في الإبحار غرباً بنية البحث عن كشف طريق ثان إلى الهند، بهدف تخليص أوربا من سيطرة العرب والمسلمين على تجارتها مع الهند! – لتقود الصدفة وحدها إلى الأرض الجديدة، التي سبقه العرب والمسلمون إليها بأزمان بعيدة يصعب تحديدها. وفي هذا السياق، أورد الكاتب والعالم الأثري الفرنسي، إرنست رينان E. Renan (١٢٣٩-١٣١٠هـ = ١٨٢٣-١٨٩٢م) في كتابه ابن رشد ومذهبه، أن كولومبوس قد ترك رسالة عثر عليها بعد وفاته، يعترف فيها، أنه بفضل مصنفات علماء العرب الجغرافية، قد عرف بوجود قارة جديدة وراء المحيط، وعلى هدى هذه المؤلفات أعد خططه للإبحار.(٣١)

حسبنا أن مؤلفاتنا وخبرتنا الملاحية والجغرافية كانت مصادرهم الأولية والمعتمدة في دنيا الكشوف الحديثة، وأن كولومبوس كان يسعى أصلاً للوصول إلى الهند، وكانت الهند وقتها والصين واليابان معها (مربط الجمل العربي)، والدليل على هذا أنه عند وصوله الأرض الجديدة، ظل مسكوناً بهذه الفكرة (الهند)، فسمى نصف (العالم المجهول) (الهند الغربية) – على أساس أن الأرض المكتشفة امتداد للهند – وكان العرب يعتقدون غير ذلك – كما رأينا فيما تقدم – بل طالما نبهوا العالم إلى هذا النصف الثاني المجهول من الكرة الأرضية، وهذا يوحي بأن أسبقية الغرب هنا تكمن في الإعلان وتأكيد الاكتشاف، وليس الاكتشاف نفسه! وبالتالي يبقى رواد الكشوف العرب والمسلمين في وضع أفضل من وضع كولومبوس وأضرابه في هذه الفتوحات.

وإن حالت ظروف مكانية وزمانية مثل صعوبة إيجاد اتصال سريع بين القارات القديمة والجديدة للسبق في الإعلان وتأكيد الاكتشاف العربي للقارة الأمريكية، فلا أقل من الاعتراف بشراكتنا والتأكيد على حق آبائنا في إدراج أسمائهم جنباً إلى جنب مع عظماء العالم من رواد الكشوف الحديثة في صفحات التاريخ الإنساني الذهبية الباقية، وهذه الدعوة لها ما يسوغها، إذا علمنا أن كولومبوس – مع تقديرنا لجهده وإنجازه الكبير في عالم الاكتشافات البحرية – يحتل المرتبة الثانية بعد العرب والمسلمين أو قل أبعد من ذلك، فهو لم يوقف وقته في تحقيق حلم الوصول إلى الهند – كما رأينا – فحسب، بل استمات في إقناع ممول رحلته الأولى الملك الأسباني فرديناند الثاني Ferdinand II (٨٥٩-٩٢٢هـ = ١٤٥٢-١٥١٦م) وزوجته الملكة إيزابلا Isabella (٨٥٥-٩١٠هـ=١٤٥١-١٥٠٤م) ورجال البلاط والحاشية بأن ما اكتشفه هو الهند بعينها، وأنه في رحلته القادمة سيصل بالتأكيد إلى الخان الأعظم (لقب ملوك الهند والصين) في ذلك الوقت، بل إنه لم يتورع عن تزييف الخرائط وتغيير مذكراته اليومية، وأمعن أكثر في الكذب في إجبار ملاحية على (الاعتراف) بأن هذه الأرض التي وصلوها هي الهند.[٣٢]

أما الذين كانوا يستمعون إلى دفاعه عن (الهند)، فقد كانوا يسألون ساخرين : إذا كانت هذه هي الهند حقاً، فأين الفلفل والقرفة والزنجبيل؟ وأين الذهب والحرير واللآلئ؟ ولا مجيب! ولم تمض سنوات قليلة على رحلة كولومبوس الأولى (٨٩٨هـ = ١٤٩٢م) حتى وصل فاسكو دي غاما Vasco da Gama بمساعدة عربية إلى الهند المطلوبة (٩٠٤هـ = ١٤٩٨م)، والمتهم فيها ظلماً الملاح العربي العظيم، أحمد بن ماجد – سيأتي الحديث عن الموضوع لاحقاً – وعاد بقناطير مقنطرة من التوابل، أي بدليل مفحم، بأنه وصل إلى الهند، وعاد بهذه الخيرات الوفيرة، وعندما سادت مشاعر الخيبة والإحباط فرديناند وزوجته إيزابلا، وأدركا أن هذا الشيء الذي اكتشفه كولومبوس ليس في نهاية الأمر إلاّ الهند التي يدَّعي كولومبوس اكتشافها![٣٣]

لكن سرعان ما بدأ موضوع هذه الأراضي الجديدة يشغل بال التجار والمغامرين، وبدأ العالم القديم في أوربا بخاصة سباقاً محموماً، لتأكيد الاكتشاف الجديد،

وتحديد هويته الجغرافية، فاضطلع مغامر جديد القيام برحلات استكشافية هدفها التعـرف على هوية الأراضي الجديدة بالتحديد، ونعنـــي بـــه أمريكـــو فسبوتشـــي Americo Vespucci (٨٥٥-٩١٨هـ= ١٤٥١-١٥١٢م) وكان من مشاهير تجـــار البندقيـــة، وكانت تجارته تقتصر على بيع أدوات الملاحة التي كانت مزدهرة في عصره، وكـــان له مع تجارته الناجحة، كلمة مسموعة في بلاط دي مديتشـــي Di Medici- عائلـــة إيطالية عريقة، حكمت فلورنسا في إيطاليا منذ القرن (٨هـ = ١٤م) - فقـــد اســـتطاع بفضل المعلومات الكثيرة التي جمعها بحكم اتصاله التجاري مع رجال البحر أن يقـــوم برحلات عدة إلى الأرض الجديدة لحساب إسبانيا والبرتغال.

حين لم يجد أي تشابه بين الشواطئ التي اكتشفها، والشـــواطئ الهنديـــة والتـــي أصبح عند الأوربيين معلومات وفيرة عنها، بفضـــل الرحالـــة والجغرافييـــن العـــرب والمسلمين في المقام الأول، توصل أميركو عندئذ إلى قناعة، بأنه أمام قارة جديدة، غير متصلة بالعالم القديم، وهي ليست بالتأكيد قسماً من البر الآسيوي، (الهند)، كمـــا كـــان يعتقد، وطلب - في البداية - أميركو فسبوتشي، في كتابـــه، العالم الجديد، أن تســـمى هذه الأراضي الجديدة (أمريجا) أو (أمريكا) باسمه، بدلا من الاسم القديم الذي اشـــتهرت به بعد اكتشاف كولومبوس (الهند الغربية) وقد أبدى العالم فالدسي موللـــــر الالزاســـي Waldsee Muller- نسبة للالزاس واللورين- على حدود ألمانيـــا مع فرنســـا، وقـــد دخلتهما العلوم العربية في القرن (٤هـ = ١٠م) - حماساً كبيراً في تأييد وجهة نظـــر فسبوتشي، وقوبل اقتراحه باستحسان أهل أوربا، ليصبح منذ ذلك الحين يعرف العـــالم الجديد باسم (أمريكا) (قارة أمريكا) تكريماً وتيمناً باسم مـــن أكـــد هويـــة الاكتشـــاف الجديد.[٣٤]

ونتابع في الفقرة التالية الإبحار في هذا الميدان الحضاري، وإبراز المزيـــد مـــن الأدلة والشواهد الحية، التي تنطق بحقوقنا وأسبقيتنا التاريخية في الكشف عـــن العـــالم المجهول، الذي ترتب على اكتشافه تغيير هائل في كل مناحي الحيـــاة علـــى كوكبنـــا. ولننتقل الآن لمعرفة مدى عمق أثر فكرنا العلمي الجغرافي في شـــخصية كولومبـــوس (رائد هذه الكشوف في عيون العالم).

هوامش الفصل الثاني

١. انظر الخطيب (الشيخ) المرجع السابـق، ص٧، ٥٩-٦٣. انظر أيضا زكريا هاشم زكريـا، فضل الحضارة الإسلاميـة على العالم، دار نهضة مصر، القاهـرة، ١٩٧٠م، ص٥١١ ومـا بعدها. عون الشريف قاسم، في معركة التراث، دار القلم، بيروت، ١٩٨٠م، ص٥٠ وما بعدهـا. A.S. Tritton, Materials on Muslim Education in the Middle Ages, Luzac and Co. ltd., London 1959, pp. 166 ff.

٢. انظر زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب- أثر الحضارة العربية في أوربـا - ص٢، نقله عن الألمانية فاروق بيضون وكمال دسوقي، المكتب التجاري للطباعـة، بـيروت، ١٩٦٩م، ص٢٤٣. انظر أيضا الخطيب (الشيخ) ص٥٩ وما بعدها.

٣. انظر الخطيب (الشيخ) المرجع السابـق، ص٣٩. أيضـا مـاهر حمـادة، المكتبـات فـي الإسلام، نشأتها وتطورها ومصائرها، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٨م، ص٢١٠. وقارن .CF Mehdi Nakosteen, History of Islamic Origin of Western Education, A.D. 800-1350, University of Colorado, Press, Baulder, Colorado (n.d.) pp.69-74.

٤. الخطيب (الشيخ) المرجع السابق، ص٣٩. وانظر كذلك توفيق الطويل، في تراثنـا العربـي الإسلامي، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطنـي للثقافـة والفنـون والآداب، الكويت، ١٩٨٥م، ص٨٨. فراج، المرجع السابق، ص٤٣ وما بعدها.

٥. انظر هونكة، المرجع السابق، ص٣٧٨. وقارن حكمت نجيب عبد الرحمن، دراسـات فـي تاريخ العلوم عند العرب، جامعة الموصل،١٩٧٧م، ص١٥. أيضـا Bayardodge Muslim: Education in Medieval Times, The Middle East Institute, Washington D.C.1982, pp. 16-19.

٦. انظر الدواليبي، المرجع السابق، ص٧٠-٧١. كذلك انظـر فـروخ، المرجـع السـابق، ص١١١-١٣٠. انظر هنا ص١٤.

٧. انظر هونكة، المرجع السابق، ص٣٠٥-٣٠٦. فروخ، المرجـع السابق، ص١١٤، للمزيـد عن أبعاد التأثيرات العربية في الفكر الغربي خلال العصور الوسطى انظر كتـاب Dorothee Metlitzki, The Matter of Araby in Medieval England, Yale University press, New Haven, Conn., U.S.A. 1994. انظر أيضا: وقارن cf. Dodge op. cit. P.17. Also George Makdisi, The = = Rise Colleges Institutions of Learning in Islam and the West, Edinburgh University Press, Edinburgh, 1981, p. 125.

٨. انظر هونكة، المرجع السابق، ص٣٩٣. كذلك الخطيب (الشيخ) المرجـع السـابق، ص٦٣.

٩. انظر فوزي، المرجع السابق، ص٢٠٧. أيضـا : الدفاع، المرجع السـابق، ص ٢٤ ، ٤١ ، ٤٥. كذلك انظر ، M. Nakosteen, op.cit. pp.235-239.

١٠. انظر الإمام الشافعي (ديوان) جمعه وعلق عليه محمد عفيف الزعبي، مؤسسة الزعبي ودار الجيل، بيروت، ١٩٧٤م، ص٢٦-٢٧. وقارن كذلك زكريا، المرجع السابق، ص٥٣٠-٥٤٤. انظر هنا ص ٥٣٠.

١١. انظر هونكة، المرجع السابق، ص٤١٦-٤٢٠. كذلك انظر سعيد عبد الفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى- النهضات والحضارة والنظم - ج٢، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٠م، ص٥١١. فراج، المرجع السابق، ص١١٦ وما بعدها. فوزي، المرجع السابق، ص٣١٩، نقلاً عن I. Kratchkoviski: Istoria Arabskoi Geogaraficheskoi (1957. وانظر طبعته العربية : أغناطيوس يوليا نوفيتش كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ،١٩٦٣م. وقارن: M. Nakosteen, op. cit., pp. 170-171.

١٢. انظر هونكة، المرجع السابق، ص٤١٧ عن التاجر العربي سليمان، انظر المصدر نفسه. أيضا حوراني، المرجع السابق، ص٢٠٣ ،٢١٢ ،٢١٤- ٢١٦،شمس الدين أبو عبد الله محمد (المقدسي) (ت ٣٩١هـ= ١٠٠٠م) " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم " نشره وترجمه ميخائيل دوخوية، ليدن نيسان (إبريل) ١٨٧٧م.

١٣. انظر هونكة، المرجع السابق، ص٤٢٠.

١٤. انظر الدفاع، المرجع السابق، ص٤٢-٤٣، نقلاً عن جورج كمبل، علم الجغرافيا في العصور الوسطى. انظر هنا ص٤٣. كذلك انظر هونكة، المرجع السابق، ص٤١٨-٤١٩. وقارن أحمد شوقي الفنجري، " فضل علماء المسلمين على العلم الحديث "، في الخفجي (مجلة) عدد نيسان (أبريل) ١٩٨٧م، ص٣٠-٣٣.

١٥. انظر الدفاع، المرجع السابق، ص٤٤ ، ٤٦. انظر الترجمة الفرنسية لكتاب الأمير عماد الدين إسماعيل أبي الفداء الأيوبي الملقب بالملك المؤيد، ترجمه ونشره المستشرق الفرنسي جوزيف توسان رينو : Joseph-Toussaint Reinnaud, Geographic D, Aboul Feda: T.I. "Introduction a la Geographic des Orientaux" Paristaux, Paris 1848 .

١٦. انظر عاشور ، المرجع السابق ، ص٥١٢. وللمزيد من المعلومات عن بيت الإبرة ، ومن أسبق الأمم إلى اختراع البوصلة، انظر ماجد، المرجع السابق، ص٧٩-٨٠. عبد العليم ، المرجع السابق، ص١٨١-٢٠٧؛ حكمت عبد الرحمن، المرجع السابق، ص٣٢١-٣٢٢؛ يعقوب، المرجع السابق،ص ويصف المقريزي (تقي الدين) (ت ٨٤٥هـ=١٤٤١م) في كتابه المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار (الخطط) الإبرة بأنها قطعة من المعدن مطروقة على شكل سمكة تطفو فوق الماء، فعندما تستقر السمكة يشير فيها إلى الجنوب. للخطط ترجمة بالفرنسية:

Makrizi, Topographic ed., Weit, in Memoires de Institute Francais 5 Tomes, Le Caire, 1911-1928. قارن هنـــا: فوزي، المرجع السابق، ص٣١٥. يعقوب، المرجع السابق، ص٢٩-٣٠. انظر الترجمة الفرنسـيـة لكتـاب ابـن خرداذبة (ت : المسالك والممالك، نشر وترجمة ميخـائيل دوخويـه (M. De George) ليـدن ١٨٨٩م. Liber Vairum et Regnorum, Auctore Abuul Kasim Obaidallah Ibn. et Glassario Instruxi M. de Goeje Leyden, 1889. ، حققه أيضا محمد جابر الحينـي، وزارة الثقافـة والإرشاد القومي، القاهرة، ١٩٦١م.

١٧. انظر حكمت عبد الرحمن، المرجع السابق، ص٣٢١-٣٢٢. وقارن يعقوب، المرجع السـابق، ص٣٠-٣١. يعد جيرارد الكريموني (نسبة إلى مدينة كريمونا في إيطاليـا) واحـد مـن أقـدم المستشرقين، رحل إلى طليطلة (توليدو) وأقام فيها ليدرس العربية والعلوم، نقل إلى اللاتينية فلسفة الكندي والمجسطي (Almajest) (كتاب في الفلك ألفه بطليموس ١٤٨م) مؤلف من (١٣ مقالـة) ومعناه الأكبر، أول من عنى بإخراجه إلى العربية يحيى بن خالد بن برمك (ت ١٩٠هـ=٨٠٥م) عربه عن اليونانية حنين بن إسحاق (ت ٢٦٠هـ=٨٧٣م). فانسون دوبوفيه من علماء الطبيعـة المعدودين في العصور الوسطى. البرتوس ماجنوس (ت ، راهب ألماني (دومينيكـان = الأخـوة الواعظون) كان أستاذاً للفلسفة واللاهوت في جامعتي باريس وكولونيا، من تلاميذه القديس تومـا الأكويني (ت ٦٧٣هـ = ١٢٧٤م).

١٨. انظر عاشور، المرجع السابق، ص٥١٢. أيضا هونكة، المرجع السـابق، ص٥٢. فـراج، المرجع السابق، ص١٠٢ وما بعدها. إبراهيم كايد محمود، المرجع السابق، ص٧١-٧٢.

١٩. انظر ماجد، المرجع السابق، ص٨٠.

٢٠. انظر هونكة، المرجع السابق، ص٤٠١-٤٠٢.

٢١. انظر قلعجي، المرجع السابق، ص٥٥.

٢٢. انظر فراج، المرجع السابق، ص١٤١-١٤٥.

٢٣. انظر عبد الحليم عويس، "جهود إسلامية في اكتشاف العالم الجديد " في الخفجي، (مجلة) عدد أيار (مايو) ١٩٨٩م، ص٤-٧. انظر هنا: ص٧. كذلك الدفاع، المرجع السابق، ص٤٣.

٢٤. انظر ماجد، المرجع السابق، ص٨٨٢، كتاب ابن فضل الله العمري (ت ، مسالك الإبصار في ممالك الأمصار، حققه أحمد زكي، وطبعته دار الكتب المصريـة، القـاهرة، ١٩٢٤م . انظـر أيضا: الكسان، المرجع السابق، ص٤١ .

٢٥. انظر الشرق الأوسط (جريدة) العدد ٤٨٦٥، ٢٤ آذار (مارس) ١٩٩٢م=١٤١٢هـ، ص٢٠. أيضا قلعجي، المرجع السابق، ص٥٥.

٢٦. انظر حسني عبد الحافظ، المرجع السابق، ص١٧-١٨. عن الملك المالي (أبو بكر الثاني) ورحلته، انظر نفس المرجع، ص١٧. كذلك انظر وقارن حوراني، المرجع السابق، ص٩٨. موسوعة المعرفة العالمية، المرجع السابق، م١، ١٢٥، ص١٤٠-١٤١، وعن الرحلة تجدها مفصلة في كتاب حاضر العالم الإسلامي.

٢٧. انظر خالد المبارك، " اكتشاف ثقافي جديد: الأثر اللغوي العربي في سيراليون " في الحياة (جريدة) العدد ١٠٦٩٢، ١٨ أيار (مايو) (١٩٩٢م، ص١ و ٤. مقالة بيرتن كرين (جرين) جاءت نقلاً عن مجلة المقتطف القاهرية، ١٩٢٦م.

٢٨. انظر قلعجي، المرجع السابق، ص٥٥-٥٦. كذلك عويس، المرجع السابق، ص٧. وقارن عفيف البهنسي، " تراثنا الغريب في متاحف العالم ". في المنهل (مجلة) العدد السنوي المتخصص (الأثر والآثار) ٤٥٤، أيار (مايو) حزيران (يونيو) ١٩٨٧م، ص٧٦-٨٥. أيضا خالد المبارك، المرجع السابق، ص١.

٢٩. انظر إحسان جعفر، المرجع السابق، ص٩٩.

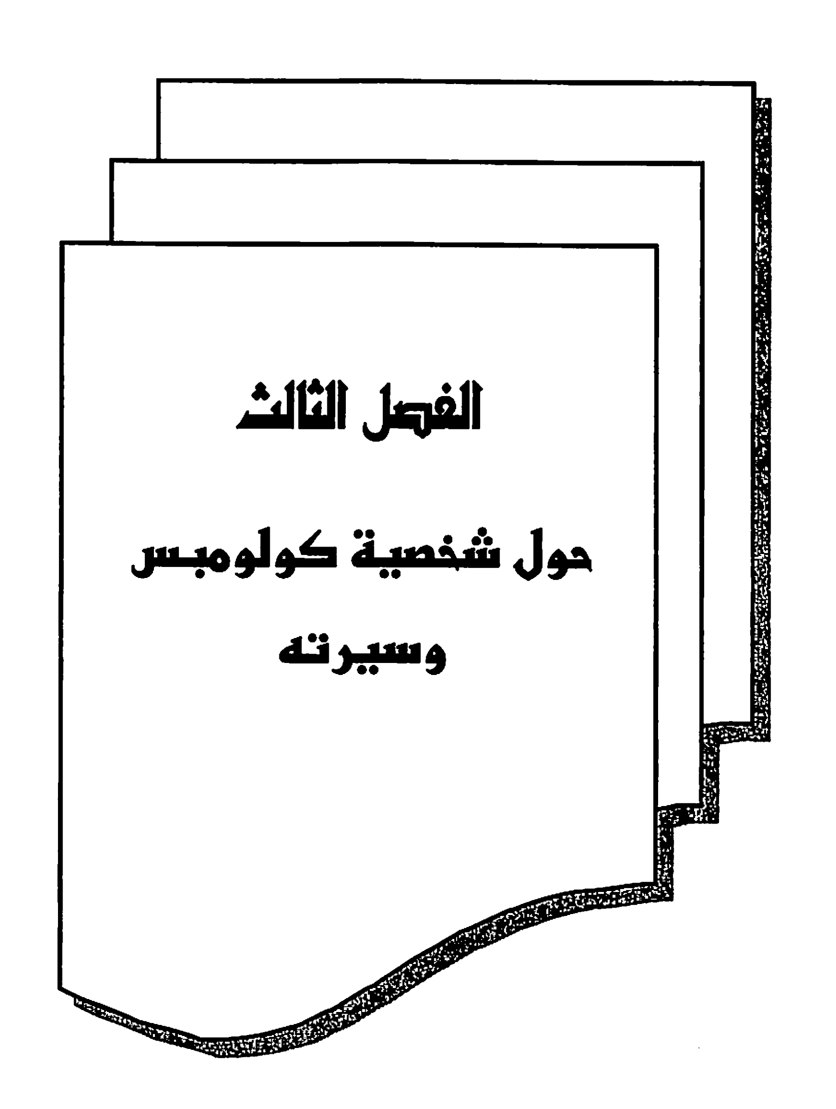
٣٠. انظرللخريدة ثلاث نسخ أصلية (مخطوطة) محفوظة في مكتبة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض وتحمل الأرقام ٦١٠٩، ٤٥٦٣، ٢٢٤٥، وتواريخ نسخها على التوالي (٩٩٨هـ = ١٥٨٩م) (١٠١٦هـ = ١٦٠٧م) (١٢٧٧هـ =١٨٦٠م). كما توجد في مكتبة المركز سبع عشرة نسخة مصورة لهذا الكتاب. انظر الفيصل (مجلة) العدد ١٧٩، ص٩٩، وهناك أيضا نسخة مطبوعة، (تحرير تورنبرغ) أبسالا (١٢٥١-١٢٥٥هـ = ١٨٣٥-١٨٣٩م) القاهرة، المطبعة الوهبية، (١٢٩٦هـ = ١٨٧٨م) وقامت بطبعه أيضا المطبعة الشرفية، القاهرة، ١٨٩٦م.

٣١. انظر إحسان جعفر، المرجع السابق، ص٩٦-٩. وانظر كذلك عباس حمداني، "قارب عربي أوصل كولومبوس إلى أمريكا،" في المجال، (مجلة) العدد٢٦٠ و ٢٦١ ، ص٦-٩ .

٣٢. انظر مصطفى مرجان، " ١٤٩٢-١٩٩٢...كريستوفر كولومبوس...أمريكا – إسهام الملاحة العربية في الكشف عن القارة الأمريكية " في الحياة (جريدة) العددين ١٠٦٥٥ و١٠٦٥٦، ١١ و ١٢ نيسان (إبريل) ١٩٩٢م، ص٨ في العددين.

٣٣. انظر المرجع السابق، العدد ١٠٦٥٦، ص٨. وقارن عبد الفتاح أبو علية، تاريخ الأمريكيتين والتكوين السياسي للولايات المتحدة الأمريكية، دار المريخ، الرياض، ١٩٨٧م، ص١٢.

٣٤. انظر نغنعي، المرجع السابق، ص١٨ وما بعدها.



الفصل الثالث

حول شخصية كولومبس وسيرته

الفصل الثالث

حول شخصية كولومبوس وسيرته

لا أظن أننا بحاجة – في هذا المقام – أن نقـدم ترجمـة كاملـة عـن حيـاة كريستوفر كولومبوس، فما كتب عنه حتى الآن، تضيق بحصره فهارس المكتبات فـي العالم، إذ يربو عددها عن ربع مليون كتاب، وهذا السيل العرم من الكتب يـهدف إلـى حجب الحقيقة التي لا يمكن طمسها، فوجه الحقيقة ما عليه نقاب، وهي بالتالي تتخذ مـن كولومبوس قناعاً، بهدف مصادرة حقوق العرب وفضلهم في هذه الكشوف التاريخيـة، أو حتى الحيلولة دون إبراز دورنا كشريك أصيل معهم في هـذا الإنجـاز الحضـاري العظيم!؟ ثم ليسمح لنا الغرب هنا أن نتساءل. ماذا يميز كولومبـوس عن غـيره مـن المكتشفين السابقين من العرب والمسلمين حتى يجير لحسابه (حساب الغرب) كل هـذا النصر الكبير، فنحن أكثر تميزاً من كولومبوس ورواد الكشوف الأوربية في أكثر مـن جانب.

كان كولومبوس بحاراً إيطالياً ذائع الصيت، ولد وترعرع فـي مدينـة جنـوى Genoa العريقة بتقاليدها البحرية، ويعزى إليها الفضل في إنجاب معظم رواد عصـو الاكتشافات وفي مقدمتهم كولومبوس نفسه، وأميركوفسبوتشي، وجيوفاني كابوت Cabot(٨٥٤-٩٠٤هـ = ١٤٥٠-١٤٩٨م) وابنـه سبسـتيان (٨٨١-٩٦٥هـ = ١٤٧٦-١٥٥٧م) وعلى الرغم من كثرة ما كتب عن كولومبوس إلى الحد الذي يحـاكي الأساطير، إلا أن العالم ما زال يجهل الكثير عن حياته الخاصة، لكن بفضل الدراسـات الحديثة الموضوعية، انكشف الكثير من هذه الأسرار.

بفضل وثائق بلدية مدينة جنوى الإيطالية، عرفنا أنه من مواليـد هـذه المدينـة سنـة (٨٥٥هـ=١٤٥١م) وأنه ينتمي إلى أسرة متواضعة، فقيرة الحال، وأن أباه كـان نساجاً في هذه المدينة الثرية، لكن هذا الثراء لم يغير من أحوال هـذه الأسـرة سـيئة الطالع، مما اضطر كولومبوس الصغير إلى العمل في خدمة أبيه منذ نعومة أظفـاره، فتعلم حياكة الصوف، لكن يبدو أن الضغوط الاقتصادية كانت أكـبر مـن أن تصمـد

الأسرة أمامها، فاضطر الأب إلى بيع ممتلكاته، ورهن منزله في سنة (٨٧٧هـ=١٤٧٢م)، وتحت وطأة هذه الظروف المادية القاسية، أخذ كولومبوس (الابن) يبحث عن لقمة العيش، خارج عمل الأسرة التقليدي (النسيج) و (الحياكة)، ولم يكن أمامه في ذلك العصر- لاكتساب المال والشهرة - سوى ثلاثة خيارات لا رابع لها، الالتحاق بالجندية، أو الكنيسة (الرهبنة)، أو البحر، وقد جرب حظه في الأولى والثانية، ولم يفلح، فلم يبق أمامه سوى الخيار الأخير (البحر) حيث كان ملاذه وأمله الوحيد لتحقيق أحلامه في الثراء السريع والنجومية والشهرة.(١)

مع أن كولومبوس لم يتلق علومه في مدارس التعليم الرسمي، إلا أنه اعتمد طوال حياته على مدرسة الحياة وحدها، فدرّس نفسه شيئاً من اللاتينية، والرياضيات، وعلم الفلك، ورسم الخرائط، وتقول الوثائق عن خبرة كولومبوس في البحر بأنها بدأت، وهو بعد في الرابعة عشرة من عمره، حيث أصبح في هذا السن يعمل بحاراً على ظهر السفن التجارية، ثم ما لبث سنة (٨٨٥هـ=١٤٨٠م) - على الأرجح- أن قصد بلاد الأندلس (لشبونة) عاصمة البرتغال اليوم، حيث كان قد سبقه إلى هناك للاستقرار فيها، شقيقه بارثلميو Bartholomeo ، الذي امتهن رسم الخرائط وبيع الكتب، بالإضافة إلى وجود عدد كبير من أهله وعشيرته الأقربين.

من المعروف أن طبيعة حضارة جنوى في ذلك الوقت، كانت تعتمد على التجارة دون سواها، وبدون أن تكون لجنوى أي سلطة مركزية سياسية قوية، ولا مستعمرات - وكانت أشبه ما تكون بلغة العصر الحالي، بسوق حرة - كما كانت تقوم أساساً على خدمة المصالح الخاصة، وليس الصالح العام للسلطة، أو مجموع الشعب، لذا كان يضطر أهل جنوى لقبول حماية الأمراء الأجانب، وإدارة أموالهم وتجارتهم.(٢)

لم يشذ كولومبوس ابن جنوى عن هذه القاعدة، فطفق يبحث عن هذه الحماية التي وجدها في نهاية المطاف، عند ملوك إسبانيا، الذين يملكون آنذاك كل ما يصبو إليه كولومبوس من مال ورجال للشروع في خطته لاقتحام المجهول وراء المحيط. ومما يجدر ذكره في هذا السياق، أن كولومبوس قبل أن يقف على أعتاب ملك إسبانيا فرديناند، وزوجته الملكة إيزابلا - اللذين كانا قد فرغا في التو من حربهم مع

المسلمين، بسقوط غر ناطة (٨٩٨هـ = ١٤٩٢م) آخر معاقل المسلمين في إسبانيا (الأندلس)- ليبيعهم خططه الاستكشافية المنتظرة التي كان قد عرضها بإلحاح على ملك البرتغال حنا (خوان) الثاني Juan II (ت ٩٠١هـ = ١٤٩٥م) أثناء وجوده فيها، لكنها قوبلت بالرفض مع إبداء عدم ثقة البلاط بمصداقيته (هذا إلى جانب أن الملك كان يعتقد أن مغامرة كولومبوس كانت خيالية، وبالتالي لا يجد ضرورة للبحث عن طرق جديدة، ما دام البرتغاليون قد ساروا شوطاً بعيداً في اكتشاف طريق جديد إلى الهند بالدوران حول أفريقيا أو لعله كان يرفض أن يعطي كولومبوس امتيازات ليست إلا من حق البرتغاليين).

لكن الحظ حالفه من جهة أخرى بالتعرف - بواسطة شقيقه بارثليمو - على نخبة من شخصيات مهمة فاعلة في الأوساط البحرية، وصناعة السفن، ولها اهتمامات واسعة بالدراسات الجغرافية والفلكية، ورافقه حسن الطالع، بزواجه من البرتغالية دونا فيلبا مونير بيريسيريللو Dona Felva. Biricerelo سنة (٨٨٤هـ= ١٤٧٩م) وكان هذا الزواج علامة فارقة في تاريخ كولومبوس ومشروعه الحلم، إذ اكتشف عند حميه (والد زوجته) مكتبة جغرافية نفيسة، فانكب على دراسة ما فيها من مخطوطات وخرائط، بعد أن وفرت له زوجته المناخ الضروري للإفادة من كل وقته في العاصمة البرتغالية للوصول إلى الذخيرة اللازمة لمشروعه في الإبحار غرباً.

حتى ذلك الوقت، لم تكن أفكار كولومبوس قد تبلورت، ورؤيته قد اتضحت حول مسألة (كروية الأرض)، حيث كان ما زال يظن بأنها مسطحة، لكن تجربته في لشبونة أدت إلى نضوج أفكاره، مما جعلته يقتنع تدريجياً بصحة نظرية كروية الأرض، وعندها بدأ يفكر أكثر من أي وقت مضى من التأكيد من صحة النظرية بالوصول إلى الهند عن طريق الإبحار غرباً، لكن - كما رأينا - ارتطمت طموحاته بجدار الملك حنا الثاني، ملك البرتغال، وزاد الطين بلة وفاة زوجته الوفية سنة (٨٨٨هـ = ١٤٨٣م)، لذلك قرر فجأة مغادرة لشبونة نهائياً سنة (٨٩٠هـ = ١٤٨٥م)، وطبقاً لتقاليد ذلك العصر، كان عليه أن يطلب الدعم والحماية من ملك أو أمير، لأنه كبحار يمكن له أن يكتشف العالم، ولكنه لا يستطيع أن يضم أو يمتلك أي شيء إلا بغرض فرض سيادة

السلطة التي أرسلته، ليحظى في نهاية الأمر بدعم وحماية الملك فرديناند وزوجته الملكة إيزابلا، والموافقة على مشروعه مع الشروط التي وضعها في حال الكشف والاستعمار، وتم توقيع الاتفاق في (٣٠ نيسان (إبريل) ٨٩٨هـ= ١٤٩٢م).(٣)

من المعروف أن كولومبوس قام بأربع رحلات إلى الأرض الجديدة، لكنه ظل حتى آخر لحظة في حياته يعتقد أنها (الهند)، أو ربما الصين أو اليابان! فكانت رحلته الأولى في (الثالث من آب (أغسطس) ٨٩٨هـ= ١٤٩٢م) مبحراً من ميناء بالوس Balus الأسباني، برفقة ٨٨ بحاراً على ظهر ثلاث سفن، سانتا ماريا Santa Maria وبنتا Pinta، ونينا Nina، ليصل بسفنه الثلاث بعد رحلة مضنية، في الساعة الثالثة صباحاً من يوم (١٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١٤٩٢م = ٨٩٨هـ) – حسب ما يرجح العلماء – إلى إحدى جزر (البهاما) Bahamas، (٤) لكنه ما زال أمام كولومبوس– كما رأينا – وقت طويل ليدرك أنه وصل إلى قارة جديدة بأكملها.

وقد أدت نتائج هذه الرحلة على تواضعها إلى وضع أوربا في سباق ماراثوني، وصراع استعماري على الأرض الجديدة، لا يعرف ضوابط أخلاقية، أو رحمة. أما عن رحلة كولومبوس الثانية، فكانت في السنة التالية في شهر (أيلول (سبتمبر) ١٤٩٣م = ٨٩٩هـ) لكنه في هذه المرة أبحر في ١٧ سفينة (١٥٠٠ بحار) ليصل إلى مواقع (جزر) جديدة في أمريكا الجنوبية، أطلق على واحد منها، (دومينيكا). تيمناً باسم والده (دومينيك) (وهي جمهورية دومينيكان اليوم ,Domincan Republic ، وأسس في جزيرة (هايتي) Haiti، أول دولة على النمط الأوربي في العالم الجديد، أطلق عليها اسم إيزابلا، تيمناً باسم ملكة إسبانيا إيزبيلا Isabella.

في رحلته الثالثة، في سنة (٩٠٤هـ = ١٤٩٨م) وصل إلى جزيرة ترينيداد Trinidad، وفي (أيار (مايو) ١٥٠٢م = ٩٠٨هـ) أبحر كولومبوس من ميناء قادس (على الساحل الجنوبي لإسبانيا في شمال غرب جبل طارق) في رحلته الرابعة والأخيرة، وقد اصطحب فيها ابنه الوحيد، دييجو Diego، وكان قد بلغ الثالثة عشرة من عمره، ليصل في صبيحة (يوم ١٥ حزيران (يونيو) ١٥٠٢م=٩٠٨هـ) جزر (المارتينيك) Martinique ، ليطوي بذلك آخر صفحة من صفحات مغامراته

الاستكشافية البحرية، التي جرّت عليه الويلات، حيث كثر حاسدوه والناقمون عليه في البلاط الأسباني، فأوغروا صدر ملك إسبانيا عليه، وعرّضوا سمعته للتشويه، خصوصاً بعد أن أخفق في إثبات كشوفه في الزمان والمكان الصحيحين – مدعياً بإصرار أنها الهند – حيث استطاع أحد أعدائه الألداء، فرانشيسكو دي بابادِيلا F. de Bovadilla أن يتمكن منه، بتأليب الملك فرديناند عليه، والحصول منه على فرمان يخوله صلاحيات مراقبة تصرفات كولومبوس ونشاطه، واستغل بابادِيلا تمرداً في المستعمرة الجديدة، التي أنشأها كولومبوس على أرض هايتي، ليعزل كولومبوس، مجرداً إياه من منصب نائب الملك في الأراضي المكتشفة، ومن ثم اعتقاله وإرساله إلى إسبانيا مكبلاً بأغلال.

اتخذ بابادِيلا، كل هذه القرارات، بوصفه رئيساً للجنة التحقيق التي عينها فرديناند لتقصي الحقائق في المستعمرة، ومع أن فرديناند عفا عن كولومبوس، لكنه في الوقت نفسه تنكر لجميع الاتفاقيات السابقة بينهما، في هذه الأثناء، كانت راعيته الملكة الإسبانية (إيزابلا) قد فارقت الحياة (٩١٠هـ = ١٥٠٤م)، وقد قضى كولومبوس ما تبقى له من سنوات حياته الأخيرة مذموماً معزولاً فقيراً معدماً، وظل على هذه الحالة المزرية، حتى وفاته وحيداً في حانة فالادوليد Valladolid البائسة في اليوم العشرين من شهر أيار (مايو) سنة (٩١٢هـ = ١٥٠٦م) في الستين من عمره.(٥)

يبدو أن لعنة الكشوف لحقت كولومبوس في قبره، ففي الوقت الذي يرى فيه بعض الناس كولومبوس بطلاً تاريخياً باكتشافه نصف العالم المجهول، التي قادت الهجرات الأوربية إلى هذا العالم لتصل إلى ما وصلت إليه، نجد هناك من الناس من يرى عكس ذلك تماماً، وخصوصاً أهل البلاد الأصليين، التي غزاها كولومبوس وقهر أجدادهم، وتتصدر من وقت إلى آخر، سيرته الملعونة عناوين الصحف وصفحاتها الأولى، كواحد من صانعي مسلسل القهر والعبودية. وما زالت هذه الشعوب لا تغفرله جريمته في العدوان على حريتها، وفي تحول أبنائها إلى رقيق يهدى أو يباع، إذ كان كولومبوس أول من حمل معه مجموعة من سكان البحر الكاريبي هدية إلى ولية نعمته الملكة إيزابلا.(٦)

ولا تمل وكالات الأنباء والصحافة العالمية،تناقل أنباء عن محاكمة منتظرة لكريستوفر كولومبوس، (فبعد خمسمائة سنة على اكتشافه العالم الجديد ترد أمريكا جميل كولومبوس في توجيه عشرة اتهامات إليه في محاكمة يجريها مركز حقوق الإنسان في جامعة مينيسوتا Center of Human Rights in The University of Minnesota . والتهم هي: القتل، والسرقة، والسخرة، والخطف، والتعذيب، والعنف، والإبادة الجماعية، وجرائم ضد الإنسانية، والاغتصاب، والإرهاب، وضمت هيئة المحلفين ستة من الهنود الحمر، ويرى آخرون في تكريم كولومبوس إهانة لسكان أمريكا الأصليين، وقد تحدد يوم (١٦ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٢م = ١٤١٢هـ) موعداً لبدء محاكمته، هذا ومن الجدير بالذكر، أن عدد سكان أمريكا الشمالية الأصليين وحدهم عشية وصول طلائع المهاجرين الأوربيين إليها، كان يتجاوز ١٢ مليون نسمة.(٧)

يتحدث المفكر الفرنسي، كلود ليفي شتراوس Strauss . عن هذه الفظائع التي ارتكبها الأوربيون في الأرض الجديدة، فيقول: (حين وصل البيض إلى الدنيا الجديدة تبين لهم أن (الهنود) ينتظرونهم، وأنهم يفتحون أذرعهم مرحبين بهم، فماذا كان رد البيض؟) المذابح وتدمير كل شيء، خصوصاً كل جميل ورائع، لقد دمروا، ونهبوا، ثم وقفوا يزعمون أنهم إنما وصلوا إلى أرض يباب لا حضارة فيها ولا حياة !!؟ ويتهم شتراوس الحضارة الغربية بأنها تجاهلت سكان العالم الجديد الأصليين، وحاولت اجتثاث كل ما يبرهن على وجودهم، وختم حديثه بالقول: "إن حضارة الغرب اعتقدت أن نفيها للآخر، هو وسيلتها الوحيدة لتوكيد ذاتها، فإذا بها تدمر ذاتها عبر تدميرها للآخر".(٨)

بمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية الخامسة لاكتشاف أمريكا، والتي تحتضنها مدينة إشبيلية (الأندلسية) في إسبانيا، قامت العديد من الجمعيات والمؤسسات الثقافية والتاريخية والأثنية، التي غالباً ما ينضوي تحتها السكان الأصليون للقارة الأمريكية بتجمعات ومسيرات في مختلف المدن والقرى الأمريكية اللاتينية، احتجاجاً على الآثار السلبية لهذا (الاكتشاف)، والإعلان عن معارضتها ومقاطعتها وتنديدها بهذه الاحتفالات، واعتبار هذا التاريخ حداداً على مقتل كثير من الهنود على أيدي الأوربيين

(المستكشفين)، وطمس معالم حضارتهم وثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم، بل لقد كتبت دراسات متعددة مستفيضة في هذا الشأن من كتاب ومفكرين مرموقين لإبراز الجانب السيئ والمظلم لهذه الاحتفالات لتسليطها الأضواء فقط على جانب دون الآخر، أي أنها احتفالات تشيد، وتمجد الغالب، وتتجاهل، أو تتنكر للمغلوب.

كما صدرت بيانات متعددة عن هذه المؤسسات، تدين، وتندد بفكرة هذا الاحتفال، وتدعو الحكومات في أمريكا اللاتينية إلى عدم المشاركة فيه. وقد عملت منظمة اليونسكو العالمية (United Nations Organization Educational, (Unesco Scientific and Cultural على تقديم تفسير لهذا الحدث التاريخي، فأشارت إلى وصول كريستوفر كولومبوس إلى العالم الجديد سنة (٨٩٨هـ= ١٤٩٢م) إنما هو (لقاء بين عالمين)، وليس اكتشافاً جديداً، وعليه فإن مشاركة هذه المنظمة في هذه الاحتفالات سينحصر في اعتبار هذا الأمر (حدثاً تاريخياً) مهماً ليس إلا، ويعد الباحث والمؤرخ الفنزويلي د. الكسيس كاليمان جونساليس A.Gonzalez أن ما قامت به إسبانيا، وأطلقت عليه اكتشافاً، إنما هو غزو لهذه الأراضي، وإتلاف وتحطيم لجميع أشكال الحياة وأنماطها، التي كان لها وجود من قبل متجاهلة ٣٠ أو ٤٠ ألف سنة من التطور المتواتر والطبيعي للمجتمعات الأصلية التي كانت تقطن هذه القارة.

يرى د. جونساليس أنه لا أحد يكتشف الآخر، وليس هناك مجتمعات ضائعة أو مغطاة، ويتساءل : من ذا الذي اكتشف أوربا وآسيا؟ لماذا كانت القارة الأمريكية هي القارة الوحيدة التي تم اكتشافها؟ وحسب رأي الشاعر بابلو نيرودا Pablo Neruda أنه إذا لم يكن في إمكان كولومبوس اكتشاف إسبانيا، ذلك لأنه كان هناك أناس يعيشون ويقطنون، فلماذا القارة الأمريكية بالذات؟ ويشير إلى أنه في إحدى المناطق في أمريكا اللاتينية سنة (٩٣٢هـ= ١٥٢٥م)، كان لها من السكان ما يفوق أي عاصمة أوربية، من بينهم مهندسون، ومعماريون بارعون، ورسامون، وصاغة حاذقون، وأطباء، وفلكيون، ومنتجون فلاحون، وشعراء، ونحاتون، وكان لديهم شكل من أشكال الكتابة والمعرفة، وبراعة في علم العدد والحساب، ويختتم جونساليس عرضه مشيراً إلى أنه قد حان الوقت لإغراق المراكب الثلاثة، التي أوصلت كولومبوس إلى الشطآن

الأمريكية سنة (٨٩٨هـ=١٤٩٢م)، إغراقها بكل ما تحمله من أيديولوجيات الهيمنة والتعالي والتفوق لرجال أمام آخرين، لقد آن الأوان للعودة إلى (١١ تشرين أول (أكتوبر) ١٤٩٢م= ٨٩٨هـ)، وليس إلى (١٢ تشرين أول (أكتوبر) من السنة نفسها) الذي يصادف بداية الغزو والاستعمار.(٩)

يمكن أن يعقد المرء هنا مقارنة بين فتوحاتنا في العالم، وبين فتوح كولومبوس وأضرابه، ففي الوقت الذي نرى فيه جهات عديدة معتبرة في العالم، تطالب بمحاكمة كولومبوس على جرائمه، نجد بالمقابل محافظ مدينة المونيكار Al Monicar الإسبانية خوان كارلوس بنيفيدس J. Benavides يسعى حثيثاً إلى استعادة هويته العربية الأندلسية له ولمواطنيه، حيث يقول: "لقد اقتلعت الجيوش المسيحية جذورنا الثقافية والتاريخية، لدرجة أن مدننا الأندلسية ما زالت تحتفل الآن، ليس بمناسبة سقوطها في أيدي المسيحيين، بل بالمجازر التي قام بها المسيحيون ضد السكان المحليين، ضد أجدادهم الذين يطلق عليهم اسم المورو" للدلالة على المراكشيين، مسلمي المغرب العربي، والمسلمين بشكل عام في إسبانيا (الأندلس) وأضاف: "أنا لا أشعر إطلاقاً بأنني إسباني، فليس هناك عندي سوى الأندلس، ورغم أن بنيفيدس (جوان) مسيحي، لكنه أصر أن يقيم بجانب الصليب الذي نصبه بعض سكان المدينة المتعصبين، تمثالاً ضخماً (للملك المغربي) عبد الرحمن الداخل (١١٣-١٧٢هـ = ٧٣١-٧٨٨م) يظهر فيها (الملك الأموي) وهو شاهرٌ سيفه".(١٠)

بالجملة، نجد أن معظم المصادر الحديثة، تظهر كولومبوس كرجل غريب الأطوار، يميل إلى العزلة، ويتحاشى الناس ما أمكن، فقد جاء في كتاب بولا دي بيرنا B. de Verna الكاتبة الأمريكية المعروفة، الذي أسمته، (اكتشافات السيدة كولومبوس) – تعني زوجة كولومبوس دونا فيلبا – أن الفضل في وصول كولومبوس إلى نصف الكرة الغربي إلى زوجته (فيلبا)، التي أطلعته على وثائق علمية وجغرافية هامة، كانت في حوزة والدها، وفي الأرشيف الملكي البرتغالي آنذاك، هذا إلى جانب فضلها عليه بإيصال أفكاره إلى البلاط والجهات الناقدة من صناع القرار، وترى الكاتبة (بولا) أن زوجة كولومبوس قبل وفاتها كانت قد وضعت الأسس التي سيعتمدها زوجها

(كولومبوس) في رحلته الشهيرة، ما كان عليه إلا أن يضع الوثائق التي خلفتها الزوجة مع بعضها ليكون خطة اكتشاف أمريكا، وتختتم بولا حديثها بالقول: "وهكذا فإن التاريخ لم يعد من صنع الرجال فقط؟!"[١١]

أثر الفكر الجغرافي وعلم الملاحة العربي الإسلامي في شخصية كولومبوس بخاصة وفي الكشوف الجغرافية الحديثة بعامة

لعل من أهم نتائج الفكر الجغرافي العربي والإسلامي في أوربا، كان كشف القارة الأمريكية، وقد أيدت الكثير من الأدلة والشواهد، من أن العرب ركبوا البحر المحيط (الأطلسي)، ووطئوا بأقدامهم الأرض الجديدة قبل كولومبوس بأزمنة بعيدة، وحسبنا شاهداً ودليلاً أن تكون الفكرة التي حفزت كولومبوس للقيام باستكشافاته البحرية لغرض الوصول إلى الهند والتي أدت في النهاية إلى كشف القارة الجديدة قد جاءت من فكرة عملية مأخوذة من المؤلفات العربية والإسلامية عن كتب الجغرافية والفلك، التي قدمت الدليل على كروية الأرض، والتي لفتت بالتالي أنظار الأوربيين إلى إمكانية الوصول إلى هدفهم الهند بالإبحار غرباً. ومن شبه المؤكد أن كولومبوس ورواد الكشوف الأوربيين كانوا على دراية بأنه من شبه المستحيل تحقيق هذا الحلم دون المرور بمدرسة العرب والمسلمين الجغرافية والملاحية في إسبانيا (الأندلس)، التي ترتقي خبرتها العريقة في هذا الميدان إلى ثمانمائة سنة.

ثم ليس من المنطق أو المعقول أن دولة حكمها العرب المسلمون كل هذه القرون الطويلة أن تقوم من فورها بإعداد حملة بحرية على هذا المستوى من التجهيز العلمي وتكنولوجيا ذلك العصر، فالروح العربية والإسلامية، والطابع العربي والإسلامي، وآثارهم الباقية ما زالت كامنة في عقل الدولة، وشرايينها، ودورتها الدموية، تمثل هذا في أعداد لا تحصى من المولدين العرب المسلمين من أبناء إسبانيا والمستعمرين المسيحيين والمتأثرين حتى النخاع بالثقافة العربية الإسلامية، والذين ما زالوا إلى اليوم تجري في عروقهم الدماء العربية الإسلامية![١٢]

لعله من الأهمية بمكان أن نبين الحالة التي كانت عليها إسبانيا قبل الفتح العربي لها (٩٢هـ=٧١١م)، وما صارت إليه بعد هذا الفتح، لتقودنا هذه المقارنة إلى تشخيص دقيق لأثر الفكر الجغرافي العربي فيها بوجه عام، وفي تشكيل شخصية كولومبوس الجغرافية والملاحية بوجه خاص، فقد كانت تعاني إسبانيا قبل الفتح العربي من انتشار الجهل والفقر والمرض وإفلاس حضاري على الصُعُد كافة، مثلها مثل سائر بلاد أوربا، وما إن فتحها العرب، حتى نقلوها من حال التفكك والفوضى والانهيار الشامل، إلى مرحلة جديدة من حياتها قائمة على العلم والتسامح، مفعمة بالاستقرار والازدهار والعمران، مترعة بالثراء والرفاهية، ومن ثم ليقيموا دولة مرهوبة الجانب، يسودها السلام والأمن والأمان، تفيض بالخير للجميع، حيث أحيوا الأرض الميتة، وحولوها إلى حقول خضراء ، جاعلين للري أنظمة دقيقة محكمة. وأعادوا تعمير المدن المدمرة، وأخذ الناس يتحركون في صحة بادية، وملابس زاهية نظيفة، ونشّطوا التجارة الراكدة، وأنعشوا الصناعة المتخلفة، وطوروها، حتى أصبح في مقدور الناس الحصول على أقواتهم بأرخص الأسعار، بعد أن عم الرخاء أرجاء البلاد، هكذا أصبحت إسبانيا (الأندلس) في ظل العرب من أغنى البلاد الأوربية وأرقاها وأكثرها ازدحاماً بالسكان.(١٣)

وتقول زيغريد هونكة في هذا السياق: "ازدهرت حضارة العرب في إسبانيا، وبلغت أوجها برغم أنهم لم يجدوا فيها شيئاً من الفكر أو الثقافة، كما وجدوا في البلدان الأخرى التي فتحوها، وكان من المتوقع أن تزدهر الحضارة العربية في مثل تلك البلدان، التي مثلت شعوبها دوراً كبيراً في مزج الحضارات الهلينية، والبيزنطية، والفارسية، والهندية بالحضارة العربية. أما في إسبانيا حيث القوط الغربيون المتأخرون، فلم يكن ما يبشر بأي خير، وبرغم هذا فقد استطاع العرب أن يقدموا للبشرية أكبر دليل على أنهم أصحاب حضارة وأهل فكر، وليسوا مجرد نقلة لحضارات الشعوب. كما تزعم بعض النظريات التاريخية الخاطئة المغرضة. ففي الأندلس لم يجد العرب شيئاً يتعلمونه، ويهضمونه، ليترجموه، أو يقلدوه، ثم يقدموه، فالحضارة الأندلسية التي كانت أجمل وأعظم من أن تقارن بغيرها، لم تكن قائمة على أساس فارسي أو

إغريقي. لقد كانت عربية صرفه أكثر من الحضارة العربية في أي مكان آخر. وما إن انحسرت تلك الموجة الحضارية عن إسبانيا، حتى هوت تلك البلاد في سكون مميت وفقر مدقع، فليس هناك من دليل أوضح من هذا على قدرة العرب على الخلق والابتكار، وفي خلال مدة حكمهم التي دامت حوالي ٨٠٠ سنة خلقت الأسر العربية حضارة زاهرة، وبينما كان العرب في شغل شاغل في بناء صرح الحضارة الشامخ في كل ركن وصلوا إليه من البلاد، كان المسيحيون الذين أبوا أن يتعربوا يخربون في كل مكان لم يصل إليه العرب".(١٤)

لعل أكبر دليل على هذا هو أن الغرب بقي في تأخره ثقافياً واقتصادياً طول الفترة التي عزل فيها نفسه عن الإسلام، ولم يواجهه، ولم يبدأ ازدهار الغرب ونهضته إلا حين بدأ احتكاكه بالعرب سياسياً وعلمياً وتجارياً. واستيقظ الفكر الأوربي - على قدوم العلوم والآداب والفنون العربية - من سباته الذي دام قروناً ليصبح أكثر غنى وجمالاً وأوفر صحة وسعادة، وعندما فتح العرب جزءاً من أوربا هو إسبانيا (الأندلس)، لم يقضوا على المسيحية التي يزعمون أن شارل مارتلC. Martel (٦٦-١٢٤هـ = ٦٨٥-٧٤١م) قد حماها، ولم يقضوا على المدنية الغربية التي لم يكن لها وجود!! لقد حولوا الأندلس في غضون مائتي سنة من بلد فقير مستعبد إلى بلد عظيم مثقف مهذب، يقدس العلم والفن والأدب، وقدموا لأوربا سبل الحضارة، وقادوها في طريق النور.(١٥)

لقد اختار العرب المسلمون العلم لنشر حضارتهم وتوطيد ملكهم في إسبانيا، فانصرفوا نحو العناية بالآداب والعلوم والفنون، وعندئذ لم يقنعوا بما وصل إليه إخوانهم في المشرق والمغرب من تقدم، بل زادوا على ذلك، وابتكروا، وجددوا، مما أتاح لأوربا مورداً، استساغت شرابه، فظلت تعب منه قروناً طويلة، مما كان له أعظم الأثر في صحوتها وانبلاج فجر نهضتها الشامل، ابتداء من القرن (٦هـ = ١٢م)، ويكفي الحضارة العربية والإسلامية ذكراً خالداً متجدداً في الأندلس، "أن أهلها كانوا يستطيعون المشي في شوارعها بعد غروب الشمس في ضوء المصابيح العامة، في

حين ظلت مدينة لندن سبعة قرون بعد ذلك لا يوجد في طرقاتها مصباح واحد يضيء ليلاً".[١٦]

في حين كان شعاع الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ساطعاً وضاءً، يشع في كل الأرجاء القريبة منها والبعيدة، كانت مراكز الثقافة في الغرب (أبراجاً عاجية)، يسكنها نبلاء متوحشون، يفخرون بأنهم لا يعرفون القراءة والكتابة. حتى صمم نفر شجاع من أبناء أوربا على أن يرفعوا عن كواهلهم أكفان الجهل والتخلف، فيمموا شطر العرب الذين كانوا أئمة العلم بلا منازع.[١٧]

في الحقيقة لم يكن انتهاء حكم المسلمين في الأندلس بسقوط غرناطة أخر معقل من معاقلهم هناك في (٢ كانون الثاني (يناير) ١٤٩٢م = ٨٩٨هـ) أكثر من سقوط سياسي عسكري، ولم يكن أبداً سقوطاً للحضارة العربية الإسلامية، التي تركت بصماتها عميقة غائرة في تاريخ هذا البلد، الذي أحبهم وأحبوه، ومما يجدر ذكره في هذا المقام، أن إسبانيا وصقلية كانتا الاستثناء الوحيد الشاذ عن القاعدة المتعارف عليها عند أهل التاريخ، التي تقول :"إن الإسلام إذا بلغ أرضاً استقر فيها إلى الأبد" [١٨] من هذه المنطلقات التاريخية تقول بيان نويهض الحوت : "لم تكن صدفة أن تحتل إيزابلا غرناطة أولاً، ثم تسمح لكولومبوس بالسفر ثانياً في السنة نفسها، كان المنطق التاريخي يحتم انتهاء الدولة الإسلامية كلياً في شبه جزيرة أيبيريا (إسبانيا والبرتغال) قبل انطلاقة الدولة الإسبانية على أنقاضها.

في هذه الحقائق التاريخية ليس ما يلغي أهمية وجود الحضارة العربية الأندلسية الإسلامية ضمن حضارات عصر الاستكشاف، بل بالعكس، فالشواهد على كونها أهم الينابيع الحضارية التي استقى منها هذا العصر، أكثر من أن تحصى في كتب التاريخ، وفي الآثار الباقية إلى يومنا هذا في إسبانيا، وأضافت: "يعترف جوناثان براون في مقالة بعنوان (إسبانيا في عصر الاستكشاف: ملتقى الطرق لحضارات فنية) بأن العهد الايزابلي – كما دعاه – شهد مزيجا فنياً، وكان غنياً بشكل متميز، ومتأثراً بثلاثة اتجاهات: الأسلوب القوطي المتأخر من ألمانيا وبلدان الأراضي المنخفضة، والأسلوب الكلاسيكي من إيطاليا، والأسلوب الإسلامي من السكان المسلمين المقيمين في شبه

جزيرة إيبيريا"، ثم يشرح الكاتب مضيفاً: "ومنهم المسلمون الذين اعتنقوا الكاثوليكيـــــة! وهكذا ينسب الكاتب الحضارة الإسلامية الأندلسية الكبرى إلى آخر المسلمين فيها، وهـم الذين لم يكونوا بناة القصور ولا المساجد والمباني التـــي عناهـــا الكـــاتب، فالأســـلوب الإسلامي ليس إلا إرث الأندلس الإسلامية العربية، فكيف تنسب الدوحة المزدهرة إلـــى آخر أغصانها اليابسة وأوراقها المتساقطة كيف؟!"(١٩)

لعل تَدَارُكَ اللجنة الوطنية الإسبانية العليا المشرفة على تنظيم الأنشطة الثقافيـــة والعلمية والفنية كافة في المعرض العالمي لأشـــبيلية لســنة (١٤١٢هــــ = ١٩٩٢م) بمناسبة الذكرى الخمسمائة لاكتشاف أمريكا الإشادةُ بدور العرب والمسلمين الحضـــاري في شبه الجزيرة الأيبيرية، لينهض خير دليل على أهمية هذا الدور، كما أن فيه بعـــض العزاء والاعتراف بالجميل لأمتنا، وإن جاء متأخراً. فقد انبثق عـــن هـــذه اللجنـــة الأم (لجنة الأندلس ٩٢) Al Andulus 92 التي قامت بإصدار كتاب عن (الإســـلام فـــي إسبانيا) (في طبعته الثانية) يبرز تأثير العرب البالغ والكبير في مختلف مناحي الحيـــاة الإسبانية على امتداد الثمانية قرون التي مكثوها هناك، حيث أعلـــوا صـــرح حضـــارة راقية عز نظيرها... وقد صدر هذا الكتاب باللغتين الإسبانية والإنجليزية، وهـــو مـــن تأليف المستشرق الإسباني خوان بيرنيت J. Bernit وزوجتـــه المســـتعربة الإســـبانية المعروفة ليونور مرتييث مرتني L. Martinez وبعد مقدمة ضافية للمؤلـــف، تحـــدث فيها عن الإسلام كقوة دينية وحضارية واجتماعية عالمية، انتقل إلى الحديث عن تـــأثير الإسلام في أوربا، واستشهد بأقوال كتاب كبار يشهدون بمدى تأثير الحضارة العربيـــة الإسلامية في إسبانيا، وكذا في المجتمعات التي خضعت لإسبانيا فيما بعد، خاصة فـــي أمريكا اللاتينية، حيث أقامت إسبانيا هناك إمبراطورية عظمى.

يتجلى هذا التأثير في مختلف مناحي الفكر. ومظاهره ففي اللغة مثلاً هنـاك آلاف من الكلمات العربية الأصل مستقرة في اللغة الإسبانية حتى الآن، بل قد امتد هذا التأثير إلى المجال العسكري والبحري، إذ إن معظم رتب الجيش والبحرية في اللغة الإســـبانية هي من أصل عربي، بل حتى كريستوفر كولومبوس قد أطلق على نفسه لقـــب (أمـــير البحر)، كما يتضح لنا أنه استعمل كلمات عربية حتى في (يومياته) التي ســـجل فيـــها

وقائع الاكتشاف. ويذكر المستشرق بيرنيت، أن نظام الري العربي في الأندلس قد انتقل مع الأسبان إلى أمريكا اللاتينية فضلاً عن تأثير العمارة، وحقول عديدة أخرى منها القانوني والإداري والتجاري والصناعي، وأضاف: أنه بفضل التأثيرات العربية في مختلف مجالات الحياة الأسبانية تمت اكتشافات عظمى في تاريخ الإنسانية، مثل: اكتشاف أمريكا (على سبيل المثال)، حيث أسهمت المعارف والابتكارات العربية في شؤون البحر في ذلك، وقد استعمل الرحالة كريستوفر كولومبوس الآلات العربية خلال رحلته التاريخية إلى العالم الجديد، بل هناك من يقول: إنه كان مصحوباً ببعض (البحارة العرب). هكذا يستمر الكتاب بتسليط الأضواء وتثمين أثر الحضارة العربية الإسلامية الإيجابي في إسبانيا خاصة وأوربا بعامة.[٢٠]

إذا ظن بعض المسيحيين المتعصبين من أمثال الكاردينال اكزيميس Eximias – وكان يشغل منصب رئيس أساقفة غرناطة عند سقوطها (٨٩٨هـ = ١٤٩٢م)، الذي أحرق في ساحات المدينة العامة أكثر من ثمانين ألف كتاب من كتب العرب ومخطوطاتهم – أنهم يستطيعون محو أثار الحضارة الإسلامية بالأندلس، فإن هؤلاء فاتهم أن ما تركه العرب من طرق معبدة، وقصور ودور شامخة مرفرعة، ومشاف وفنادق مبثوثة، وعدد لا يحصى من المؤلفات، في عصر كانت فيه أضخم كاتدرائية في إسبانيا وفي أوربا إجمالاً لا يزيد عدد ما فيها من المؤلفات عن مائتي كتاب، وكل ذلك كفيل بتخليد اسم العرب والحضارة الإسلامية إلى الأبد، يقول لوبون: "إنه لا يوجد في إسبانيا المعاصرة من أعمال الري سوى ما أتمه العرب". [٢١]

ينهض دليلاً على بقاء أثر الحضارة الإسلامية في الأندلس حياً متجدداً، ما اقترحه حديثاً الروائي المكسيكي الشهير كارلوس فونتيس Fuentes على إسبانيا أن تحتفل بذكرى الفتح العربي سنة (٩٢هـ=٧١١م) مثلما تحتفل الآن بالذكرى الـ٥٠٠ لاكتشاف أمريكا، وجاء اقتراحه هذا في كتابه الجديد، المرآة المدفونة الذي يضم انطباعاته عن إسبانيا والعالم الجديد، وقال فونتيس "إن الفتح العربي كان أفضل ما حصل لإسبانيا، فبفضل الوجود العربي الإسلامي بنيت حضارة عظيمة نشاهدها، في قرطبة، وغرناطة، وإشبيلية، وبفضل هذا الوجود استنارت كل أوربا من عصور

الظلام، وأضاف أن ما قدمه العرب إلى إسبانيا وأوربا كان هائلاً، واعتبر أن حوالي ٣٥ إلى ٤٠ في المائة من المفردات الأسبانية ذات أصل عربي".(٢٢)

ويأتي عامل اللغة هنا كدليل إثبات لهذا الأثر الحضاري المهم في تشكيل الفكر والثقافة الأوربية، حيث بات من المعروف، أن اللغة العربية قد أصبحت لغة العلم منذ القرن (٢ وحتى آفاق القرن ١٠هـ = القرن ٨ - ١٦م)، أي حتى عصر كولومبوس، الذي بدوره شملته هذه العالمية للغتنا، فكولومبوس نفسه كان يؤمن إلى درجة اليقين بأن اللغة العربية هي أم اللغات كلها، والدليل على ذلك ما قدمته لنا الكاتبة الأمريكية، إيلين فنسنت باروود A. V. Barwood وبعد أن ذكرت أن اللغة العربية كانت لغة العلم للغالبية من الجنس البشري في العصر الوسيط، وحتى عصر النهضة الأوربية، قالت (ربما لهذا السبب وبلسان كولومبوس: إن اللغة العربية هي أم اللغات جميعها).(٢٣) وهذا يفسر لنا علة اصطحابه في رحلته الأولى إلى الأرض الجديدة، الإسباني المستعرب، لويس دي تورس Luis de Torres المتضلع في اللغتين العربية والأسبانية، كمترجم له في الرحلة، لاعتقاد كولومبوس المسبق أن أي أرض سيصلها، سيكون أول من يلتقي بهم فيها من العرب، هذا إلى جانب ما أكدته باروود من أن بحارته كان معظمهم من العرب إن لم يكن جميعهم، سواء استغل كولومبوس فرارهم من اضطهاد المتعصبين الأسبان وحكومتهم التي أمرت بطردهم من أراضيها، أم غير ذلك.

تعطينا زيغريد هونكة تثميناً لهذا البعد اللغوي وأثره في إسبانيا بوجه خاص وأوربا بوجه عام، فتقول: "كان من الطبيعي أن تصبح اللغة العربية لغة الإدارة والسياسة والقانون بل لغة التجارة والمعاملات وجمهور الناس. ومن ذا الذي يريد أن يخرج عن لغة الجماعة ؟ وكيف يستطيع أن يقاوم جمال هذه اللغة ومنطقها السليم وسحرها الفريد ؟ فجيران العرب أنفسهم في البلدان التي فتحوها استهواهم سحر تلك اللغة، حسبما كان يشكو أساقفة إسبانيا بمرارة. فلقد اندفع الناس، يتعلمون اللغة العربية بشغف، كما أنه وجب ترجمة بيانات البابا وقرارات المؤتمرات المسيحية في القرن (٣هـ= ٩م) إلى العربية للمسيحيين في الأندلس، الذين لم يعودوا يفهمون اللغة اللاتينية، وحتى، بعد احتلال المسيحيين ثانية للأندلس، فقد وجدت الكنيسة نفسها مجبرة

على أن تترجم الإنجيل لهؤلاء المسيحيين إلى اللغة العربية، وهكذا تحولت لغة قبلية في خلال مائة سنة إلى لغة عالمية، ليست اللغة ثوباً نرتديه اليوم لنخلعه غداً، لقد وجدت اللغة العربية تجاوباً من الجماعات، وامتزجت بهم وطبعتهم بطابعها، فكونت تفكيرهم ومداركهم، وشكلت قيمهم وثقافتهم، وطبعت حياتهم المادية والعقلية، فأعطت الأجناس المختلفة في القارات الثلاث وجهاً واحداً مميزاً" .(٢٤)

وقد دفعت سياسة التسامح وعدم التمييز التي اتبعها العرب المسلمون تجاه جميع الطوائف والأجناس في إسبانيا إلى إقبال هائل من المستعمرين الأسبان على استعمال اللغة العربية، بل فضلوها على اللاتينية، ومع اشتداد إعجاب الأسبان بحضارة العرب وثقافتهم، وازدياد شكوى أساقفة إسبانيا واستيائهم من هذه الظاهرة، انبرى الكاتب المسيحي المتعصب الفارو الذي عاش في القرن (٣هـ= ٩م) معبراً بسخط وغضب شديدين ضد هذا التوجه عند الشباب بخاصة، إذ كتب يقول : " إن إخواني المسيحيين يدرسون كتب فقهاء المسلمين وفلاسفتهم، لا لتنفيذها، بل لتعلم أسلوب عربي بليغ، وأسفاه، إنني لا أجد اليوم علمانياً يقبل على قراءة الكتب الدينية أو الإنجيل، بل إن الشباب المسيحي الذين يمتازون بمواهبهم الفائقة أصبحوا لا يعرفون علماً وأدباً ولا لغة إلا العربية! ذلك أنهم يقبلون على كتب العرب في نهم وشغف، ويجمعون منها مكتبات ضخمة، تكلفهم الأموال الطائلة، في الوقت الذي يحتقرون الكتب المسيحية وينبذونها"!(٢٥)

وحسب لغتنا الجميلة العالمية خلوداً، ما تركته من أثر عميق متوارث في اللغات الأوربية، وآية ذلك، أن عدد الألفاظ العربية في اللغتين الأسبانية والبرتغالية وحدهما أكثر من كل التوقعات. فقد أعد عالم الآثار الفرنسي راينهارت دوزيDussaud (١٢٣٦-١٣٠٢هـ = ١٨٢٠-١٨٨٤م) معجماً للألفاظ ذات الأصل العربي الشائعة في اللغتين، وبرغم ضخامة هذا المعجم، فإنه يعترف بأن هناك ألفاظاً أخرى كثيرة يمكن أن تضاف إليه، هذا إلى جانب ما تركته اللغة العربية في فرنسا، لا سيما الجهات الجنوبية منها من ألفاظ وكلمات لا تعد، حتى أن اللهجات السائدة في مناطق أوفرن وليموزان محشوة بالكلمات العربية، كما أن أسماء الأعلام فيها ذات مسحة عربية

واضحة. أما اللغة الإنجليزية ففيها وحدها ما يقرب من ألف كلمة مشتقة من أصل عربي، منها حوالي مائتين وستين كلمة من الكلمات الشائعة الكثيرة الاستخدام في الحياة اليومية.

في العودة – مرة أخرى – إلى الجذور، يؤكد د. الدواليبي: " أن الفينيقيين العرب هم الذين وهبوا العالم الأوربي منذ عهد اليونان أبجديتهم على يد الفينيقي العربي قدموس(٢٦) الذي حمل ألف باء العرب إلى اليونان، ثم من اليونان إلى الرومان، ثم أسلمها الرومان إلى سائر اللغات الأوربية بعنوانها العربي، كما نص على ذلك معجم لاروس Larousse الفرنسي في مادة ألف باء Alphabet، بل أصبحت هذه الحروف أساساً لكل الحروف الهجائية التي يكتب بها اليوم أبناء أوربا وآسيا وأمريكا وأفريقيا، بحيث صح قول القائل: إن هذا أعظم اختراع اخترعه البشر على الإطلاق".(٢٧)

هذا هو المناخ العلمي الصحي الذي عاشته إسبانيا في ظل العرب، والذي نفثت مؤثراته في قلب وعقل كولومبوس، ورواد الكشوف الجغرافية الكبار، هو المناخ الذي عادته الكنيسة بقوة، وفي جميع أنحاء أوربا، حيث قيدت حرية العقل والتفكير، في الوقت الذي كان فيه مفكرو العرب ينعمون بحرية فكرية بلا حدود، والتشجيع على الابتكار والاختراع والتفلسف! وكان شعارهم في إيمانهم الشك هو أول شروط المعرفة، تلك هي المبادئ التي عرفها الغرب بعدهم بثمانية قرون طوال!!(٢٨)

لذلك لا عجب أن يأخذ الأوربي في التطلع إلى حياة علمية وفكرية خصبة أكثر تنوعاً، فوجد في العلوم والثقافة العربية الإسلامية ضالته المنشودة. والبديل المنطقي للكتب اليونانية والرومانية – بخاصة الكتب العلمية الجغرافية والملاحية والفلكية – التي كان ما تبقى منها مملوء بالأخطاء، ولا يركن إليه، لذلك أسسوا لهذا الغرض، في مطلع القرن (٧هـ= ١٣م) كلية للترجمة في مدينة توليدو (طليطلة) في إسبانيا، حيث كان يحتفظ بمعظم المؤلفات العربية النادرة في الرياضيات والفلك والجغرافيا...الخ. في ضوء هذا كله لا يمكن أن ننكر أن هذه المؤلفات شكلت المادة العلمية الأولية لعلماء أوربا.

ومن ثم فإن كولومبوس لا يمكن أن يرفع شــراعاً للإبحــار غربــاً دون أن يستضيء بها. ونحن لا نقول أن فكرة الإبحار غرباً كان يجهلها الأوربيون جهلاً تاماً، ولكن على الرغم من أن هذه الفكرة جالت في عقول النابهين منهم، ومنذ مدة طويلة من الزمن تعود، للقرون الأولى الميلادية، بهدف اكتشاف غنى الشرق الذهبي الوافر. وهــي الفكرة نفسها التي ظلت حتى وقت قريب من عصر كولومبوس شغل أوربــا الشــاغل، وكذلك للتأكد من أن شكل الأرض كروي أو مسطح!! – إلا أننا لا نعرف أحداً منهم قام بأي محاولة لاختبار تلك النظريات في هذا المضمار! في الوقت الذي رأينا فيه العــرب المسلمين على دراية تامة بالشرق وطريقة الوصول إلى دوله وشعوبه، منذ عصور مــا قبل الإسلام وبعده، وفي غضون ٣٠ سنة – بعد الإسلام – سبروا غور معظم أنحــاء العالم القديم، من أقاصي مدن الهند والصين في الشرق عبر طهران وبغداد ودمشق إلى القاهرة وطرابلس وتونس وقرطبة في الغرب. ولم يقفوا عند هذا الحد المعلوم من العالم القديم، بل وسعوا آفاق رؤيتهم ونشاطهم البحري للوصول إلى المزيــد مــن المعرفــة الكونية في كشف المعلوم والمجهول من العالم.

إن الدراسات العربية الإسلامية الفائقة الدقة في علم الجغرافيا من موســوعات، ومعاجم، وخرائط وجداول، ورسوم بيانية، إلى جانب التقدم الهائل الــذي حققــوه فــي العلوم الرياضية، والذي ساعد على تفوقهم في علم الفلــك. وبالتــالي علــم الملاحــة، وبحوثهم الرائدة التي أدخلت تحسينات جوهرية على الأجهزة الملاحيــة، كــانت كلــها الأسس القوية التي اعتمد عليها ملاحو عصر الكشوف الكبرى... وهدية العرب العلميــة للعالم، التي قادت إلى اكتشاف النصف الثاني المجهول من الكرة الأرضيــة.[٢٩] تقــول باروود: " إن النظرية التي كانت تقول إن عالمــاً أخر، يقــع وراء بحــر الظلمــات (الأطلنطي)، أو فكرة القارة المجهولة التي تقع إلى الغرب من العالم المعــروف، هــي فكرة عربية لا يرقى إليها الشك، ويقيني أن العرب هم أول من أعد الخرائــط للعــالم المعروف والمجهول، وهي بالتالي التي قادت كولومبوس إلى العالم الجديد ".[٣٠]

لم يعد كولومبوس – في الحقيقة – من ينكر فضل العرب عليه في هذا الميــدان، وهو الذي سمع منذ نعومة أظفاره الكثير عن مهارة العــرب البحريــة، وكيــف أنــهم

طوعوا البحر لسفنهم، وسخروه لمنفعتهم منذ فجر التاريخ الإنساني، من هذه القصص المثيرة – التي تحكى عن بطولات ومغامرات بحارة العرب الشجعان الذين يجولون بسفنهم شرق البحر الأبيض المتوسط – ما سمعه من طاقم السفينة التجارية التي امتطى ظهرها لأول مرة كصبي بحار في سن الرابعة عشرة من عمره، ونلمس مدى عمق هذا الأثر في شخصية كولومبوس ووجدانه، في تصميمه على تعلم اللغة العربية، إلى جانب اللغتين الإسبانية والبرتغالية، اللتين نقلتا عن العربية معظم الكتب العلمية والجغرافية وسواها، كما اطلع على أمهات الكتب العربية بلغتها، وكذلك الأجهزة والعدد (والآلات) الملاحية التي طورها العرب، وكان لحسن طالعه أن تعرّف على صهر زوج ابنة الأمير هنري الملاح Henry the Navigator (٧٩٧-٨٦٥هـ = ١٣٩٤-١٤٦٠م)، الذي كان يريد التخلص من مجموعة كبيرة من عيون الكتب العربية الإسلامية في العلوم الجغرافية وكتب أخرى وثيقة الصلة بها، فآلت ملكيتها إلى كولومبوس، لتكون نقطة انعطاف تاريخية في حياته العلمية ومراجعة وتصحيح نظرياته الجغرافية حول المعروف والمجهول.

قد أشرنا فيما تقدم إلى تلك الرسالة التي كتبها سنة (٩٠٧هـ = ١٥٠١م)، والتي يذكر فيها فضل العرب عليه ويقول فيها: "إنه خلال رحلاته الكثيرة إلى مختلف أنحاء العالم. قد قابل رجال علم من مختلف الأجناس والطوائف، واجتهد للإطلاع على جميع كتبهم في الجغرافيا الوصفية للعالم والكون والتاريخ والفلسفة وكتب العلوم الأخرى،" ومن المعروف أن المسلمين – وعلى مدى قرون طويلة – كانوا أساتذة العلوم الجغرافية بكل فروعها في العالم القديم، ولا أقل من أن كولومبوس – بعد حصوله على هذا الكنز من الكتب الجغرافية العربية – أن يعزي الفضل في صنع قراراته الأخيرة في الإبحار غرباً إلى العرب.[٣١] يتفق مع هذا الرأي، أبرز كُتّاب سيرة كولومبوس، الأمريكي صموئيل ايليوت موريسون S. E. Morrison مؤلف كتاب Admiral of Ocean Sea أمير البحر المحيط، إذ يقول : " إن كولومبوس قبل انطلاقه في رحلته البحرية الأولى، لم يدخر ومعاونيه وسعاً في جمع معلومات جغرافية وذخيرة ضرورية من لوازم، وعدد بحرية، ومؤن كافية لانطلاق الرحلة".

إذا كان هذا قد حصل، فإنه من المستحيل ألا يكون قد قرأ، وانتفع من ترجمة كتاب البيروني (أبو الريحان) (٣٦٢-٤٤٠هـ= ٩٧٣-١٠٤٨م) "**تاريخ الهند**" ومن كتاب ياقوت الحموي (٥٧٥-٦٢٧هـ = ١١٧٩-١٢٢٩م) " **معجم البلدان**"، ومن المؤكد أيضاً أنه كان شديد التوق لقراءة كتاب ابن بطوطة (٧٠٣-٧٧٩هـ = ١٣٠٣-١٣٧٧م) "**تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الآثار**"، المعروفة **برحلة ابن بطوطة**، تلك الرحلة التي قطع فيها ابن بطوطة مسافة تصل إلى ١٢٠،٠٠٠كلم من شمال أفريقيا إلى الصين والعودة، واستغرقت ٢٩ سنة، وقد ساهمت الرحلات العالمية التي قام بها العلماء العرب أمثال ابن بطوطة في زيادة المعلومات الجغرافية، وصححت آراء خاطئة وأخطاء شائعة.(٣٢)

كذلك لا يمكن أن يفوت كولومبوس أبعاد قيمة ما عرفه من معلومات تفيد أن فاسكو دي غاما، الذي أبحر (سنة ٩٠٣هـ = ١٤٩٧م) من لشبونة بمحاذاة الشاطئ الشرقي لأفريقيا بنيّة الوصول إلى الهند، قد استعان بالخبرة والخرائط العربية التي قدمها له - كما أشيع - الربان العربي المفترى عليه أحمد بن ماجد (٨٣٧-٩١٢هـ = ١٤٣٣-١٥٠٦م)، وهي الخرائط والمعلومات الملاحية التي تجمعت له من شتى المعارف البحرية عن طريق ما ترجم له من المصنفات الجغرافية العربية، والتي لم تكن معروفة بعد للبحارة الأوربيين على هذا الطريق، حيث ترتب على هذه المساعدة - كما هو معروف - تمكين البرتغاليين من إنهاء السيطرة العربية الإسلامية على طرق التجارة إلى الهند.(٣٣)

لكن على الرغم من كل ما أتيح لكولومبوس من معلومات جغرافية هائلة، إلا أنه وقع في أخطاء فادحة في تقديره للمسافة التي يجب عليه أن يقطعها في المحيط للوصول إلى الجانب الثاني من الكرة الأرضية، يبدو أن كولومبوس كغيره من الأوربيين بدأ يقتنع في ضوء الأفكار الجديدة التي أخذت تنتشر في أوربا عن كروية الأرض، بأن الاتجاه غرباً من شواطئ أوربا الغربية حتماً سيقود إلى شواطئ الشرق، هذا في الوقت الذي كان يسود فيه الاعتقاد بأن بحراً واحداً يصل بين شواطئ أوربا

وإفريقيا وأسيا، وإذا كان الأمر صحيحاً – من وجهة النظر الغربية – إذاً ليس هناك ما يمنع من الوصول بحراً إلى شواطئ آسيا من شواطئ أوربا بالاتجاه غرباً.(٣٤)

على الأرجح، حماس كولومبوس غلب على عقله، فالأخطاء التي وقع، فيها تقديره للمسافة للوصول بحراً إلى الجانب الثاني من الكرة الأرضية، التي يبدو أنه اعتمد فيها على تقسيم اليونانيين لمحيط الكرة الأرضية إلى الـ٣٦٠ درجة دون الأخذ بعين الاعتبار طول الدرجة، التي أخفق اليونانيون تماماً في تحديدها، والقياس الصحيح الذي نعرفه اليوم حوالي ١١١كم (٦٠ ميل بحري) (لقياس درجة خط الطول الواحد عند خط الاستواء)، ولا يعرف السبب في تجاهل كولومبوس لقياس طول الدرجة الواحدة على نحو قريب جداً من التحديد الصحيح المعروف اليوم، وهو ١١٠ كم (٥٩،٥ ميل بحري) الذي توصل إليه عالم الفلك اليوناني (الليبي المولد) اراتوسEratothenes (٢٧٦ – ١٩٤ق.م.) وكان اراتوس حينئذ يشغل منصب مدير مكتبة الاسكندرية.

الأغرب من هذا أن الجغرافي الفلكي اليوناني الشهير بطليموس تجاهل بدوره جهود زميله الفلكي اراتوس، وكان أكثر العلماء بعداً عن الواقع الحقيقي لقياس هذه الدرجة التي حددها على أساس ٩٣كلم (٥٠ ميل بحري)، وهذا كله بعكس ما توصل إليه العلماء العرب والمسلمين لمحيط الأرض وقياس طول الدرجة، التي استخرجوها بدقة متناهية، وهي المسؤولة عن النجاح الكبير الذي حققه كولومبوس في كشوفه الجغرافية المثيرة، حيث كان العرب بعد الإسلام هم أول من استخرج بطريقة علمية طول درجة من خط نصف النهار ليعرفوا منه مقدار محيط الأرض، وكانوا بذلك أول من قام بقياس حقيقي لمحيط الأرض بطريق علمي صحيح.(٣٥)

يقول الدكتور عبد الحليم عويس: "من الأعمال الجليلة التي خدمت كولومبوس في رحلاته قياس العرب والمسلمين لمحيط الأرض، وهو القياس الذي بدأ بتوجيه من الخليفة المأمون، وطوره العرب عبر القرون". وقد أثبت الأستاذ نللينوNallino (١٢١٩-١٣٥٧هـ = ١٨٧٢-١٩٣٨م) في مقال له عن القيمة المترية لدرجة سمت الرأس عند الجغرافيين العرب، أن الذراع السوداء هي الذراع الشراعية، وأن مقدارها هو ٤٩٣،٣ملم، وتبعاً لذلك فإن الميل العربي يساوي ١٩٧٣،٣ متراً، وعلى هذا فإن

طول الدرجة عند الفلكي المأمون هو ١١١،٨١٥ متراً، وطول محيط الأرض هو ٤١،٢٤٨ كلم، من هنا كان للعرب فضل عظيم في تقدير محيط الأرض على نحو أقرب ما يكون إلى الحقيقة، ويجيب الأستاذ نللينو تعقيباً على ذلك فيقول: قياس العرب لمحيط الأرض هو أول قياس حقيقي، أجري بطريقة كلية مباشرة مع كل ما اقتضته تلك المساحة من المدة الطويلة، والصعوبة، والمشقة، واشتراك جماعة من الفلكيين والمساحين في العمل، فلا بد لنا من أن نعتبر ذلك القياس في أعمال العرب العلمية المجيدة المأثورة."(٣٦)

وقد كانت أقيسة العرب والمسلمون في ذلك كله - على قلة ما بأيديهم من الوسائل - دقيقة، صحيحة، أو قريبة جداً من الصواب، وأن ثابت بن قرة الحراني (١٨٥-٢٨٩هـ = ٨٣٦-٩٠١م) الذي قام بقياس علو الشمس ومدة السنة الشمسية، حيث استخرج حركة الشمس، وحسب أول السنة النجمية، فكان ٣٦٥ يوماً وست ساعات وتسع دقائق وعشر ثوان، فكان ما وصل إليه يزيد على أول السنة الحقيقي بمقدار هو أقل من نصف ثانية.(٣٧)

ومن نوابغ العلماء المسلمين أيضاً، الذين أسدوا خدمات لا تنسى للإنسانية في علمي الجغرافيا والفلك محمد البتاني (٢٤٤-٣١٧هـ = ٨٥٨-٩٢٩م)، الذي صحح بعض الأخطاء التي وقع فيها بطليموس، ووصل إلى نتائج جديدة في المباحث الفلكية، كذلك الفرغاني (أبو العباس أحمد) (٢١٥-٢٨٤هـ = ٨٣٠-٨٩٧م) الذي قام بقياسات طول خط الأرض المستقيم، ونهض بأبحاث في تحديد طول السنة تحديداً دقيقاً، وأطوال الليل والنهار وحركات الكواكب والنجوم، فكان أول من أدرك أن مدار الشمس والكواكب على مر الزمن يجري في اتجاه خلفي، وقد ترجمت أعماله إلى اللاتينية غير مرة، وابن يونس المصري (٣٣٥-٤٠٠هـ = ٩٦٤-١٠٠٩م) الذي قام بأبحاث رائدة في خسوف الشمس، وتعيين الاعتدال الشمسي، وتحديد خطوط الطول، أما أبو الريحان البيروني، فيكفيه كتابه الجامع، "القانون المسعودي في الهيئة والنجوم"، إلى جانب بحوثه وتجاربه العلمية غير المسبوقة عن الجاذبية.

هذا فضلاً عن أن هؤلاء العلماء تمكنوا بدراساتهم الجغرافية والفلكية الموثوقة من تحديد الموقع الجغرافي للبلدان المهمة بالنسبة لخطوط الطول والعرض بدقة متناهية. ويثمن د. عاشور كتاب "**الزيج الصابي**" للبتاني، بأنه من أهم مؤلفات الفلكيين السابقين، والذي كان له أثر كبير في علم الفلك، لا في المشرق الإسلامي فحسب، بل أيضاً في غرب أوربا في العصور الوسطى ومستهل الحديثة، وقد ترجم هذا الكتاب بدوره إلى اللاتينية أكثر من مرة في القرن (٦هـ=١٢م) ثم نشر في أوربا عدة مرات في القرنين (١٠ و ١١هـ=١٦ و ١٧م) وتوالت طباعته بعد ذلك مرات عديدة أخرى، ويعد هذا الكتاب دائرة معارف ضخمة، حدد فيها البتاني تقسيم دائرة الفلك، وارتفاع القطب الشمالي، ومعرفة زيادة النهار، ومعرفة ارتفاع الشمس وقت انتصاف النهار، ومعرفة ارتفاع الكواكب، وطول السنة الشمسية، وأفلاك القمر والكواكب، ومعرفة كسوف الشمس، ومطالع البروج، كل ذلك وأكثر جاء في دائرة معارف البتاني مزوداً بالجداول التوضيحية الوافية. (أي الجداول الفلكية الخاصة بمنازل الشمس والقمر والكواكب والنجوم الخ).(٣٨)

ومن عباقرة علماء العرب المسلمين، الذين توصلوا إلى نظرية كروية الأرض، وعرفتها بلاد الأندلس على يديه، ابن عبده مسلم البلنسي (٣٠١-٣٦٣هـ = ٩١٣-٩٧٣م) (نسبة لبلنسيا في شرق الأندلس) ليتلقفها العالم الفقيه الموسوعي ابن حزم (علي بن أحمد) الأندلسي (٣٨٤-٤٥٥هـ= ٩٩٤-١٠٦٣م)، الذي صاغ الفكرة وبلورها على نحو دقيق للغاية، وقدمها في كتابه، "**الفصل في الملل والأهواء**"، الذي يعتبر بحق من عيون تراثنا العلمي الخالد، وتناولها تحت عنوان، مطلب بيان كروية الأرض، وبفضل ابن حزم وعبقريته تمكن الأندلسيون من القيام بجهد وافر في تطوير المعلومات الجغرافية والسفر في رحلات طوال خارج الأندلس لهذا الغرض، ولا يخامر علماء اليوم شك بأن مبدأ كروية الأرض الذي توصل إليه علماء المسلمين في وقت مبكر من القرون الوسطى، هو المبدأ الذي لم يكن من الممكن اكتشاف العالم الجديد بدونه.(٣٩)

يرى المؤرخ المعروف فيليب حتي Hitti أن نظريات المسلمين الجغرافية قد ترجمت إلى اللغة اللاتينية، ونشرها في كتاب الكاردينال الفرنسي،

بيير دي أيلي ، بعنوان Imago Mundi **وصف العالم**، وقد ظهرت طبعة هذا الكتاب الأول في بلجيكا سنة (٨١٣هـ =١٤١٠م) وتوصل حتى إلى حقيقة مؤداها، أن كولومبوس أخذ فكرة كروية الأرض، وإنها على شكل إجاصة من هذا الكتاب، و أساس هذه الفكرة جاءت – كما رأينا – من الجغرافيين المسلمين ، الذين قالوا: إن في وسط نصف الكرة الأرضية المعروف، (ذروة العالم) تعرف بـ (قبة آرين)، وكان العرب الأوائل يحسبون خطوط الطول بداية من خط زوال بلدة (الآرين بالهند)، وخلاصة هذه النظرية، أن العرب كانوا يحسبون خطوط الطول اعتباراً من الشرق من نقطة (الآرين) هذه، وهي مكان يمر به خط منتصف النهار، ويستوي فيه طول الليل والنهار، ومنه حسب الهمداني (الحسن بن أحمد ، ابن الحائك) (ت ٣٣٤هـ = ٩٤٥م) في كتابه الموسوم، **صفة جزيرة العرب** أطوال مدن العرب المشهورة، بما فيه مكة المكرمة والمدينة المنورة، وبتأثير هذه النظرية اعتقد كولومبوس بوجود مركز آخر للأرض في نصف الكرة الغربي في مواجهة (قبة الآرين) على موضع أكثر ارتفاعاً من مثيله الموجود في الجهة الشرقية.

بالجملة، "لقد حققت الجغرافية العربية والإسلامية منذ عصر المأمون، بدءاً بترجمة كتب بطليموس سواء في الجغرافية الوصفية، أو الجغرافية الفلكية الرياضية، حققت لعصر النهضة الأوربية ذخراً علمياً مهماً، أعان روادهم العظام على اقتحام البحار. وسواء نظرنا إلى رحلات البرتغاليين إلى الشرق، أو كولومبوس إلى الغرب، فقد كانت الوسيلة واحدة، وهي السفينة، والخارطة، والآلات، والعلوم الملاحية، وكان الهدف واحداً : الوصول إلى الهند والصين، وإنه يدعو إلى الاستهجان حقاً عندما نطالع كيف كان الملاح الجنوي (كولومبوس) يتبين في كل ما يسمعه من رطانة سكان جزر أمريكا الوسطى أسماء مواضع وأشخاص، تؤكد لديه بأنه بلغ أطراف شرقي آسيا، ولم يكتشف أرضاً جديدة بل عالماً جديداً".(٤٠)

يرى د. حسين مؤنس في كتابه، **الجغرافية والجغرافيين في الأندلس** أن كولومبوس نفسه قد اقتبس نظرية الوصول إلى الهند عن طريق الإبحار غرباً من الجغرافي العربي أبي عبيد البكري (عبد الله) (٤٣٢-٤٨٧هـ= ١٠٤٠-١٠٩٤م).

كذلك يمكننا أن نقول، ونحن واثقون: إن اكتشاف المرشدات الملاحية لابن ماجد، التي كتبها في النصف الثاني من القرن (٩هـ = ١٥م)كان حافزاً على البحث في فن المرشدات الملاحية العربية، ويعد مخطوط ابن ماجد الذي يحتوي على كتابه **الفوايد (الفوائد) في أصول علم البحار والقواعد** الذي اكتشفه المستشرق الفرنسي جبرييل فران G.Ferrand أهم وثيقة في الجغرافية الفلكية والملاحية، وصلتنا من العصور الوسطى على الإطلاق، وتنحصر أهميته في أنه قدم الوثائق الجيدة التي وصلتنا عن الملاحة في البحار الجنوبية بلغة من اللغات، كما أنه يرد فيه لأول مرة ذكر اسم (علم البحر) بمعناه الواسع، ثم أنَّ هذه الوثيقة لتلقي الضوء على مقدار ما بلغه العرب من تقدم في فنون البحر والملاحة حتى القرن (٩هـ = ١٥م)، وفي الوقت نفسه على مدى تأثر البرتغال بالفكر العربي وبالتقاليد الملاحية العربية بشكل عام، وفي المحيط الهندي بشكل خاص. وفضلاً عن ذلك فإن هذه الوثيقة لتحتوي أيضاً على كثير من المصطلحات العلمية والفنية التي تعد في حد ذاتها ثروة كبرى للغة العربية لغات العالم.[٤١]

ليس هناك أدنى شك – في ضوء ما تقدم – أن كولومبوس حرص أن يقرأ قبل رفع شراع الإقلاع في رحلته الأولى كل ما وقع تحت يده من الكتب العربية، بخاصة التي تصف السفن العربية والآلات المستعملة في الملاحة، ووصفها الجغرافي للبلدان والبحار والجزر والخرائط والمصورات الملحقة بها، كما أنه لا يمكن أن يستبعد كذلك اطلاعه على جغرافية ابن الوردي– سابقة الذكر– **خريدة العجائب**، ونَسَخُهُ بعناية المصوّرات والخرائط الموجودة فيها، هذا عدا عن ما أخذه عن البيروني في مسألة خطوط الطول والعرض، والتي سبق فيها البيروني، جاليليو Galileo (٩٧٢-١٠٥٢هـ = ١٥٦٤-١٦٤٢م) بستمائة سنة.[٤٢] كذلك انتفع بلا حدود من جهود الفلكيين العرب، التي قادت إلى إدخال تحسينات هائلة، كانت أقرب إلى الاختراع منها إلى التحديث، ولم يعرف الأوربيون (الإسطرلاب) في العصور الوسطى إلا على أيدي العلماء العرب، وقد بزّ العرب غيرهم من الأمم في صنع الإسطرلاب، ودرجوه بدقة منقطعة النظير، ولهم في كيفية صنعه وفي استعماله مؤلفات كثيرة. [٤٣]

هذا فضلاً عن اختراع البوصلة، التي أصبح من المستحيل منذ اختراعها أن يغامر بحار أو رحالة بالسفر إلى أي مكان بدونها، إلى جانب أطلس العالم الضخم الذي أعده الشريف الإدريسي في القرن (٦هـ = ١٢م)، هذا السِّفْر وحده يحتوي على مئات من الخرائط والجداول والرسوم البيانية والجغرافية العلمية الفائقة الدقة والإتقان، التي كانت بدورها نَهْرَ عُلومٍ فُرات، عبَّ منه كولومبوس حتى الارتواء، تقول هونكة: "الواقع أن ليوناردو دافنشي L. Da Vinci (٩٢٥هـ= ١٥١٩م) أو روجر باكون R. Bacon (ت ١٠٣٦هـ= ١٦٢٦م) أو جاليليو، ليسوا هم الذين أسسوا البحث العلمي، إنما السابقين في هذا المضمار كانوا من العرب.(٤٤)

ازداد هذا الفضل العربي أثراً في تاريخ إنجازات كولومبوس خاصة في ميدان علم البحار والملاحة، في توصل العرب، في القرن (٩هـ = ١٥م) (زمن حركة الاكتشاف) إلى إدخال تحسينات جذرية مبهرة – تعد من التطورات التكنولوجية الهائلة في ذلك العصر– على الشراع المثلث، الذي كانوا قد اخترعوه أصلاً في نهاية القرن (٣هـ= ٩م) وبقي على حاله، إلا إنهم استبدلوه بشراع تام التثليثTriangular ليحدث ثورة في عالم الملاحة وتطوير صناعة السفن الأكبر والأسرع والأكثر قدرة على مواجهة الأنواء والعواصف وتحمل أعباء السفر الطويل. يقول جورج حوراني: " إن العرب جاءوا بالشراع المثلث إلى البحر المتوسط، وهذا يعد من أياديهم الجليلة على الحضارة المادية، فلولا الشراع المثلث لما كان المظّين (٤٥) الأوربي في السفن التي تشمل على ثلاثة صوار، ولما تمت رحلات المحيط التي قام بها المكتشفون العظام، ثم لولا التحسينات البعيدة الأثر في الصواري والشراع لما استطاع أبداً المكتشفون الكبار تحقيق ما حققوه".(٤٦) ويقول المؤرخ الهندي بانيكار Banicar: "ربما شاقنا أن نلحظ أن تزويد السفن بالأشرعة المثلثة، كان من المستحدثات التي نقلها البرتغاليون عن العرب. ذلك أن العرب عندما نزلوا إلى البحر، أدخلوا التعديل على الأشرعة التي كانت تستخدم قبل ذلك، فخففوا من وزن العرق المستعرض، وأطالوه، ورفعوا قمة الشراع إلى أعلى كثيراً، وشقوا قاعدته، وسرعان ما حصلوا على ذلك الشراع المثلث

الذي لعله سيظل حياً على حين تندثر كل آية أخرى من آيات طاقتهم المبكرة في ميادين الفتح ".(٤٧)

ومن آيات فضل العرب كذلك التي كان لها بالغ الأثر في التطور البحري والملاحة البحرية إلى جانب تأثيرها في علم الفلك نفسه، نظرية الغيوم، التي توصل إليها العرب المسلمون في القرن (٩هـ= ١٥م) على نحو ثابت ودقيق، حيث جاء إدخال التحسينات الجوهرية على البوصلة، ليزيد من تجربتهم في نظرية الغيوم هذه، ليصبح بالإمكان بعدها الاهتداء في البحار بالنجم القطبي الثابت في الجنوب Pole Star وقد ساعد نشاط البحرية العربية الإسلامية على تطوير وسائل الاهتداء في البحار على أساس النجم الثابت.

لم تكن نظرية (غيوم النجم القطبي الثابت) جديدة على العلماء العرب والمسلمين، فقد عرفت في تراثنا الإسلامي في وقت مبكر من ظهور الإسلام، فقد ذكرها عدد من العلماء العرب المسلمين، منهم تميم الداري، (ت٤٠هـ=٦٦٠م)، وابن وحشية (أحمد النبطي) (ت ٢٩١هـ=٩٠٣م)، وعبد الرحمن الصوفي (٢٩١-٣٧٦هـ = ٩٠٣-٩٨٦م)، وهو الوحيد من علماء العرب والعالم الذي نقد وصحح ما أورده هيبارخوس أو ابرخس Hipparkos (ت ١٤٠ ق.م.) (من مشاهير علماء الفلك اليوناني الأصل) في تحديد مواقع أكثر من ألف نجم في السماء، كان قد اكتشفها بنفسه، (فكان أن اكتشف نجوماً ثابتة عدة، لم يلحظها بصر أبرخس قبله، ثم رسم خريطة للسماء بدقة كبيرة، حسب فيها مواضع النجوم الثابتة وأحجامها من جديد، وهكذا أخرج إلى الوجود فهرساً للنجوم، عمل على تصحيح الكثير من الأخطاء الموروثة، نتيجة لانعدام الدقة منذ أيام أبرخس وبطليموس، وعمل كذلك على إثبات عدد كبير من النجوم الثوابت المستكشفة حديثاً. هذا إلى جانب إبداعات العرب في تطوير (إن لم يكونوا المؤسسين الحقيقيين) علم المثلثات، الذي أدّى إلى ثورة علمية في ميدان علم الفلك والإبحار) الخ...(٤٨)

في الحقيقة، لم يستعن كولومبوس خلال رحلته الاستكشافية إلى (الأرض الجديدة) بعلوم العرب الجغرافية والملاحية وخرائطهم وخبرتهم ورجالهم فحسب، بل

إنه بالتأكيد اعتمد عليهم اعتماداً كلياً، فقد أجمع المؤرخون وكتّاب سيرة كولومبوس على هذا الأمر مستدلين على ذلك بتوفر الخبرة الملاحية العربية العالية في الأندلس من جهة، وتزامن رحلته مع القرارات الجائرة التي أصدرها ملك إسبانيا وزوجته الملكة إيزابلا بطرد العرب المسلمين من إسبانيا من جهة أخرى.(٤٩) وفي مقابلة مع المفكر العربي الأديب والمؤرخ المعروف الدكتور سيمون الحايك – الذي أُعلن مؤخراً عن جائزة باسمه للقصة التاريخية العربية – أكد في مقابلة صحفية، أن أول من شاهد أمريكا مورسكي عربي، مشيراً إلى دراسات علمية مثيرة تؤكد بدورها أن العرب الموريسكيون رافقوا كولومبوس في رحلته الأولى، ويعزى إليهم الفضل في هذا الاكتشاف التاريخي. (٥٠)

وقد تحدثت الكاتبة الأمريكية باروود – فيما تقدم – قائلة: إنه لهذا السبب حرص كولومبوس في رحلته الأولى إلى الأرض الجديدة على اصطحاب الأسباني المستعرب لويس دي تورس Torres المتضلع باللغتين العربية والأسبانية كمترجم له أثناء الرحلة، وأضافت، أن كولومبوس كان على قناعة، بأنه عند وصوله إلى الهند سيجد العرب في انتظاره هناك، لمعرفته المسبقة بأن العرب منذ أكثر من خمسة قرون مضت وصلوا بعيداً في استكشاف العالم المعروف، وكان قد قرأ كذلك الكتب الجامعة التي دونوها، وبالتالي فإنه نتيجة لهذا الامتداد الحضاري الواسع، لا بد من أن يكون المسلمون قد نشروا دينهم، ومن ثم، أصبحت لغتهم العربية لغة كل هذه الأقاليم المعروفة، وكانت دهشته كبيرة – عند وصوله إلى الأرض الجديدة أو الهند كما كان يعتقد– عندما وجد من سمّاهم (الهنود) لا يتكلمون العربية! ؟ ولا تستبعد أن أولى الكلمات التي نطق بها كولومبوس ليحي بها أول من التقى بهم من سكان الأرض الجديدة الأصليين كانت التحية العربية الإسلامية "السلام عليكم".(٥١)

هكذا يبدو أن كولومبوس قد أبحر بـ (سفينة نوح) عربية، صنعت بأيدي عرب على شواطئ الأندلس، وشحنوها بكل الذخيرة الحية – البشرية وامادية – التي تحتاج إليها الرحلة، والتي لولاها لما تحقق حلم كولومبوس وبالتالي أوربا في رؤية الأرض الجديدة.

صدق المستشرق الفرنسي رينو Reinnaud حين قال: " كي يكون حكمنا على أعمال العرب سليماً، يجب أن نصعد في التاريخ إلى ما قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح، والقارة الأمريكية؛ لأننا حين ذاك سوف نتبين المكانة العظيمة لتلك الأعمال، ونصيبها من المكتشفات التي تمت فيما بعد. لقد تناول العرب مشعل العلوم، وذبالته وشيكة الانطفاء، ورعوا شعلتها المقدسة، فكانوا بذلك أدلاء ومرشدين لرجال البحر الأوربيين في القرنين الـ (٨-٩هـ = ١٤-١٥م).

هذا ينسجم مع قول أحد علماء الغرب:" إن بعض الابتكارات والاختراعات حسبناها من عملنا، ثم ثبت لنا بعد قليل أن العرب سبقونا إليها". وفي هذا السياق يقول المستشرق الفرنسي المعروف سيديو Louis P. Sedillot: " إن نتاج أفكار العرب الغزيرة ومخترعاتهم النفيسة تشهد أنهم أساتذة أهل أوربا في جميع الأشياء ".(٥٢)

هوامش الفصل الثالث

١. مصطفى مرجان، المرجع السابق، ص١٥ وما بعدها. أيضا عادل مراد، " كريستوفر كولومبوس أعظم المغامرين: إلى المجد على ظهر بغل ". في الشرق الأوسط (مجلة) العدد ٢٩٠، ١٥-٢١، كانون الثاني (يناير) ١٩٩٢م، ص٦٦.

٢. انظر عادل مراد، المرجع السابق، ج١، ص٦٦،٦٨. كذلك انظر الجزء الثاني لنفس المؤلف ونفس المصدر، العدد ٢٩١، ٢٢-٢٨، كانون الثاني (يناير) ١٩٩٢م، ص٦٦-٦٨. أيضا نعنعي، المرجع السابق، ص١٥-١٦.

٣. انظر عادل مراد، المرجع السابق، ج١، ص٦٨. نعنعي، المرجع السابق، ص١٦، نص الاتفاقية بين كولومبوس والملك فرديناند وزوجته إيزابلا. في نعنعي، المرجع نفسه، ص١٧. وقارن أبو علية، المرجع السابق، ص١١. موسوعة المعرفة العالمية، المرجع السابق، م١، ص١٤٠.

٤. تتضارب المعلومات حول المكان الذي نزل فيه كولومبوس وبحارته، كذلك الأسماء التي أطلقها على هذا المكان، ووفقاً للدراسة التي أجرتها مجلة National Geographic Magazine فإن اليابسة التي نزل فيها كولومبوس هي جزيرة معزولة في جزر الباهاما اسمها سامانا كاي. للمزيد عن الموضوع انظر Kathleen A. Deagan, "La Navidad, 1992 Searching for Columbus's Lost Colony", in Ibid, vol.172, Nov., 1987, pp. 672-675 ، كذلك انظر موسوعة المعرفة العالمية، المرجع السابق، م١، ص١٤١. أبو علية، المرجع السابق، ص ١٢؛ نعنعي، المرجع السابق، ص١٧؛ حمداني، المرجع السابق، ص٩ .

٥. موسوعة المعرفة العالمية، المرجع السابق، م١، ص١٤١-١٤٢. نعنعي، المرجع السابق، ص١٧-١٨. وانظر الدراسة الشاملة والرائعة عن النشاط والصراع الاستعماري الإسباني والفرنسي والإنجليزي على الأرض الجديدة، مزودة بخرائط متقنة للطرق البحرية التي سلكتها سفن هذه القوى ورجالها المغامرين، في: Joseph Judge, "Exploring Our Lost: Century" in National Geographic (Magazine) vol., 173, 3, March 1988, pp.331-363. Also see United States information Agency, An out line of American History, published by U.S.I.A. itself, Washington, 1994, pp. 4 ff.

٦. انظر بيان نويهض الحوت، (في معرض سيركا ١٤٩٢) بواشنطن، " نعم دائمة لحضارات عصر الاستكشاف، لا راسخة لحضارة ... العرب" الحياة (جريدة) العدد ١٠٦٠٦، شباط (فبراير) ١٩٩٢م، ص١٤. وانظر اللوحة (التحفة الفنية) التي تصور الملكة الإسبانية إيزابلا لحظة استقبالها كولومبوس في قصرها في برشلونة، إثر عودته من رحلته الأولى من العالم الجديد، في مشهد مهيب يحيط به كبار رجال الدولة، ومن خلفه الهدية التي أحضرها للملكة من أبناء العالم

Tor Eigeland, "The Tiles of Iberia" in Aramco World (Magazine): الجديد
March-April 1992, pp. 24-31. See here p. 30.

٧. نقلاً عن الحياة (جريدة) " محاكمة كريستوفر كولومبوس " العدد ١٠٦٥٢، ١١، آذار (مارس) ١٩٢٢م ، الصفحة الأخيرة . انظر أيضا وقارن محمد زياد كبة، "الهنود الحمر ماضٍ عريق وحاضر مغمور"، في القافلة (مجلة) عدد شباط وآذار (فبراير ومارس) ١٩٩٤م، ص٢٥- ٢٨ .

٨. انظر إبراهيم العريس (عرض وتعليق)، " يوم دمر الغرب ذاته وهو يعتقد أنه يدمر الآخر "، في الحياة (جريدة) العدد ١٠٦٦٥، ٢١ نيسان (أبريل) ١٩٩٢م، ص١٤.

٩. انظر عبد السلام سيد أحمد، " وداعاً يا سنة كولومبوس، ولنعد الاعتبار إلى أولئك السكان الأصليين" في الحياة (جريدة) العدد ١٠٨٧٣ ، ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٢م، ص٢١ . محمد محمد الخطابي، " وصول كولومبوس إلى العالم الجديد تصادف مع سقوط غرناطة آخر معاقل الإسلام في إسبانيا " في الشرق الأوسط (جريدة) العدد ٤٩١٥، ١٣ أيار (مايو) ١٩٩٢م، ص١٤. أيضا انظر الأندلس (مجلة) (الأندلس ٩٢ أكبر تظاهرة ثقافية عربية إسبانية) العدد ٢٣، آذار ونيسان (مارس وإبريل) ١٩٩٢م، ص٥٢-٥٨.

نقلاً عن جريدة القبس الكويتية الصادرة يوم ١ تشرين الأول (نوفمبر) ١٩٨٧م، والمقال ترجم عن جريدة الغارديان اللندنية (The Guardian) بعنوان : (محافظ المونيكار الأسبانية يسعى حثيثاً إلى استعادة هويته العربية الأندلسية له ولمواطنيه) عن المورو (العرب والمسلمين في إسبانيا) (Moorish Spain) انظر الدراسة العلمية الجادة من وجهة نظر غربية : Thomas J. Abercrombie, "When the Moors Ruled Spain" in National Geographic (Magazine), vol. 174,1 July 1988, pp.84-119.

١٠. انظر بولا دي بيرنا، "زوجة كولومبوس وراء رحلته " في الشرق الأوسط (جريدة) العدد ٤٨٤٤، ٣ آذار (مارس) ١٩٩٢م، ص١٦.

١١. انظر T.J. Abercombie, op. cit., pp.87-88. أيضا عويس، المرجع السابق، ص٥.

١٢. عاشور، المرجع السابق، ص٤٨٨-٤٩١. أيضا الطاهر أحمد مكي، " خمسة قرون على الخروج من الأندلس "، في العربي (مجلة)، العدد ٤٠٠، آذار (مارس) ١٩٩٢م، ص١٣٢-١٣٧.

وقارن: Cf. W. Wilso Cash, The Expansion of Islam- An Arab Religion in the Non-Arab World. Edinburgh House Press, London 1928, pp.77-96.See here pp. 92-95.

١٣. انظر هونكة، المرجع السابق، ص٤٧٤-٤٧٥.

١٤. انظر هونكة، المرجع السابق، ص٥٤٠-٥٤١.

١٥. انظر عاشور، المرجع السابق، ص٤٨٩. مكي، المرجع السابق، ص١٣٣.

١٦. انظر هونكة، المرجع السابق، ص٣٩٣ وما بعدها.

١٧. انظر مكي، المرجع السابق، ص١٣٢. أيضا جلال مظهر، مآثر العرب على الحضارة الأوربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٠م، ص٤٤ وما بعدها. عاشور، المرجع، ص ٤٩٠ – ٤٩١، عويس، المرجع السابق، ص٤ .

١٨. انظر بيان الحوت، المرجع السابق، ص١٤.

١٩. انظر محمد الخطابي، المرجع السابق، ص١٤. صدرت الطبعة الأولى من كتاب المستشرق الأسباني خوان بيرنيت، الإسلام في إسبانيا، من قبل دار النشر لونبيرغ، سنة ١٩٨٧م . انظر الأندلس (مجلة)، ص٥٥ .

٢٠. انظر عاشور، المرجع السابق، ص٤٩٠-٤٩١. أيضا عويس، المرجع السابق، ص٤-٥. نعمت إسماعيل علام، فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢م، ص١٠١-١٠٥.

٢١. انظر رفيق المعلوف، " روائي مكسيكي يقترح على إسبانيا الاحتفال بذكرى الفتح العربي " الحياة، العدد ١٠٦٦٨، ٢٤ نيسان (أبريل) ١٩٩٢م، الصفحة الأخيرة.

٢٢. نص العبارة باللغة الإنجليزية: "It is probably for this reason that Columbus, in his own words, considered Arabic to be the mother of all languages". See, Barwood, op. cit., p.5. and Cf. Joseph Hell, The Arab Civilisation, translated from German by Khuda Bakhsh, Cambridge, England.1925, pp. 94-121. See here pp. 98 ff.

٢٣. هونكة، المرجع السابق، ص٣٦٧-٣٦٨. أيضا : J. Hell, op. cit.., p95

٢٤. عاشور، المرجع السابق ، ص٤٨٩.

٢٥. المرجع السابق، ص ٤٩٧.

٢٦. انظر الدواليبي، المرجع السابق، ص٥٨. يقول الأستاذ إبراهيم علاوي... إن لهذا أهميته في محاولة تفسير انتقال الحروف المعينية والسبئية إلى اليونان والرومان، واكتشاف حروف فينيقية قديمة تعود إلى القرن ٧ قبل الميلاد في جزيرة ساموسثريس اليونانية. يقول مكتشف هذه الحروف: إنها أقدم الحروف المكتشفة في الجزيرة... كما وردت روايات نقلها المؤرخون اليونان والرومان القدماء عن علاقات العرب القدماء بالحضارة المانيوية (المعينية) في جزيرة كريت واشتراك قبائل (أثيوبية) في حرب طروادة. وهذه الرواية الأخيرة لها مدلولات مهمة على التاريخ العربي القديم . إذ يظهر أن شخصيات تاريخية حقيقية لعبت دوراً في تلك الحرب، وانسحبت بعد هزيمة طروادة، ثم ما لبثت أن ظهرت ضمن النقوش الأثرية في عدد من المواقع التاريخية كمؤسسة لأسر حاكمة وسدنة للمعابد وكهنة. ومن تلك الأسماء : معدود، وأزدود، ومقث... قال المسعودي: (وقد ذكر ذوو العناية بأخبار الأولين أن يونان أخو قحطان... وأنه خرج عن أرض اليمن في جماعة من ولده وأهله ومن انضاف إلى جملته حتى وافى أقاصي بلاد المغرب، = =

فأقام هناك، وأنسل من تلك الديار، واستعجم لسانه، ووازى من كان هناك في اللغة الأعجمية من الإفرنجة والروم، فزالت نسبته، وانقطع سببه، وصار منسياً في ديار اليمن غير معروف عند النسابيين منهم). وذكر المسعودي أيضا أن الفيلسوف يعقوب بن إسحاق الكندي (كان يذهب في نسب يونان إلى ما ذكرنا من أنه أخ لقحطان، ويحتج لذلك بأخبار يذكرها في بدء الأنساب) انظر علاوي، المرجع السابق، ص١٩.

٢٧. انظر هونكة، المرجع السابق، ص٤٠١. أيضا عاشور، المرجع السابق، ص٤٩٩. عبد الرحيم عبد الرحيم، معالم التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، ط٢، دار المتنبي للنشر، الدوحة (قطر) ١٩٨٢م، ص٧٩-٨٣. وقارن دان ليسي، الثورة الأمريكية دوافعها ومغزاها، ترجمة سامي ناشد، ج١، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ،١٩٦٦م، ص ١١ وما بعدها. انظر هنا: ص١٨-١٩.

٢٨. انظر ليسي، المرجع السابق، ص١٥ وما بعدها. هونكة، المرجع السابق، ص٣٩٩-٤٠٢. وانظر كذلك محمد أحمد دهمان، (علم الساعات والعمل بها) في البصائر (مجلة تبحث في التراث الشرقي، تصدر عن الاتحاد الثقافي في فرنسا) العدد٤، ١٩٨٥م، ص٧-١١٢. انظر هنا: ص١٨ وما بعدها. وقارن: T. Eigeland op. cit., pp.30 ff

٢٩. انظر Barwood, op. cit., p.8. And cf. The Times Atlas of the World, Times Books London in Collaboration with John Bartholomew and Son Limited, 6th Ed.,London, 1980, pp.ix-x .

٣٠. انظر Barwood, op. cit. pp. 6-7. للدراسة والتوسع انظر نفيس أحمد، جهود المسلمين في الجغرافيا، ترجمة فتحي عثمان، القاهرة، دار القلم، ١٩٤٧م، عيسى القطامي (جامع وناشر) دليل المحتار في علم البحار، ط٣، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٩٦٤م .

٣١. لتثمين شيق وموجز عن ابن بطوطة ورحلته، انظر هونكة، المرجع السابق، ص٤١٨-٤٦٢ . أيضا عاشور، المرجع السابق، ص٥١٠. الفندي، المرجع السابق، ص٢٩٢-٢٩٤. للدراسة والتوسع انظر نقولا زيادة، الجغرافيا والرحلات عند العرب، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٢م؛ أحمد أبو سعد، أدب الرحلات، دار الشرق الجديد، بيروت، ١٩٦٢م؛ كتاب ياقوت الحموي، معجم البلدان، حرره فستنفلد، ليبزغ (بروكهاوس) ١٨٦٦-١٨٧٣م، وأعاد تحريره محمد أمين الخانجي (جمالي وخانجي) القاهرة ١٩٠٦م، وطبعته دار صادر، بيروت ١٩٥٥-١٩٥٧م، انظر هنا : Barwood, op. cit., p 7. Also see and cf. M. Nakosteen, op. cit. P155. Hodgson, op. cit., vol.2, The Expansion of Islam, pp.168 ff.

٣٢. عن قضية إرشاد ابن ماجد لفاسكو دي جاما إلى طريق الهند، وما أثير حولها من تساؤلات وشبهات، انظر محمد محمود محمدين، " تساؤلات حول قضية إرشاد ابن ماجد لفاسكو دي= =

جاما إلى طريق الهند " في مجلة كلية الآداب، م٦، جامعة الرياض (الملك سعود) الرياض، ١٩٧٩م، ص٥٥-٦٨. انظر كذلك: المرجع السابق، ص٣٠٧-٣١٣. انظر هنا: ص٣٠٧. للمزيد عن الموضوع انظر Gabriel Fernand, Le Pilote Arabe De Vasco de Gama et Les instructions nautiqes des Aravers au Ve Siecle. Annales de Geographic. xxx le anee No. 172, Juillet, 1992, pp.289-307.

٣٣. انظر Barwood, op. cit., p.8. كذلك هونكة، المرجع السابق، ص٤١٨. أراتوس عالم الفلك اليوناني (الليبي المولد) هو القائل بأن البحر الغربي (الأطلنطي) يتصل بالبحر الشرقي (الهندي) حول الطرف الجنوبي من أفريقيا. للمزيد انظر فوزي، المرجع السابق، ص٣٠٧.

٣٤. انظر Barwood, op. cit., p.8. انظر أيضا: الدواليبي، المرجع السابق، ص٧٦. هونكة، المرجع السابق، ص١١٩ وما بعدها. نعنعي، المرجع السابق، ص٨.

٣٥. انظر عويس، المرجع السابق، ص٦.

٣٦. انظر الدواليبي، المرجع السابق، ص٧٦-٧٧. للمزيد انظر هونكة، المرجع السابق، ص١١٣ وما بعدها. الفندي، المرجع السابق، ص٢٦٥-٢٦٧.

٣٧. انظر عاشور، المرجع السابق، ص٥٠٧-٥٠٨. أيضا فوزي، المرجع السابق، ص٣٢١. وقارن: Nakosteen, op. cit., pp. 150-157. See here p. 155.

٣٨. انظر عويس، المرجع السابق، ص٥.

٣٩. انظر Barwood, op. cit., pp.7,9. كذلك عبد العليم، المرجع السابق، ص٤٤ و ٥٧-٥٨. أيضا انظر فوزي، المرجع السابق، ص٣٢٢. للمزيد انظر كتاب صورة الأرض، ط٢، تحرير كريمر، ليدن (أبريل) ١٩٣٨م، عن قبة أرين انظر نفس المرجع، ص٥٨، الهامش رقم ١. أيضا الدفاع، المرجع السابق، ص ٤٤ .

٤٠. انظر عبد العليم، المرجع السابق، ص٥٧ وما بعدها. وعن المرشدات البحرية (الملاحية) عند العرب، انظر ، ص٥٠-٥٦، ١٢١-١٤٧. انظر هنا ص٥٢. وقارن هونكة، المرجع السابق، ص٥٢.

٤١. انظر إحسان جعفر، المرجع السابق، ص٩٩-١٠٠.

٤٢. انظر عاشور، المرجع السابق، ص٥٠٩. للمزيد عن الإسطرلاب انظر عبد العليم، المرجع السابق، ص١٦٩-١٨٠. انظر هنا ص١٧٠. وأول عربي مسلم اخترع الإسطرلاب هو المحدث الفقيه إبراهيم بن محمد أبو إسحاق الفزاري (ت ١٨٨هـ = ٨٠٣م)، وولده محمد (ت ١٨٠هـ=٧٩٦م) كان أول فلكي كبير في الإسلام. انظر الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ=١٤٤٩م) تهذيب التهذيب، ج١، دار صادر، بيروت، د.ت.، ص١٥٢. أيضا انظر هونكة، المرجع السابق، ص١٠٤، هامش٩. كذلك المنجد في اللغة والإعلام، ط٢٨، المرجع

السابق، ص٥٢٧. وقارن ابن حزم الأندلسي (أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد) (ت ٤٥٦هـ = ١٠٦٣م) جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م، ص٢٥٩. ومن أشهر مخترعي الإسطرلاب من العرب المسلمين أيضا، إبراهيم بن الزرقالي (ت ٤٨٠هـ = ١٠٨٧م) ومحمد بن أبي بكر الفارسي (ت ٦١٨هـ = ١٢٢١م)، وإسطرلاب الفارسي موجود الآن ضمن مقتنيات متحف العلوم في مدينة اكسفورد الإنجليزية. انظر هونكة، المرجع السابق، ص ١٣٧-١٤٢، ١٤٩، الهامش ٥١.

٤٣. انظر Barwood, op. cit., p 9 . أيضا هونكة، المرجع السابق، ص١٤٨-١٤٩، ص٤١٦-٤١٨ .

٤٤. يقول حوراني: (... وثمة شيئ آخر يمكن يدل على أن العرب جاءوا بالشراع المثلث إلى البحر المتوسط هو الاسم الإيطالي (Mizzen) وهو أصل (Misaine) في الفرنسية و(Mizzen) في الإنجليزية الخ... وقد قيل أن الـ (Mezzena) من كلمة ميزان العربية، وأن صاري المظين (مع الشراع المثلث) الذي نجده في السفن الإيطالية التي ترجع إلى أواخر القرون الوسطى أخذ عن أصل عربي سمي ميزاناً، لأنه صار إضافي يوازن الصاري الأساسي. انظر حوراني، المرجع السابق، ص٢٧١-٢٧٢.

٤٥. انظر حوراني، المرجع السابق، ص٢٧٢-٢٧٣. عن الكشوف الجغرافية من وجهة نظر غربية حديثة انظر Paul Lunde, (The Middle East and the Age of Discovery), (Special Issue), in Aramco World (Magazine), vol.43, No.3, May-June 1992.Passim.

٤٦. انظر قلعجي، المرجع السابق، ص٢١.

٤٧. انظر عويس، المرجع السابق، ص٦. أيضا هونكة، المرجع السابق، ص١٥١.

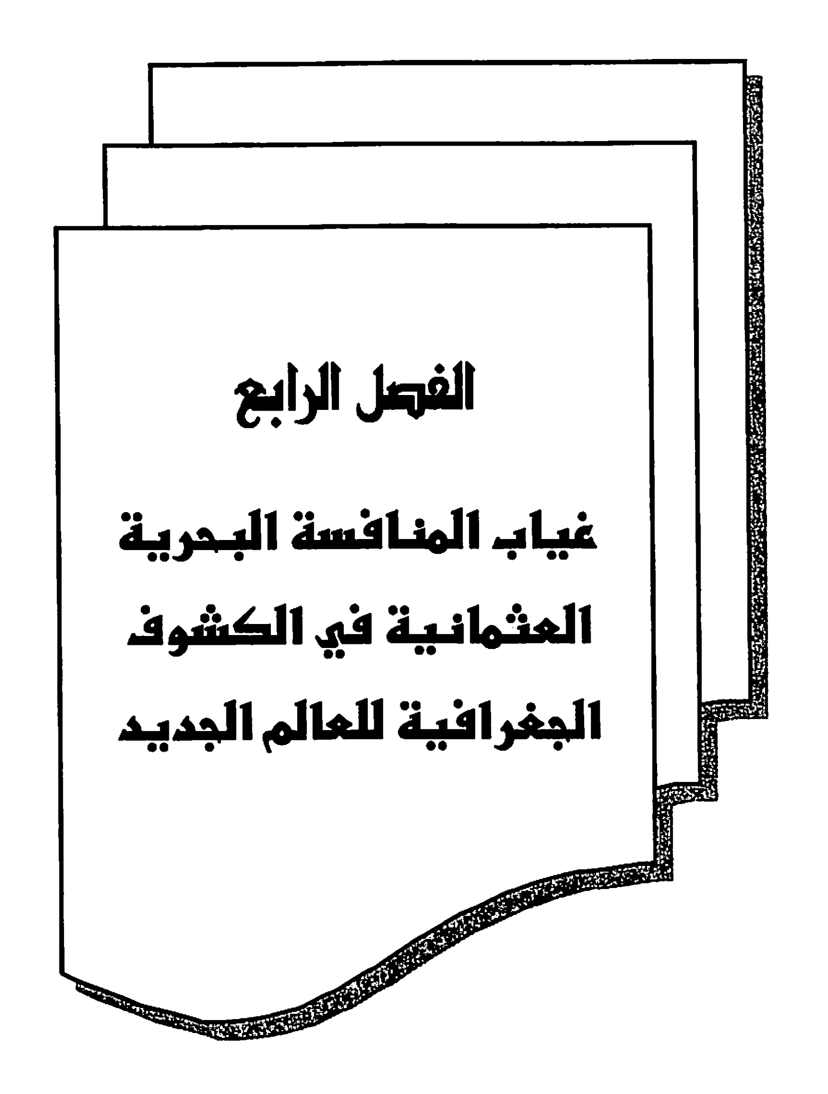
٤٨. انظر Barwood, op. cit., p 9 . وقارن في الشرق الأوسط (جريدة) " أضواء جديدة على المغامر (الأسباني) المستكشف كريسطوبال كولومبوس" العدد ٤٦٠٠، ٣ تموز (يوليو) ١٩٩١م، ص٢٢.

٤٩. انظر وقارن طلعت شاهين، "سيمون الحايك: أول من شاهد أمريكا مورسكي عربي"، في الحياة (جريدة) العدد ١٠٩٣٣ ، ١٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٩٣م، ص٢١ .

٥٠. النص الإنجليزي :

Columbus on stepping ashore in the New World were the Arabic greeting See Barwood, op. cit., pp.2-3.

٥١. انظر فوزي، المرجع السابق، ص٣٢٣. أيضا الدوليبي، المرجع السابق، ص٦٨-٦٩.


الفصل الرابع
غياب المنافسة البحرية
العثمانية في الكشوف
الجغرافية للعالم الجديد

الفصل الرابع

تساؤلات حول أسباب غياب المنافسة البحرية العثمانية في الكشوف الجغرافية للعالم الجديد

(٨٩٨-٩٧٤هـ = ١٤٩٣-١٥٦٦م)

تمهيد :

ما زالت الدوافع والأسباب الكامنة وراء توقف الزحف العثماني باتجاه الغرب، والتحول المفاجئ إلى الشرق - نحو الوطن العربي بخاصة سنة (٩٢٢ هـ = ١٥١٦م) - مثار دهشة وتساؤلات للعديد من المؤرخين على مختلف مشاربهم ومدارسهم، ولعل في بعض هذه التساؤلات - إن لم يكن في كلها - ما يبررها. كون هذا التحول العثماني المفاجئ شطر الشرق، جاء مع بلوغ الدولة العثمانية عصرها الذهبي، وصولاً إلى ذروة قوة ونهضة شاملة، حاكت - إن لم يكن تفوقت على- ما يجري في أوربا من نهضة حديثة لامست مختلف جوانب الحياة فيها، والتي جاء من رحمها حركة الكشوف الجغرافية الكبرى، وإذا كانت هذه النهضة الأوربية حظيت باحتشاد أمم أوربا المسيحية من ورائها، دعماً وتشجيعاً وتضحيةً، وفر لها كل أسباب النجاح، حيث شكلت في نهايتها منعطفاً تاريخياً، انعكست آثاره إيجاباً على مجمل أوضاع الحياة الحيوية للغرب بعامة، من اقتصادية واجتماعية وفكرية ودينية ثم لتجعل من عالم الغرب عالماً أولاً متقدماً، ومن عالم الشرق (العربي الإسلامي) عالماً ثالثاً (نامياً)، فإنه في الوقت نفسه، حظيت الدولة العثمانية باحتشاد الأمة الإسلامية من ورائها، بعد أن رأى فيها العرب والمسلمون دولة إسلامية عظيمة، خليقة باحترامهم وثقتهم، وهي النظرة التي عكست رضا العثمانيين وإعجابهم بأنفسهم، حماة للإسلام، ودوله، وشعوبه، ليترتب على هذا الشعور حماساً عثمانياً منقطع النظير، موجهاً ضد الأطماع الأوربية الصليبية في البلاد الإسلامية، ومع أن الدولة العثمانية حققت التوازن الاستراتيجي في مختلف الميادين الاقتصادية والحربية مع أوربا، إلا أنها غابت - ولا ندري بالدقة سبب هذا الغياب - عن أهم ميدان من الميادين، التي صاغت - وقتئذ -

مستقبل العالم وشعوبه، ونعني بها الكشوف الجغرافية الكبرى، التي انطلقت نحو العالم الجديد، بزعامة أوربية كاملة، دون مشاركة إسلامية، لم يكن لأحد أن يمثلها – يومئذ – سوى الدولة العثمانية القوية، وكان للغياب العثماني الإسلامي، أثره في حرمان أمتنا من المشاركة في حصة من ثروات هذا العالم وموقعه الجغرافي المتميز، الذي حقق لأوربا بالتأكيد امتيازات هائلة على كل الأصعدة، ولتترك بيننا وبين الغرب المسيحي مسافة (مادية) شاسعة، قد نحتاج إلى قطعها للحاق به، لعشرات السنين إن لم يكن أكثر.

والمؤسف أن الغياب العثماني جاء – كما تقدم – في ذروة تفوق العثمانيين وعصرهم الذهبي، ولا أدل على مقدمات هذا التفوق من فتح القسطنطينية (٨٧٥هـ = ١٤٥٣م)، الذي وضع فيه محمد الفاتح (٨٥٥-٨٨٦هـ = ١٤٥١-١٤٨١م) نهاية للدولة البيزنطية. وأكمل با يزيد الثاني (٨٨٦-٩١٨هـ = ١٤٨١-١٥١٢م) اكتساح معظم بلاد البلقان وشرق أوربا كله، وليهيمن في الوقت نفسه، على الطريق البري المؤدي إلى القرم(١). ويكفي أنه حين توفي سليمان القانوني (٩٢٧-٩٧٤هـ =١٥٢٠-١٥٦٦م)، كان العثمانيون مزهوين بالإنجازات التاريخية، التي حققوها خلال قرنين ونيف من الزمان بضمهم الوطن العربي إلى العالم اليوناني (الأوربي).(٢)

وهنا تأتي أهمية طرح تساؤلات حول ماهية الأسباب والدوافع، التي جعلت الدولة العثمانية تولي وجهها شطر الوطن العربي، في الوقت الذي بلغت فيه أوج تفوقها على أوربا! كما تنطوي هذه التساؤلات على سؤال كبير وضاغط، كيف تغفل دولة بحجم الدولة العثمانية عن حركة الكشوف والاستعمار في القارة الأمريكية، وهي أمام سمعها وبصرها؟ ومسؤولية مَنْ أن تخسر أمتنا موقعاً في هذه الكشوف، التي تعد نقلة نوعية كبرى في تطور الحضارة الإنسانية (المادية منها بخاصة)، بعد أن أصبحت الدولة العثمانية نفسها – وفي عصرها الذهبي – المرجعية السياسية الوحيدة للأمة الإسلامية؟! فهل كتب التاريخ كافية وحدها لتسعفنا بالوصول إلى إجابات محددة وشافية لتساؤلاتنا حول ما يمكن أن يكون تقصيراً عثمانياً ما، تمثل في غياب البحرية العثمانية عن المنافسة في السباق مع أوربا إلى العالم الجديد؟ إنه ليس أمامنا ملف آخر غيره، نفتحه لاستنطاقه في قراءة متأنية مستوعبة فاحصة، لا تلوى فيها عنق الحقيقة بغرض

الوصول إلى نتائج وأحكام مسبقة، إن الالتزام بالأمانة والحيدة والموضوعية والمنهجية العلمية المترفعة عن الأهواء الشخصية ستكون سبيلنا (بإذن الله) لعرض موضوع بحثنا، للوصول إلى أقرب ما يكون من الحقيقة حلوها أم مرها.

اتفق المؤرخون على مجموعة من التساؤلات والاستنتاجات حول الدوافع التي حولت اتجاه الدولة العثمانية المفاجئ من الغرب إلى الشرق، بدخول الأقطار العربية بخاصة، ومن هذه الاستنتاجات والتساؤلات ما يلي:

أ- هل الدولة العثمانية وصلت إلى آخر مدىً يمكن أن تصله غرباً في أوربا؟ وأصبحت في وضع كَمَنْ وصل إلى منتصف سجادة مطوية، كُلٌّ أَخَذَ منها بطرف، فيتحقق تعادل القوى، فلا يستطيع أي منهما إحراز أي تقدم على حساب الطرف الآخر.

ب- أم أن أحوال الوطن العربي (المهيض الجناح) الذي عانى منذ سقوط الخلافة العباسية (٦٥٦هـ = ١٢٥٨م) - وحتى عشية دخول العثمانيين إليه (٩٢٢هـ = ١٥١٦م) - من الفوضى والإعياء الشديدين، هيأت للدولة العثمانية الأسباب للتوسع على حسابه؟

ج- أم أن الأطماع الأوربية في الوطن العربي مشرقه ومغربه على حد سواء، والمتمثلة عصرئذ، بالبرتغال والأسبان وفرسان القديس يوحنا، عجلت بالزحف العثماني نحو الوطن العربي؟

د- أم أن الدافع هو الوقوف أمام الخطر الصفوي المتعاظم في إيران، الذي أخذ يتجه نحو التوسع في العالم العربي والإسلامي، خصوصاً في بلاد الشام ومصر، مما يجعل ظهر الدولة العثمانية من الجهة الشرقية مكشوفاً ومهدداً من الخلف، من هذا الخطر الصفوي المستجد؟

هـ- أم هو رغبة سلاطين آل عثمان في تكوين (إمبراطورية) دولة عظمى مترامية الأطراف، تحاكي الإمبراطوريات السابقة وتتعالى عليها؟ (٣) ونضيف بدورنا هنا تساؤلاتنا وفرضياتنا التاريخية، التي قد تكمن وراء هذه الدوافع، وهي

الأساس العام الذي بنينا عليه منهج الدراسة ونتائجها مع تناول أهم الآراء التي تشي بها:

أ- هل كان الدافع – للتحول المفاجئ في ذهنية الدولة العثمانية التوقف نحو الاتجاه غرباً للتوجه شرقاً – فهم ما طرأ على قوة أوربا العسكرية والاقتصادية من نمو متزايد ؟ وهو ما وشت به حركة الكشوف والاستعمار الأوربي في العالم الجديد، مما دفع العثمانيين إلى استغلال هذا الانشغال الأوربي بالقارة الجديدة للاستيلاء على الوطن العربي، الحلقة الأضعف، في صراع الأقوياء للبحث عن ضم أراض جديدة وغنية... وربما قد أدرك العثمانيون عدم نديتهم وقدرتهم على تنافس وصراع القوى الأوربية في الكشوف وراء المحيطات، فكان الوطن العربي تعويضاً لهم عن هذا الابتعاد عن ساحة الكشوف الكبرى، وإرضاء لتطلعاتهم في التوسع والعظمة![٤]

ب- أم أن هناك صفقة ما تمت بين الغرب الأوربي والدولة العثمانية، في أن تصمت الدولة العثمانية على كشوف أوربا وراء المحيطات غرباً، مقابل أن تصمت أوربا على التوسع العثماني شرقاً؟

ومن الملاحظ أن مثل هذه الصفقات ليست غريبة على أوربا، السرية منها والعلنية، قديماً وحديثاً، وأشهرها حديثاً، الصفقة السرية التي تمت بين فرنسا وبريطانيا على حساب الدولة العثمانية نفسها، والشهيرة باتفاقية "سايكس بيكو" The Sykes Picot Agreement (١٣٣٥هـ=١٩١٦م)، التي تم بموجبها تقسيم الأقطار العربية (العثمانية) بينهما، كما شهدت أواخر العصور الوسطى توقيع معاهدة "توردسيلا" Tordesillas بين الأسبان والبرتغال، معطية حق الكشوف غرباً للأسبان، وحق الكشوف شرقاً للبرتغال!؟ وحسبنا هنا، القول المأثور لـ ونستون تشرشل Winston Churchill (رئيس وزراء بريطانيا) (١٣٥٩-١٣٦٥هـ = ١٩٤٠-١٩٤٥م) و (١٣٧١-١٣٧٥هـ=١٩٥١-١٩٥٥م) قوله: "لا توجد هناك صداقات دائمة ولا عداوات دائمة، إنما مصالح دائمة"، وهذا المبدأ ينم عن ثوابت السياسة الغربية في التعامل مع الآخرين. أما ثالثة الأثافي من الاتفاقيات المعلنة، فكانت "اتفاقية الامتيازات

الأجنبية" التي عقدت أولاها بين فرنسوا الأول ملك فرنسا Francois 1 وبين السلطان العثماني سليمان القانوني سنة (٩٤٢هـ=١٥٣٥م) (عن هذه الاتفاقية والآثار المترتبة عليها انظر فيما يلي ص ١٩٨).

أياً كان الأمر، فإننا سنحاول هنا أن نستعرض بتقص علمي دقيق فرضية التقصير العثماني في ميدان الكشوف الجغرافية الأوربية الكبرى ما وراء المحيطات، على الرغم من امتلاكه – ساعتئذ – الوسائل والإمكانات الكبيرة، التي تؤهله لدخول ميدان المنافسة والمبارزة بندية واقتدار. ومن المؤلم، أنه في الوقت الذي غابت فيه أساطيل الدولة العثمانية الإسلامية من الناحية العملية، عن حلبة السباق البحري نحو العالم الجديد، فإن أمتنا العربية الإسلامية لم تغب عنها أبداً من الناحية العلمية، فعلومنا الجغرافية والفلكية والملاحية... كانت سببا رئيسياً في إيصال رواد الكشوف الجغرافية الكبرى من الأوربيين إلى المجهول في الدنيا القديمة والجديدة، لذلك، ومن أجل التعامل مع هذه الإشكالية التاريخية وفك غموضها وضبابيتها، لا بد من تتبع منطقي للحيثيات التاريخية التي شكلت معالم القوة للدولة العثمانية، مروراً برصد تاريخ تطور البحرية العثمانية، ومن ثم النظر في أسباب هذا التقصير، الذي ترتبت عليه نتائج سلبية، انعكست على حاضر أمتنا ومستقبلها، ومن ثم على كاهل مَنْ مِنْ سلاطين بني عثمان صانعي العصر الذهبي للدولة العثمانية تقع مسؤولية هذا التقصير، حتى يتسنى لنا في ضوء معرفة هذا كله، التوصل إلى إصدار حكم محايد، سواء أكان الحكم في صالح الدولة العثمانية – ممثلة برموزها الذين عاصروا حركة الكشوف الجغرافية الكبرى – أم ضدها، حكماً قابلاً للتمييز والمناقشة العلمية الموضوعية، إن تطلب الأمر العودة إلى هذا الملف للمراجعة والمرافعة، فيما يخص هذه الإشكالية التاريخية تحديداً.

الدولة العثمانية النشأة والارتقاء – لمحة موجزة :

بسقوط الدولة العباسية (الخلافة) (٦٥٦هـ=١٢٥٨م)، فقد العرب مرجعيتهم السياسية، ليدخل الوطن العربي برمته، وعلى مدى ٢٥٨ سنة – من سقوط الدولة العباسية، وحتى استيلاء العثمانيين عليه (٩٢٢هـ=١٥١٦م)- في حالة من الفوضى

العارمة، حيث عمت الانقسامات الداخلية مشرق الوطن العربي ومغربه، ولم يخفف من وطأة هذه الأحداث التاريخية الجسام سوى هزيمة المغول على يد المماليك في موقعة عين جالوت في فلسطين سنة (٦٥٨هـ= ١٢٦٠م)، ليهيمن المماليك بدورهم على مصر والشام، فضلاً عن إقرار الحجاز واليمن بالتبعية والسيادة لهم، ومن ثم لتنتقل المرجعية العربية للرعايا العرب في هذه المناطق إلى القاهرة. أما باقي رعايا الأقطار العربية الأخرى، فكانت مرجعيتهم السياسية رؤساء القبائل والأسر الحاكمة.(٥) وبقيت أمتنا العربية على هذه الحالة، حتى دخول العثمانيين الوطن العربي (٩٢٢هـ= ١٥١٦م)، لتنتقل المرجعية العربية السياسية – منذ هذا التاريخ – إلى خارج الوطن العربي، إلى استانبول (إسلام بول) في أوربا الشرقية تحديداً.

وقد بقي الوطن العربي على هذه المرجعية السياسية ما يزيد على أربعمائة سنة – باستثناء بعض الأقطار منه، خضعت مبكراً لقوى استعمارية أوربية(٦)– حتى نهاية الحرب العالمية الأولى (١٣٣٣-١٣٣٧هـ=١٩١٤-١٩١٨م) حيث كان من نتائج هذه الحرب وإفرازاتها انتهاء الوجود العثماني في الوطن العربي، وليبدأ العرب كتابة صفحة جديدة من تاريخهم الحديث، باحثين وسط دخان الحرب الأسود ولظاها عن هويتهم، وتقرير مصيرهم في ضوء المستجدات والمتغيرات، والمصالح السياسية للدول الأوربية المنتصرة في هذه الحرب الكونية الأولى.(٧)

مهما يكن من أمر، فإنه من المسلم به، أن نشأة الدولة العثمانية وانطلاقتها كانت أوربية، وتحديداً من الأناضول، أو ما يعرف بشبه جزيرة آسيا الصغرى، حيث قامت على أنقاض الدولة البيزنطية المتداعية (الإمبراطورية الرومانية الشرقية)، وجاء ظهور شخصية الدولة العثمانية في هذا الجزء من العالم، متزامناً مع نهاية الحروب الصليبية (٤٨٩-٦٩١هـ = ١٠٩٥-١٢٩١م)، وكارثة سقوط الدولة العباسية (الخلافة) والدويلات العربية الإسلامية المرتبطة بها، في هذا الوقت، بدأت تظهر ملامح أول طور من الأطوار التاريخية لإمارة عثمانية متواضعة في الأناضول (البيزنطي)، حيث ما لبثت أن تحولت في فترة من فترات التاريخ الإسلامي العام إلى دولة إسلامية عظمى بكل ما تعنيه الكلمة من معان وأبعاد. ولترث بطريقة أو أخرى تركة حضارية

– مادية وأدبية – مأخوذة من جوهر الحضارة العربية الإسلامية، ومتأثرة بالحضـارتين الفارسيـة والبيزنطية.[٨]

ولعـل التفـوق الحربـي العثمـاني منـذ تأسـيس عثمـان الأول (٧٠٠-٧٢٧هـ=١٣٠٠-١٣٢٦م)[٩] للإمارة، وحتى وفـاة سـليمان القـانوني (٩٧٤هـ=١٥٦٦م)، أي ما يقرب من٢٦٦ سنة، يعود الفضل فيه إلى ما قام به الأسطول العثماني الحربي من دور تاريخي مهم في تأمين وتثبيت دعائم الدولة غرباً وشرقاً براً وبحـراً.[١٠]

وبما أن الموضوع يقتصر على دور البحرية العثمانية تحديـداً، والبحـث عـن أسباب غياب هذا الدور الميداني في الكشوف الجغرافية وراء المحيطات. ومن ثم تـرك الحبل على الغارب للقوى الأوربية في هذا المعترك المهم، فإننا سنركز، والحالة هـذه، على هذا الجانب، بيد أننا سنتناول في ثنايا الموضوع، مجمل الأسباب الأخـرى التـي جاءت على شكل تساؤلات وفرضيات تاريخية علمية.

من المحقق أن حركة الكشوف الجغرافية الأوربية الكبرى فـي العـالم الجديـد بخاصة، وقعت قبيل دخول العثمانيين الأقطار العربية، لكنها في الوقت نفسه، جـاءت متزامنة مع ذروة تفوق العسكرية العثمانية براً وبحراً. ونحن قبل فتح صفحة البحريـة العثمانية، وغياب دورها في سباق البحرية الأوربية غرباً، نحو النصـف الثـاني مـن الكرة الأرضية، لا ننكر الإيجابيات الكثيرة لهذه الدولة الإسلامية، التي كـانت بلادنـا العربية جزءاً لا يتجزأ من تاريخها العام، وهو التاريخ الذي يحمل في طياتـه أيضـاً صفحات مضيئة مشرقة محمودة.. والآن علينا أن نلج بوابة البحرية العثمانية للتعـرف على مكانتها الحربية ودورها الحقيقي داخل المؤسسة العسكرية العثمانية.

الجذور التاريخية للبحرية العثمانية :

يُتَّهَم العثمانيون والمسلمون عموماً بأنهم أمة غير بحرية، وهذا يتناقض كلياً مـع تاريخ العرب والمسلمين البحري العريق، الذي يزخر ويفيض كالبحر العبـاب بآيـات فضلهم على الإنسانية في هذا الميدان الرحب، ولا يتسع المكان هنا للـرد علـى هـذه

التهم، لأنها فكرة، خاطئة ووجهة نظر باطلة، أملتها روح الجهل والتعصب الأعمى ضد كل ما هو عربي إسلامي.

لكن حسبنا رد هنا، أن البحرية العثمانية لم تأت من فراغ، فهي ورثت كابراً عن كابر تجربة وخبرة بحرية عربية إسلامية رائدة، سبقت قيامها بمئات السنين أو قل آلافاً من السنين!! ويكفينا أن تاريخ بحريتها تتصل جذوره العميقة بتاريخ البحرية العربية الإسلامية الأولى، الذي واكب انتشار الإسلام في الخافقين. وحيث لم تكن البحرية العثمانية سوى امتدادٍ له وتجديدٍ، وحلقة من حلقاته المتواصلة القوية. ولا غرو، فقد كان للعرب المسلمين أساطيلهم البحرية المتقدمة منذ عهد الخلفاء الراشدين، هذا وقد عمل الأمويون في الشام ثم في الأندلس، وورثهم العباسيون في بغداد، ثم المماليك في القاهرة على الاهتمام بالأسطول الإسلامي وتحديثه وتقويته على نحو دائم، ليجاري تطورات العصر البحرية.[١١]

من هذا المعين الوافر الغني بفن علم الملاحة البحرية عند المتقدمين من العرب المسلمين، أخذ العثمانيون آيات علومهم البحرية والملاحية وبناء " الجوار (والقصور) المنشآت في البحر كالأعلام،" وتتفق آراء المؤرخين هنا، على أن الدولة العثمانية بنت قوتها البحرية جنباً إلى جنب مع قوتها البرية، وقد يكون من الصحة بمكان القول، بأن الدولة العثمانية، لم تكن تملك قوة بحرية فعالة عند نشأتها، وحتى قبيل سقوط القسطنطينية (٨٥٧هـ=١٤٥٣م)، لكن الحقيقة شبه المسلم بها، أن الدولة العثمانية كان لها نشاط بحري مؤثر خلال هذه الحقبة الزمنية، وهي المرحلة التي مهدت لتطوير الأسطول العثماني الحربي والتجاري، وصولاً به – في الفترة الممتدة من عهد محمد الفاتح (٨٥٥-٨٨٦هـ = ١٤٥١-١٤٨١م)، وحتى وفاة سليمان القانوني (٩٧٤هـ =١٥٦٦م)- إلى أوج التفوق في بحار العالم القديم، والسيطرة شبه التامة على البحرين المتوسط والأحمر.[١٢]

ويمكن لنا تتبع تاريخ نشأة ونموها البحرية العثمانية – بصورة موجزة – من خلال تقسيمه إلى مراحل زمنية ثلاث، لنتعرف على مدى قدرة الأسطول العثماني في

لَمّ دور الشريك في حركة الاكتشافات ما وراء المحيطات، وهو الدور الذي لـم يلعبه أبداً؟!

المرحلة الأولى (٧٠٣- ٨٥٥هـ=١٣٠٣- ١٤٥١م) :

تمتد هذه المرحلة الزمنية، من عهد عثمان الأول مؤسس الكيان العثماني، إلـى بداية عهد محمد الفاتح، حيث تتضح فيها ملامح الجذور التاريخية للبحرية العثمانية، ونشاطها الملحوظ في تأسيس الدولة وتوسعها. ونلمس هذه الملامح، وهذا النشاط البحري منذ الأيام الأولى لعهد المؤسس عثمان الأول. حيث أدرك أهمية السفن الحربية في تحقيق توسيع أملاكه في الأناضول على حساب الدولة البيزنطية المتآكلة، فاستعان لهذا الغرض بالسفن الحربية التابعة لأمراء آيدين وصاروخان(١٣) لغزو الجزر اليونانية.(١٤) وقد سار خليفته ابنه اورخان (٧٢٧-٧٦٢هـ=١٣٢٦-١٣٦٠م) على خطى والده، فما أن استولى على بروسا (بورصا) (٧٢٧هـ= ١٣٢٦م) ذات الموقع الاستراتيجي على الساحل الجنوبي الشرقي لبحر مرمرة، حتى اتخذها عاصمة لدولته، ليطل منها مهددا بسفنه الحربية المتواضعة سواحل البحر الأسود على امتدادها.(١٥) ومع اعتلاء مراد الأول (٧٦٢-٧٩١هـ=١٣٦٠-١٣٨٨م) كرسي الحكم خلفاً لوالده، حتى زاد اهتمامه بالأسطول الحربي، وعَوّل عليه – بعد أن أوجد له والده قاعدة صلبة للتوسع في أوربا – في فتح مدينة أدرنة البيزنطية الحصينة سنه (٧٦٣هـ=١٣٦١م)، وبهذا الفتح أصبحت مقدونيا وتراقيا(١٦) أراضي عثمانية، في الوقت الذي لعب فيه الأسطول العثماني دوراً مهماً في ربط شطري الأراضي العثمانية الممتدة من الأناضول الآسيوي إلى أوربا الشرقية بعضها ببعض، وقد مهد هذا الدور الطريق إلى فتح بلغاريا وصربيا، بإحراز مراد الأول نصراً تاريخياً على الصرب في سهل قوصوة (كوسوفو) سنة (٧٩١هـ= ١٣٨٨م)، وإن كان مراد قد دفع حياته ثمناً لهذا النصر المبين.(١٧)

وفي ارض المعركة نادى الجيش العثماني المنتصر، بتنصيب ابنه با يزيد الأول الشهير بلقب (يلدروم = الصاعقة) (٧٩١-٨٠٥هـ= ١٣٨٨-١٤٠٢م)، وقد شهد

عصر با يزيد تحديثاً للأسطول وزيادة قطعه الحربية، حتى وصلت إلى أكثر من ستين قطعة حربية ضخمة، مرهوبة الجانب، كان يحسب لها الغرب كل حساب. وأدى هذا التفوق للأسطول العثماني في عهد با يزيد إلى قيامه بحملة واسعة النطاق لتطهير شواطئ بحر إيجه من بقايا الروم، ومن ثم ليضم العثمانيون إلى أملاكهم أهم الموانئ على سواحل هذا البحر الإيجي نفسه.[١٨] وقد شجع هذا با يزيد على حصار القسطنطينية نفسها، لمدة خمسة سنوات، كاد أن يكون له شرف فتحها – بعد أن أشرفت على السقوط والاستسلام له – لولا إغارة تيمورلنك المفاجئة من الشرق سنة (٨٠٣هـ=١٤٠٠م) على الأراضي العثمانية في آسيا الصغرى، مما اضطر با يزيد لفك الحصار عنها[١٩] والتوجه بجيوشه التي حشدها على وجه السرعة، لملاقاة جيش تيمورلنك، لتنتهي المواجهة العسكرية بين الجيشين العثماني بزعامة با يزيد الأول، والمغولي بزعامة تيمورلنك، والتي تمت بالقرب من مدينة أنقرة سنة (٨٠٥هـ=١٤٠٢م) بهزيمة نكراء للجيوش العثمانية، وشبه كارثة، وانهيار شامل للدولة العثمانية نفسها. وبما أن المقام هنا لا يتسع لتفصيل المقال، فإنه يمكن للراغب في الزيادة والتفاصيل أن يجدها في عدد وافر من المصادر والمراجع العلمية الرصينة، التي تكفلت بتحليلها وتحديد أسبابها وتثمين أبعادها التاريخية، على مجمل أحوال الدولة العثمانية عهدئذ.[٢٠]

استفاقت الدولة العثمانية سريعاً من هول هذه الكارثة. ولعقت جراحها بتولي محمد الأول (٨٠٥-٨٢٤هـ=١٤٠٢-١٤٢١م) الابن الأصغر لبا يزيد الأول مهام الحكم، وانشغل طوال عهده في إخماد الفتن الداخلية، واسترجاع الإمارات التي انسلخت عن الدولة بفعل الكارثة، لكن على الرغم من انشغاله في ترتيب البيت العثماني، لم يخل عهده من حضور ميداني للأسطول العثماني الحربي، إذ ظهر في منازلة بحرية سنة (٨١٩هـ=١٤١٦م) ضد أسطول البندقية، محققاً النصر عليه.[٢١] وما أن اعتلى ابنه مراد الثاني (٨٢٤-٨٥٥هـ=١٤٢١-١٤٥١م) كرسي الحكم، حتى أعاد الدولة على ما كانت عليه قبل وقوع كارثة أنقرة سنة (٨٠٤هـ=١٤٠٢م). أما فيما يتصل

بمكانة الأسطول العثماني في عهده، فحسب مراد الثاني أنه عشية وفاته كان يستطيع أن يفخر بأن أسطوله أصبح سيداً في حوض البحر المتوسط.(٢٢)

المرحلة الثانية (٨٥٥-٩١٨هـ = ١٤٥١-١٥١٢م):

تستغرق هذه المرحلة عهد محمد الثاني الفاتح، وابنه با يزيد الثاني، وفيها اكتملت ملامح الدولة العثمانية العظمى (الإمبراطورية)، وغدت أمام الأوربيين قوة عالمية متعاظمة لا تقهر، وفي هذه الحقبة التاريخية، وتحديداً في عهد بايزيد الثاني (٨٨٦-٩١٨هـ=١٤٨١-١٥١٢م)، انطلقت حركة الكشوف الجغرافية الأوربية الكبرى سنة (٨٩٨هـ =١٤٩٢م)، وانتهت باستعمار أوربي شامل للنصف الثاني من الكرة الأرضية، لتنعم أوربا وتستأثر بالغنيمة وحدها!

في هذه المرحلة بالذات أصبح الأسطول العثماني قوة بحرية مهابة الجانب، تتفق مع هيبة دولة فرضت نفسها واحدة من القوى الكبرى في العالم القديم عصر ذاك. وخير برهان على هذه القوة، أن محمد الثاني الفاتح (٨٥٥-٨٨٦هـ=١٤٥١-١٤٨١م) عندما حاصر القسطنطينية سنة (٨٥٧هـ = ١٤٥٣م) بعد حوالي سنتين من توليه الحكم، كان عدد قطع أسطوله الحربي المشارك في حصار المدينة تصل إلى ١٨٠ سفينة أو أكثر.(٢٣) وما أن ربط محمد الفاتح بفتح القسطنطينية – التي أطلق عليها اسم استنبول أو (إسلامبول) بمعنى عاصمة الإسلام – أملاكه الأوربية بالآسيوية حتى أخذ يشدد النكير بأسطوله الضخم على الجزر والموانئ اليونانية، ومنها جزيرة رودس، قاصداً تأديب فرسان القديس يوحنا قراصنة البحر، أصحاب الصيت والسمعة السيئة.(٢٤)

كما قاد محمد الفاتح بنفسه أكثر من حملة بحرية، شاركت فيها المئات من قطع أسطوله الحرب،ي مبحراً عبر نهر الدانوب، ملحقاً بالبلدان البلقانية الواقعة على ضفافه هزائم قاسية مشهودة.(٢٥) سقطت على إثرها صربيا والبوسنة والهرسك وأثينا و(المورة)،(٢٦) وتمت له ما بين سنتي (٨٧٦هـ=١٤٧١م) و (٨٨٤هـ=١٤٧٩م) السيطرة التامة على سواحل الأدرياتيكي (متفرع من المتوسط بين إيطاليا والبلقان)،

وبعض الجزر اليونانية، وبلاد القرم.[٢٧]، ومن المرجح، أن الفاتح كان يخطط عشية وفاته (٨٨٦هـ =١٤٨١م) لحملة كبيرة لفتح إيطاليا نفسها، لكن الأمور مرهونة بأوقاتها، مع ذلك يمكن التنبؤ بأن وفاة الفاتح قد أنقذت إيطاليا وأوربا معها من إعصار عثماني مزلزل![٢٨]

وما أن تسلم با يزيد الثاني (٨٨٦-٩١٨هـ=١٤٨١-١٥١٢م) الراية من يد أبيه الفاتح، جالساً على كرسي الحكم، حتى سار على منهج أبيه غازياً وفاتحاً براً وبحراً. وقد شهد عصره – كما تقدم – حركة الاكتشافات الأوربية الكبرى سنة (٨٨٩هـ=١٤٩٢م) التي أطلق فيها كريستوفر كولومبوس Christopher Columbus (٨٥٥-٩١٢هـ=١٤٥١- ١٥٠٦م)[٢٩] طلقة البداية. مهما يكن من أمر، لقد كان اهتمام با يزيد الثاني بأسطوله، لا يقل عن اهتمام سابقيه من سلاطين بني عثمان، حيث ساهم أسطوله في تمكين الجيوش العثمانية من السيطرة على مصبي الدانوب والدينستر (على البحر الأسود) سنة (٨٨٩هـ=١٤٨٤م)، وبين سنتي (٩٠٢هـ=١٤٩٦م) و (٩٠٩هـ=١٥٠٣م) انتصروا بمساعدة الأسطول على البندقية، وانتزعوا منها أراضي واسعة ومدنا كبرى، مثل: ليبانتو (ليبانت)، ومودرن، وكورون و نوارين (نافارين) ودورازو في ألبانيا، مما مكن للعثمانيين في البلقان وشرق أوربا كله.[٣٠] ومع أن البندقية استغاثت بملوك أوربا لوقف الزحف العثماني إلى مركز حكومتها الذي يهددها بضياع استقلالها، إلا أن المراكب الحربية التي أنجدها بها البابا وملك فرنسا فشلت في عرقلة تقدم العثمانيين في البحر خاصة، بل تمكن العثمانيون من فتح مدينة رودستو (الواقعة على بحر الأدرياتيك). ومجمل القول، لقد وصل الأسطول العثماني في عهد با يزيد الثاني ضعف ما كان عليه في العهود السابقة.[٣١]

المرحلة الثالثة (٩١٨-٩٧٤هـ = ١٥١٣-١٥٦٦م):

تبدأ هذه المرحلة بعهد سليم الأول (٩١٨-٩٢٦هـ=١٥١٢-١٥٢٠م)، وتنتهي بنهاية عهد سليمان القانوني (٩٧٤هـ=١٥٦٦م)، وهي مرحلة دخول الدولة العثمانية عصرها الذهبي، دولة عظمى متفوقة عسكرياً على الجبهات كافة، وفي عهد سليم

الأول دخل الوطن العربي – كما هو معروف – تحت السيادة العثمانية. وهذا يدل دلالة واضحة على مدى التطور الذي وصلت إليه القوات العثمانية البرية منها والبحرية، فعلى صعيد البحرية، اهتم سليم الأول بتطوير وتحديث دار الصناعة البحرية (الترسخانة) في استانبول وتوسيعها، لتجاري اتساع الدولة غربا وشرقا، فأمر بإنشاء عدة سفن ضخمة بين حربية ونقلية، حتى أوصل قوة الدولة الحربية إلى ما يعادل قوة البنادقة وإسبانيا مجتمعة إن لم يكن متفوقة عليها! وهكذا أصبح لدى العثمانيين أسطول بحري متسيد على البحر المتوسط والمحيط الهندي.(٣٢)

وبوفاة سليم الأول، بويع ابنه سليمان القانوني (٩٢٦-٩٧٤هـ=١٥٢٠-١٥٦٦م) سلطاناً على البلاد، وهو الذي بلغت الدولة العثمانية في عهده أعلى مراتب القوة والتقدم والثراء. ونتيجة لامتلاك الدولة العثمانية لمصر والشام، فإنه بات ضمن مسؤولياتها حماية مياه الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وكان هذا حافزاً للسلطان سليمان القانوني للاهتمام بتقوية الأساطيل العثمانية في البحرين الأسود والمتوسط. ونتيجة لاعتداءات فرسان القديس يوحنا انطلاقاً من جزيرة رودس، وترويع سفن الحجاج المسلمين، وأسرهم وقتلهم، فقد أمر سليمان القانوني قائد أسطوله البحري بالاستيلاء على جزيرة رودس، وجهز لهذا الفتح أسطولاً مكوناً من ٣٠٠ سفينة حربية، و٤٠٠ سفينة نقلية، ثم خرج السلطان بنفسه على رأس جيش بري، وصولاً إلى أقرب موقع على ساحل الأناضول، يطل على جزيرة رودس، ليتولى بنفسه إمداد جنده في البحر بكل وسائل الصمود والنصر، وفي (٢ صفر سنة ٩٢٩هـ =٢١ كانون أول (ديسمبر) سنة ١٥٢٢م) استسلمت الجزيرة للفاتح سليمان القانوني، حيث فر فرسان القديس يوحنا منها إلى مالطة، وليتقدم الأسطول العثماني نحو الجزر المجاورة لرودس، ويستولي عليها.(٣٣)

وبفضل يقظة سليمان القانوني، وحرصه على بناء أسطول حربي لا يقهر في مواجهة أعداء الدولة العثمانية ورعاياها المسلمين في أملاكها الواسعة، خاصة تصديه للبرتغاليين وإضعاف سلطتهم، بعد أن اشتطوا تسلطاً على سواحل البحر الأحمر، وحاكاهم الأسبان بطشاً وضراوة على السواحل العربية في شمال أفريقيا (غرب حوض

البحر المتوسط)، فإنه استطاع طوال حكمه أن يجعل من الأسطول العثماني صاحب اليد العليا في البحر الأحمر، بالإضافة إلى البحر المتوسط، وبحر إيجه، وبحر مرمره، والبحر الأسود، فضلاً عن تأمينه سواحل الجزيرة العربية من أي خطر أوروبي يهددها.[٣٤]

ومما يجدر ذكره، أن الأسطول العثماني في عهد سليم الأول وابنه سليمان (القانوني) كان ينافس الأسطول الأسباني الضخم "الآرمادا" "The Spanish Armada"، الذي كان يعد أكبر أسطول، تملكه قوة عظمى في العالم القديم يومئذ.[٣٥] وبفضل سطوته تربعت إسبانيا على عرش القوى الكبرى، ووضعها زعيمة على أوربا وسيدة عليها في العالمين القديم والجديد خلال القرن (١٠هـ=١٦م)، ومع تحطم الآرمادا سنة (٩٩٧هـ=١٥٨٨م) على يد الإنجليز، خبا نجمها الساطع، وتراجعت مكانتها الدولية، لتحل إنجلترا مكانها، ويسطع نجمها.

في ضوء ما تقدم، نرى أي مستوى من القوة وصله الأسطول العثماني وقتذاك، ولكن مع غياب سليمان القانوني المتوفى في (٢٠صفر سنة ٩٧٤هـ=٥ أيلول (سبتمبر) ١٥٦٦م) غاب معه العصر الذهبي للدولة العثمانية، ويتهم ابنه سليم الثاني (٩٧٤-٩٨٢هـ=١٥٦٦-١٥٧٤م) بالضعف والخور، مما أفقده أهليته للحفاظ على فتوحات أبيه، فضلاً عن عجزه عن إضافة شيء إليها. ومع أن هناك بعض النشاطات البحرية العثمانية، امتدت حتى عهد مراد الثالث (٩٨٢-١٠٠٣هـ=١٥٧٤-١٥٩٥م) ابن سليم الثاني، لكن أعراض التدهور والفساد التي أنشبت أظفارها في جسد الدولة العثمانية المتعبة، ودخول قوى أوربية أخرى في الصراع والتنافس على زعامة العالم القديم والجديد، جعلت من الحفاظ على أملاكها الواسعة وإدارتها، همها الأكبر، وبالتالي إبقاؤها تحت السيادة العثمانية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، وبأي ثمن.[٣٦]

مسؤولية الدولة العثمانية من الكشوف الجغرافية في العالم الجديد:

سبق الحديث عن مكانة الأسطول العثماني وسطوته في عالم البحار، وكيف أن العثمانيين بسيطرتهم على الوطن العربي أصبحوا المرجعية السياسية الوحيدة للعالمين

العربي والإسلامي، ومحط آمال وتطلعات الأمة الإسلامية في إيجاد الحلول المناسبة، التي تنهض بمستواها في مختلف الصعد، ولعل في عدم الحضور العثماني – ممثلاً بأسطولهم البحري – للمشاركة في (كرنفال) السباق، نحو العالم الجديد، أفقد أمتنا، في غياب هذه المشاركة، أي حقوق تاريخية (معنوية ومادية) في الأراضي الجديدة، حاضراً ومستقبلاً؟! مع أن رواد حركة الكشوف الأوربية نهلوا من معين علم رواد أمتنا العربية والإسلامية، الذي لا يجف، في علم الجغرافيا والملاحة البحرية.[٣٧]

من وحي هذا كله، كيف يمكن إيجاد تفسير مقنع للظروف والملابسات التي أحاطت، وحالت دون أن يلعب العثمانيون دوراً في حركة الكشوف الجغرافية في القارة الأمريكية الجديدة، الأمر الذي يتطلب في حسابات الماضي والمستقبل النظر في مسؤولية الدولة العثمانية عن هذا التقصير في المنازلة البحرية، أو بكلمة أخرى، على من تقع المسؤولية الشخصية من سلاطين الدولة العثمانية المعاصرين لهذا الحدث الفريد، في غياب أمتنا عن هذا الإنجاز العالمي في دنيا الكشوف الجغرافية؟ حيث لا إضافة بعده في هذا المعترك، والذي يعد – حقاً – علامة فارقة في تاريخ الإنسانية ورقيها، وبداية لدخول عالم العصور الحديثة، وما ترتبت عليها من نتائج مبهرة، في الميادين العلمية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية والعمرانية، فضلاً عن نهضة متطورة، لا سقف لها، ولا ساحل.

وإذا استعرضنا القوى العربية الإسلامية الموجودة على الساحة – عند انطلاقة حركة الكشوف الغربية، للبحث عن أراض جديدة تشبع نهم أوربا وأطماعها السياسية والاقتصادية – لا نجد سوى القوى العثمانية، فالمماليك أصحاب السيادة على مصر والشام والحجاز كانوا في حالة إفلاس عام ميئوس منها، وكانت هزيمة أسطولهم على يد البرتغاليين في معركة ديو البحرية سنة (٩١٥هـ = ١٥٠٩م) مؤذنة بسقوط دولتهم وزوالها.[٣٨] أما عرب الأندلس ومسلموه، فكانوا في محنة وأي محنة! فمع سقوط غرناطة آخر معاقل العرب والمسلمين في الأندلس سنة (٨٩٨هـ = ١٤٩٢م)، سقط معها في الوقت نفسه التاريخ السياسي للإسلام في شبه الجزيرة الأيبيرية (أسبانيا

والبرتغال) بيد أن الآثار العربية الإسلامية الباقية في الأندلس بخاصة وأوربا بعامة، كفيلة ببقاء ذكراه خالدة.(٣٩)

ومع أن العثمانيين هبوا بأنفسهم لنجدة إخوانهم من مسلمي الأندلس، إلا أن هذه النجدة لم تغير على أرض الواقع شيئا، لكن من جهة أخرى، أدى تحالفهم مع آل بربروس(٤٠) إلى الأخذ بالثأر من الأسبان المعتدين، جاعلين في الوقت نفسه، غرب البحر المتوسط بحيرة إسلامية عثمانية(٤١)، أما ما يتصل بأحوال باقي الأقطار العربية عشية دخول العثمانيين إليها، فكانت لا تملك شيئاً من أسباب القوة، حتى تدافع به حتى عن نفسها، فمن أين لها أن تجد مكانا بين الأقوياء؟ وكأن لا "خيل ولا ليل ولا بيداء تعرفنا، ولا رمح ولا سيف ولا قرطاس ولا قلم"!

إذاً لا شك، أن أقطار الوطن العربي والإسلامي المهيضة الجناح وقتذاك، كانت تتطلع إلى العثمانيين – كما رأينا – بوصفهم حماة الإسلام والمسلمين، وهي النظرة نفسها التي نظرها العثمانيون إلى أنفسهم حماة للدين الإسلامي والدول الإسلامية من الأطماع الاستعمارية الأوربية... زد على ذلك، أن الدولة العثمانية ظلت ولمدة ستة قرون – أي منذ قيامها حتى الحرب العالمية الأولى – بمثابة مشكلة كبرى، مستعصية على الحل بالنسبة لأوربا، وشوكة في حلقها، حيث كانت تمثل في بادئ أمرها رد الفعل الإسلامي ضد الخطر الصليبي، لكنها ما لبثت أن اعترضت بقوة المشروعات الاستعمارية الأوربية في البلاد العربية والإسلامية. وآية ذلك، " أن الدولة العثمانية ظهرت في ثنايا رد الفعل الإسلامي إزاء أوربا الآخذة في التوسع في شرقي البحر المتوسط خلال القرنين (٨ و ٩هـ= ١٣ و ١٤م). ورغم استعارتها بعض التقنيات الأوربية، فإنها تمثل أقوى وأنجح مقاومة لأوربا من جانب أي حضارة غير غربية – كما أنها لعبت دورها في تكوين ما نطلق عليه اسم أوربا الحديثة، وفي إعادة تشكيل مجتمعات جنوب شرقي أوربا والشرق الأوسط وشمالي أفريقيا، في الوقت الذي استدامت فيه هوية معظم المجموعات الجنسية واللغوية والدينية الخاضعة لحكمها. فالدولة العثمانية هي التنظيم السياسي الوحيد في العصور الوسطى والحديثة الذي اعترف رسميا بالأديان السماوية الثلاثة، وأوجد بينها تعايشاً سلميا، يتّسم بالانسجام –

وقد بلغ عدد المجموعات اللغوية والجنسية - التي خضعت للحكم العثماني بين وقت وآخر - أكثر من ستين مجموعة (على غرار تعدد الأعراق والأقليات في الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً)، وفي الوقت الذي استعصى فيه حل مشاكل هذه الأقليات على الحكومات الحديثة، نجد أن الحكم العثماني أوجد لها حلولاً ناجعة".[٤٢]

وفي سياق التعليل التاريخي لموقف الدولة العثمانية ومسؤوليتها من الكشوف الجغرافية في العالم الجديد، الذي يعد من أمهات الأحداث التاريخية البالغة الأثر في تطور الحضارة البشرية، هل يقع اللوم عليها وحدها بخروجها ومعها العالم الإسلامي بخفي حنين من أي مكاسب، ترتبت على هذا الكشف الذي لن يتكرر؟ في الحقيقة، لا يمكن إعفاء الدولة العثمانية إعفاءً مطلقاً من مسؤولية ما يمكن أن يوصف بالتقصير إزاء موقفها السلبي من الكشوف - سواء أكانت هذه المسؤولية جماعية أم فردية - وهي تشاهد ما يجري حولها وأمام عيونها من نشاطات بحرية للأمم الأوربية، كانت أوضح من أن لا تراها عيون الدولة العثمانية اليقظة المبصرة، فعند انطلاقة حركة الكشوف الكبرى هذه سنة (٨٩٨هـ = ١٤٩٢م) كانت الدولة العثمانية قد بلغت سن الرشد، ورأينا فيما تقدم- قوتها البحرية والبرية في آن واحد، ونجاحاتها المتواصلة في التقدم والانتصارات على كل الجبهات، فأين يكمن سر الصمت العثماني عن أسباب غياب دوره في هذه الكشوف التاريخية؟ وانسجاماً مع ما يتطلبه منهج التعليل والتحليل التاريخيين، سوف نتناول بالدراسة الحقبة الزمنية التي كان على الدولة العثمانية فيها تحمل هذه التبعات التاريخية فيما يتصل بحركة الكشوف ما وراء المحيطات. ومن الواضح أن بدايات حركة الكشوف الكبرى التي تزعمتها أسبانيا، تزامنت مع نمو متعاظم في قوة الدولة العثمانية وأوج توسعها، وتحديداً في عهود با يزيد الثاني وابنه السلطان سليم الأول وسليمان القانوني ابن السلطان سليم الأول، في الفترة ما بين (٨٩٨-٩٧٤هـ = ١٤٩٢-١٥٦٦م). وهي الفترة نفسها التي كانت فيها دول أوربا، تتسابق لخطب ود وصداقة العثمانيين المنتصرين، بل حتى والاستعانة بهم في حروبهم ضد بعضهم البعض وعقد التحالفات معهم![٤٣] فكيف يمكن والحالة هذه أن تستغفل أوربا الدولة العثمانية، وتستطيع القيام من وراء ظهرها بالاستئثار بالنصف الغربي

المكتشف من الكرة الأرضية وحدها!؟ وهنا تأتي أهمية التدقيق في مسؤولية سلاطين الدولة العثمانية العظام الثلاث، الذين عاصروا انطلاقة وزخم حركة الاكتشاف والاستعمار الأوربي في القارة الأمريكية، كل على حدة.

(أولاً) مسؤولية با يزيد الثاني:

من المؤكد أنه عند تسلُّم با يزيد مقاليد الحكم بعد وفاة ابيه محمد الثاني (الفاتح) سنة (٨٨٦هـ=١٤٨١م)، كانت مساعي البرتغال لاكتشاف طرق بحرية لتأمين تجارة أوربا مع الشرق خاصة مع الهند، قد قطعت شوطاً بعيداً. وكان من أبرز رواد هذه المرحلة هنري الملاح (الأمير) Henry the Navigator (٧٩٧-٨٦٥هـ=١٣٩٤-١٤٦٠م)، وكان الغرض المهم منها التخلص من سيطرة العثمانيين على الطرق التجارية البحرية والبرية، مما ضيق الخناق على تجارة أوربا مع الشرق الأقصى، الأمر الذي دفع الناس في أوربا للتفكير جدياً في البحث عن طريق بحري يوصلهم بالهند مباشرة، للإفلات من قبضة العثمانيين الآخذة بالضغط بقوة على مصالحهم الحيوية التجارية بخاصة.[٤٤] وهو الحلم الذي راود أهل أوربا طويلاً، ليتحقق أخيراً على يد البحار البرتغالي المعروف فاسكو دا جاما Vasco Da Gama (٨٧٤-٩٣١هـ=١٤٦٩-١٥٢٤م) باكتشافه رأس الرجاء الصالح سنة (٩٠٣هـ = ١٤٩٨م)، الذي مهد بدوره الطريق إلى الهند، لتتخلص أوربا إلى حين من السيطرة العثمانية على الطرق البحرية على السواحل الشرقية للقارة الأفريقية بخاصة.[٤٥] وهنا نتساءل: هل كان با يزيد الثاني في غفلة عما يجري من نشاط بحري أوربي عارم، ضجيجه يصم الآذان؟ وزاده تزاحماً وضجيجاً الصراع الأوربي الأوربي على الكشف والاستعمار في الأرض الجديدة! وقد رأينا فيما تقدم، كيف أن البحرية العثمانية في عهده وصلت ضعف ما كانت عليه في السابق. ناهيك عن ما شهد هذا العهد من بداية العلاقات مع دول أوربا، وهرولتها كما تقدم، للوقوف على أعتاب السلطان العثماني طلباً للمساعدة، وها هو ذا بابا روما نفسه الاسكندر السادس Alexander VI (٨٩٨-٩٠٩هـ=١٤٩٢-١٥٠٣م) من جهة، وملك نابولي، ودوق ميلانو وجمهورية فلورنسا

من جهة أخرى، كان يجتهد كل منهم في محالفة السلطان با يزيد الثـاني، والاستعانة بجنوده البرية وأساطيله البحرية لمحاربة من عاداه ![٤٦] فكيف إذاً يغفل با يزيد الثـاني، وتغفل معه عيونه المفتوحة على أوربا عن خطط، ونوايا الدول الأوربية، وتحضيراتـها لحركة الكشوف في العالم القديم بعامة والجديد بخاصة، في الوقت الذي كان فيه با يزيد الثاني ورجاله صانعين للأحداث أكثر منهم متفرجين عليها!!

بيد أن هنا أموراً حدثت، تسترعي الانتباه وجديـرة بالملاحظـة: الأمـر الأول الصراع الذي تفجر بين با يزيد الثاني وأخيه جم (المعـروف باسـم البرنس زيزيـم Zizim في الغرب) على خلافة أبيهم محمد الثاني الفاتح بعد وفاته. أما الأمر الثـاني فعصيان أولاد با يزيد الثاني (الثمانية) عليه، وإضرامهم نار الحروب الداخليـة، التـي لولا ما وقع في قلوب أعداء الدولة العثمانية (الأوربيين) مـن الرعـب، لكـانت هـذه الحروب العائلية فرصة عظيمة لهم للانقضاض عليها.[٤٧] فهل هناك ثمة أصابع خفيـة وراء ذلك؟ هدفها إلهاء العثمانيين عن ما يجري عند الطرف الآخر (أوربا) من أعمـال الكشف والاستعمار في العالم الجديد! وهذا من المرجح، لأن العناصر التي تخلت عـن ديانتها المسيحية في الأراضي الأوربية، التي استولت عليها الدولة العثمانية، والحديثـة العهد بالإسلام. كان ما يزال لها تأثيرها على صناعة القـرار داخـل أجـهزة الدولـة المختلفة إلى قمة هرمها، وهي العناصر ذاتها، التي حثت با يزيد الأول، علـى وقـف توغله في أوربا وتركها وشأنها، محولة – بتأثير منها – أنظاره إلى الشرق طيلـة مـا تبقى من حكمه، الأمر الذي كاد أن يؤدي إلى انهيار الدولة العثمانيـة نفسـها.[٤٨] ولا ننسى في هذا السياق أن العامل الديني في نشر الدين المسيحي كان من أهـم الحوافـز التي دفعت البرتغاليين والأسبان إلى أعمال الكشوف البحرية في الشرق والغرب، وهـو العامل الذي حظي بمباركة البابا وتشجيعه.[٤٩]

ويعد هذا العامل واحدا من عوامل أخرى – أهمها الاقتصادية – أسهمت في بذل الأوربيين كل جهد ممكن لتحييد العثمانيين، ومنعهم من دخول حلبة الكشوف الجغرافيـة في العالم الجديد، وقطع الطريق عليهم للوصول إلى الحلبة نفسها، ولا أدل على ذلـك، من أن هنري الملاح، أخذ يفكر – بعد التقدم الذي أحرزه على الشـاطئ الإفريقـي –

بالحصول على رقيم (مرسوم) من البابا لإضفاء الصبغة السياسية الدينية لبلاده على الأراضي المكتشفة، وبالتالي حمايتها من مزاحمة البلدان الأخرى في هذه المناطق؟ وجعل الاكتشاف في الشرق- وعلى شواطئ أفريقيا- حكراً على البرتغال وحدها.[٥٠] وكانت البحرية العثمانية، في هذه الحقبة التاريخية، قد اكتسبت شهرة عظيمة، حتى أوقعت الرعب والخوف في قلوب الدول البحرية الأوربية بالبحر الأبيض المتوسط بخاصة [٥١]. وهذا التعليل للأحداث التاريخية، يقودنا إلى دليل آخر يصب في هذا الاتجاه الأوربي الذي هيأ عن سابق إصرار وترصد كل أسباب التعمية على الدولة العثمانية لحرمانها من هذه الشراكة العالمية في الكشوف الجغرافية، ونعني به هنا، "اتفاقية توردسيلا" Tordesillas،[٥٢] التي كانت تمثل تهديداً بالعصا المسيحية، وتحذيراً للدولة العثمانية من مغبة اقترابها من ساحة المنافسة البحرية للعالم الجديد.

قسمت هذه الاتفاقية الموقعة سنة (٩٠٠هـ=١٤٩٤م) بمباركة البابا الاسكندر السادس أعمال الكشف والاستعمار بين أسبانيا والبرتغال، بجعل جميع المناطق الواقعة غربي خط الطول المار على بعد ٣٧٤ عقدة غربا من جزر الرأس الأخضر في أفريقيا من حق أسبانيا، والمناطق الواقعة شرقي الخط المشار إليه مناطق نفوذ برتغالية.[٥٣] يبدو واضحاً ما وشت به هذه الاتفاقية من نوايا لأوربا المسيحية، ومحاولة تفردها بأعمال الكشف والاستعمار من جهة، واعتبار الاتفاقية خطوة استباقية سيادية، تعطيها سنداً قانونياً (حقوقاً تاريخية) من جهة أخرى، في منع غيرها من القيام بأي نشاط بحري لأي غرض كان، في جميع المناطق التي حددتها هذه الاتفاقية، وبالتأكيد فإن الدولة العثمانية هي المتضرر الأوحد من هذه الاتفاقية، إن لم يكن تعنيها بالذات، لكن السؤال هنا، هل كل هذه المحاولات الأوربية في إشغال الدولة العثمانية عن ما يجري من أعمال كشف واستعمار وراء المحيطات، تنطلي ببساطة على دولة قوية مثل الدولة العثمانية، وهي التي "دخلت أوربا، ورفعت أعلامها فوق ممالك البلقان، قبل أن تطوى راية الإسلام في الأندلس. فكأنما أحيت أمجاده، وأعلت ناره". وأنهت الإمبراطورية البيزنطية بفتح عاصمتها القسطنطينية، عاصمة اليونان، وهي الحادثة التي يحسبها المؤرخون بدء التاريخ الحديث![٥٤] من المرجح أيضاً أن ميل السلطان با يزيد الثاني

للسلم وكراهيته للحرب، وتكدره الشديد من عصيان أولاده عليه، حال دون صحوة عثمانية حقيقية على ما يجري من أعمال كشف وراء المحيطات. يضاف إلى هذا كله، أن الأوربيين، وهم يرسمون الخطط لكشوفهم البحرية، لجأوا إلى القيام أولاً بعمليات استطلاعية، بهدف جمع معلومات عن إمكانات القوى الإسلامية التي يحتمل التصادم معها، اتسمت بالكتمان والسرية الشديدة.[٥٥]

(ثانياً) مسؤولية سليم الأول :

بوصول سليم الأول سدة الحكم سنة (٩١٨هـ = ١٥١٢م) دخلت الدولة العثمانية عصرها الذهبي من أوسع أبوابه. كما دخلت في الوقت نفسه، معترك الصراع العالمي مشرقاً ومغرباً. بتوسعها إلى أقصى مدى في الغرب وفي الشرق، يمكنها أن تصل إليه، بإضافتها العالم العربي إلى العالم اليوناني (الأوربي) لتبلغ بذلك أوج قوتها وذروة مجدها. وللحقيقة، فإن الوطن العربي هو الذي منح الدولة العثمانية مكانتها الاستراتيجية ووزنها الدولي الفريد،[٥٦] وهنا تأتي فرضية بصيغة سؤال، هل كانت هناك صفقة سرية ما بين الغرب الأوربي والدولة العثمانية؟ جعلت سليم الأول يحول وجهته من الغرب إلى الشرق، على أساس أن تغض أوربا نظرها عن هذا التوسع لسليم الأول شرقاً، مقابل ثمن إغماض سليم الأول عينه عن أعمال الكشف والاستعمار الأوربية في القارة الجديدة، أم هي بشكل أو بآخر عملية توريط للدولة العثمانية في الشرق لإشغالها عن ما يجري وراء المحيطات، خصوصاً أنه بوصول سليم الأول إلى الحكم، كان البحار الإيطالي (الفلورنسي) امريكو فسبوتشي Americo Vespucci (٨٥٥-٩١٨هـ = ١٤٤١-١٥١٢م) قد توصل إلى حقيقة، أن الأراضي التي اكتشفها كولومبوس Columbus (ت ٩١٢هـ = ١٥٠٦م) ما هي إلا قارة جديدة، وليست بالتأكيد كما ظن كولومبوس نفسه، وكما كان يعتقد أنها قسم من البر الآسيوي (الهند الغربية)، وسميت هذه القارة الجديدة (العالم الجديد) باسم (أمريكا)، تكريما وتيمناً باسم أمريكو (أمريجو) مؤكد هوية هذا الكشف جغرافيا.[٥٧]

وهناك من دون شك مقدمات ومؤشرات كثيرة تدل على قلق أوربا من مشاركة إسلامية (عثمانية) لها في هذه الكشوف الاستراتيجية المهمة، بعد أن تأكدت هويتها وأهميتها على حاضر أوربا ومستقبلها. وإذا كانت قوة أوربا تتعاظم على الصعيدين الاقتصادي والحربي، فإن الدولة العثمانية لم تكن أقل منها تعاظماً في القوة إلى حد التوازن فيها، إن لم تكن متفوقة عليها. وزاد في ارتياع أوربا نمو الأساطيل العثمانية في عهد سليم الأول، الذي أحدثت فتوحاته رعباً شديداً في أوربا، إلى الحد الذي نادى فيه البابا ليو العاشر Leo X (٩١٩-٩٢٩هـ= ١٥١٣-١٥٢٢م) بإعداد حملة صليبية جديدة لإنقاذ أوربا من خطر العثمانيين.(٥٨) يقول محمد كرد علي "ولما فتح العثمانيون الشام ومصر – بقيادة سليم الأول – كان الأسطول العثماني في إبان قوته، وكانت بعض سفنهم تقلع من موانئ الروم، وتأتي ساحل الشام، وبعضها يقف بالمرصاد لقرصان البحر. وكانت الدولة العثمانية– في عصرها الذهبي – متفوقة في قواتها البرية والبحرية، وكانت ترتعد الفرائص منها في الغرب، ويتمنى عظماء ملوكها أن يخطبوا ودها كل ساعة لقوة أساطيلها وجيوشها".(٥٩)

يبدو أن أوربا المسيحية جعلت من أولويات استراتيجيتها عهد ذاك الفتح والاستعمار في العالم الجديد، وإذا كانت دول أوربا نفسها دخلت في صراعات مريرة دامية فيما بينها، في محاولة أن تستأثر واحدة منها بالأراضي الجديدة كلها، فكيف والحالة هذه القبول بشريك إسلامي، يتقاسم معها حصتها في العالم الجديد. وزادت قناعة الدول الأوربية المعنية بالكشوف الجغرافية، بضرورة تحييد الدولة العثمانية وإبعادها عن ساحة المنافسة بأي ثمن كان، بعد أن قام مارتن لوثر Martin Luther (٨٨٨-٩٥٣هـ=١٤٨٣-١٥٤٦م) بثورته الدينية الإصلاحية ضد الكنيسة الكاثوليكية والبابوية نفسها، والتي على إثرها ازدادت الانقسامات بين دول القارة الأوربية، كان على أوربا أن تحبس أنفاسها فزعاً من أن تستغل الدولة العثمانية هذه الفتنة الدينية الداخلية لصالحها، وهي الدولة التي هددت ملكوت البابا بالانقراض.(٦٠) وهذا الفزع له ما يبرره أوربياً، بعد أن علموا ما يبذله سليم الأول من جهد كبير في تجهيز أسطول

قوي، يمكنه من مواجهة الأسبان من جهة، ومحاولة فك حلقة الحصار الذي ضربه البرتغاليون على المياه الشرقية من جهة أخرى.[٦١]

إذاً ليس من المصادفة ما طرأ من تغيير في الذهنية السياسية الحربية لسليم الأول بالارتداد شرقاً، مخالفاً بذلك العقيدة السياسية العسكرية، التي توارثها سلاطين بني عثمان كابراً عن كابر، والقائمة على التوسع والفتوح في الغرب؟! مما يطرح تساؤلات في شأن توقيت سليم الأول للتحول المفاجئ نحو الشرق، وبالتالي ما مسوغاته لهذا التوقيت الذي يحيط به الغموض من عدة جوانب؟! فهل كان لدول أوربا المسيحية ضلع في هذا التوقيت، باستدراج سليم الأول إلى الفخ الصفوي في إيران، ومن ثم التهويل بالمخاطر التي تتهدد دولته من جيرانه الشرقيين؟! فيما يتصل بهذا الشأن، يرجح أن تكون الدول الأوربية لعبت دوراً في تحويل اتجاه الدولة العثمانية إلى الشرق والتوسع فيه على حساب الأقطار العربية الضعيفة والمنهكة المسلوبة الحول والقوة، وذلك بقصد التخلص من تهديد الدولة العثمانية لها والتفرغ للاستعمار في العالم الجديد، وجعل الجزء المكتشف من الأرض الجديدة – وما سيستكشف مستقبلاً – حقوقاً تاريخية حكراً عليها وحدها. لا ريب في أن هناك أسباباً موجودة وأخرى مفتعلة أوجدت لإشعال الحرب بين الصفويين والعثمانيين، لا يتسع المقام هنا لذكرها. لكن من المؤكد أنها واحدة من أهم الأسباب التي جعلت سليم الأول ينتقل إلى الجبهة الشرقية من دولته، تاركاً الجبهة الغربية الأوربية تنعم بقسط وافر من الهدوء والاستقرار، ولا أدل على ذلك، من أنه إبان حروبه مع الصفويين في فارس، أصدر أوامره المشددة إلى ضباط بحريته بعدم الالتحام مع العدو الأوربي، خشية أن يجر إلى حرب معهم دون أن يكون مستعداً لها بحرياً خصوصاً في الوقت الذي أخذ يجهز فيه لبناء سفن أكبر وأقوى مما عرفه الأسطول العثماني في تاريخه الأول، ناقلاً لهذا الغرض مركز قيادة الأسطول من غاليبولي[٦٢] إلى العاصمة (استانبول)، حيث أنشأ ترسانة أخرى هناك لصنع سفن ضخمة ومتينة.[٦٣] ويرى بعض المؤرخين أن الدولة الصفوية في إيران أخذت في هذا الوقت بالذات، تتآمر مع القوى المسيحية الأوربية ضد الدولة العثمانية.[٦٤]

في ضوء هذا كله، لا يمكن استبعاد هذا الاحتمال، ذلك أن لأوربا سابقة خطيرة في مثل هذه الدسائس والمؤامرات في ضرب القوى الإسلامية بعضها ببعض، فعند ظهور تيمور لنك (٧٣٧-٨٠٨هـ= ١٣٣٦-١٤٠٥م) – على سبيل المثال لا الحصر – في جنوب غرب آسيا واحتمال اصطدامه بالعثمانيين، لفتت انتباه العالم المسيحي (الأوربي) محاولة استغلال هذه القوى العسكرية بتحويلها إلى المسيحية من ناحية، والانتفاع منها من ناحية أخرى في تحطيم القوى الإسلامية المجاورة لهذا العالم المسيحي، ومن أجل هذا الهدف، تبادلت جنوى مع تيمور المراسلات والسفراء، بغرض الاتفاق معه لتحطيم الدولة العثمانية، وهو الدور الذي لعبته مملكة قشتالة المسيحية الأسبانية لإقناع تيمور لنك لتحقيق الغرض نفسه.[٦٥]

إذاً ما يمنع أوربا من عقد صفقة مع سليم الأول – ضمن ترتيبات يقتضيها مبدأ التوازن الدولي الذي أملته نتائج الحروب الإيطالية (٩٠٠-١٠٠٤هـ = ١٤٩٤-١٥٥٩م)[٦٦] – بأن يغمض عينيه عن ما يجري وراء المحيطات واستعمار للقارة الأمريكية (الجديدة) مقابل أن تغمض أوربا عينيها عن اجتياح سليم الأول للعالم العربي الإسلامي، والتنازل (ظاهرياً) عن أطماعها فيه، الذي طالما مثلته البرتغال وأسبانيا وقوى أوربية أخرى كامنة، ويعزز القبول بهذه الفرضية التاريخية ما ظهر من أعراض جديدة على معنويات الدولة العثمانية بإحساسها المتزايد، بأن أوربا بسياساتها وأسلحتها واقتصادياتها التي كانت تنمو بقوة واستمرار متزايد – بعد كشف العالم الجديد بخاصة – أصبحت تشكل عقبة كأداء أمام الزحف العثماني نحو الغرب الأوربي[٦٧] الأمر الذي ربط به المؤرخون، بين توقف فتوحات العثمانيين غرباً، وبين تحويل وجهتهم إلى الوطن العربي، بهذا الإحساس. من منطلق، أن العثمانيين قد وصلوا إلى أقصى مدى في الغرب يمكن أن يصلوا إليه، ولا يمكنهم تجاوز هذا المدى، فإذا أرادوا أن يشبعوا نهمهم بالتوسع فليس أمامهم إلا الشرق؟![٦٨] مهما تكن الأسباب والعوامل التي أملت على سليم الأول تغيير اتجاه دولته نحو الشرق سواء تم هذا الأمر باتفاقية، أو صفقة سرية ما بين السلطان سليم الأول ووريثه ابنه سليمان القانوني من بعده، أم لم يتم، فإنه من غير المقبول إطلاقاً، الاعتقاد بأن شخصية إسلامية قيادية كبيرة مسؤولة

من أحداث في العالم القديم بعامة وأوربا بخاصة، وهو سيد الموقف – كما رأينا – على مختلف الجبهات الحربية معها!! في ضوء ما تقدم، كيف يمكن أن يعفى سليم الأول من مسؤولية غياب أسطوله الحربي عن ساحة الكشوف الجغرافية وراء المحيطات؟! وكيف يمكن بالتالي تسويغ استئثار ممالك أوربا المسيحية وحدها بالنصف الغربي من الكرة الأرضية بأكمله، وحرمان العالم الإسلامي من أي حصة فيه أو في ثرواته الهائلة، التي جعلت من الدول الغربية وحدها، على ما هي عليه اليوم، من تفوق منحها اليوم مكانة سياسية وحربية واقتصادية وعلمية، عالية متطورة، لا تجارى، ولا ند لها.

(ثالثاً) مسؤولية سليمان القانوني:

يعدّ عهد سليمان القانوني امتداداً للعصر الذهبي في تاريخ الدولة العثمانية، العصر الذي ابتدأ مع تولي والده سليم الأول مقاليد الحكم، وهو عصر القوة العظمى التي بلغتها الدولة العثمانية في القرن (العاشر الهجري = السادس عشر الميلادي). وقد امتاز عهد سليمان – الملقب بالقانوني عند الأتراك والعرب، والجليل أو السامي (the Magnificent) عند الأوربيين – بالفتوحات الكثيرة، حيث تقدمت في عهده تقدماً عظيماً، لم تصل إليه بعده غرباً أو شرقاً.[٦٩] ومع ذلك لا نراه يعير أي اهتمام لنشاط الأساطيل الأوربية ما وراء المحيطات، وبالتالي لا يجتهد في البحث عن دور لأسطوله الضخم في هذه الكشوف التاريخية، ومن المفيد أن نشير هنا، إلى أنه إذا كان سليم الأول قد اهتم بتطوير بحريته، فإن ابنه سليمان القانوني "جعلها قوة فاعلة في المعارك. ففي عهده بلغ الأسطول قوة فعلية هائلة سواء في عدد المراكب، أو في التجهيز بالمدفعية والمعدات، أو بإنشاء دار للصناعة البحرية (الترسخانة)، فاستطاع السيطرة على البحر المتوسط سيطرة تامة، وجابته أساطيله حتى بلغت المحيط الهندي رغم قوة البرتغال البحرية".[٧٠] أليس من المستهجن في ضوء هذه الحقيقة، أن لا نرى أشرعة الأسطول العثماني تناطح أشرعة الأساطيل الأوربية – خصوصاً الأسطول الأسباني (الآرمادا) – وتزاحمها سباقاً إلى القارة الجديدة؟

وقد تتعاظم دهشتنا واستهجاننا حول هذه المسألة، إذا عرفنا أن الأسطول العثماني في عهد (القانوني) طهر البحر الأحمر من السفن الحربية البرتغالية، باستيلائه سنة

الأسطول العثماني تناطح أشرعة الأساطيل الأوربية – خصوصاً الأسطول الأسباني (الآرمادا) – وتزاحمها سباقاً إلى القارة الجديدة؟

وقد تتعاظم دهشتنا واستهجاننا حول هذه المسألة، إذا عرفنا أن الأسطول العثماني في عهد (القانوني) طهر البحر الأحمر من السفن الحربية البرتغالية، باستيلائه سنة (٩٣٥هـ= ١٥٢٨م) على عدن، حيث سلمت منطقة البحر الأحمر من أخطار البرتغاليين وأطماعهم، وقد حرَّمت الدولة العثمانية منذ هذا التاريخ، ولأكثر من ثلاثة قرون، على السفن المسيحية من الإبحار فيه، لأنه يشرف على الأماكن المقدسة للمسلمين في الحجاز.(٧١) يضاف إلى هذه، أن القانوني أعاد الزخم والاحتشاد الحربي لقواته على الجانب الأوربي من دولته، مستولياً سنة (٩٢٨هـ= ١٥٢١م) على بلغواد، وكانت إذ ذاك تابعة لدولة المجر، كما قام بحصار فيينا عاصمة النمسا سنة (٩٣٦هـ = ١٥٢٩م) دون أن يوفق في دخولها. لكن هذا لم يحل دون تأمين دولته في أوربا من الشمال عن طريق سلسلة من الأمراء والملوك التابعين له! زد على ذلك، سلسلة حروبه الناجحة، التي لعب أسطوله دوراً بارزاً فيها، فبعد انتصار العثمانيين على آخر معاقل البندقية على ساحل اليونان.. أسرعت البندقية، وتحالفت مع أسبانيا والبابوية، وتم بالفعل تكوين أسطول مسيحي لمنازلة الأسطول العثماني، وفي معركة بريفيسا سنة (٩٤٥هـ = ١٥٣٨م) أوقع الأسطول العثماني بأسطول التحالف المسيحي (الأسباني البابوي) هزيمة مذلة.(٧٢)

إن أسبانيا المستميتة على التفرد بالكشوف الجغرافية في العالم الجديد، وتجييرها لحسابها بالكامل، كونها أعظم قوة بحرية وقتذاك، وحتى تَحَطُّم أسطولها على يد الأسطول الإنجليزي سنة (٩٩٧هـ = ١٥٨٨م)، لم تستطع قهر الأسطول العثماني، الذي لم يقهر في أي منازلة بحرية مع (الآرمادا) الأسبانية، ومن أبرز الانتصارات التي سجلها العثمانيون على هذا الأسطول الضخم المهيب السمعة، كانت قرب سواحل جزيرة جربة التونسية سنة (٩٦٨هـ = ١٥٦٠م).(٧٣)

إنه لأمر يدعو للحيرة حقاً أن تبقى الدولة العثمانية رغم كل هذه القوة البحرية في منأى عن المنافسة في ميدان الكشوف الجغرافية وراء المحيطات! في الوقت الذي لا

يقل فيه عصر سليمان القانوني قوة وتفوقاً على مختلف الأصعدة، عن عصر اليزابيث الأولى Elizabeth I (٩٦٦-١٠١٢هـ = ١٥٥٨-١٦٠٣م) ملكة إنجلترا، وعصر فرديناند الثاني Ferdinand II (٨٧٩-٩١٠هـ = ١٤٧٤-١٥٠٤م) ملك أسبانيا وبعده عصر الملك فيليب الثاني Phillip II (٩٦٤-١٠٠٧هـ= ١٥٥٦-١٥٩٨م).

ومن الجدير بالذكر، أن العصر الذهبي للدولة العثمانية جاء متزامناً مع عصر النهضة الأوربية الكبرى.(٧٤) وكان توازن القوى ملموساً بينهما، فلماذا إذاً تنفرد أوربا بنصف الكرة الأرضية؟ وكيف؟ فهل ورث سليمان القانوني اتفاقاً ما، تم بين أبيه سليم الأول وأوربا، يتعلق بحركة الكشوف الأوربية هذه في الدنيا الجديدة؟! وإذا لم يكن كذلك، فما سر توقيت إعلان قانون "الإمتيازات الأجنبية"(٧٥) الذي تم بموجبه منح الأوربيين امتيازات اقتصادية وثقافية ودينية في الأقطار العربية، مما مهد الطريق سهلاً إليها للنفوذ الاستعماري، واستفحلت أعراض دائه العضال، بتحقيق الأطماع الاستعمارية الأوربية فيها، مجرد أن حانت الفرصة بتراجع قوة الدولة العثمانية وانهيار صرحها.. فهل من أسباب هذا التوقيت الاستثنائي، إدراك سليمان القانوني، من أن دولته بلغت من الضخامة واتساع المدى، ما يجعلها غير قادرة على الحركة، وبالتالي يجعل من الحرب الخاطفة التي طبقتها الدولة العثمانية بنجاح في العقود السابقة عديمة الفائدة، ذلك أن نقل الجيوش عبر تلك المسافات الطويلة من شرق الدولة إلى غربها صار أمراً في غاية الصعوبة (٧٦). وبات عليه بالتالي إعطاء تنازلات وعقد اتفاقيات مع دول أوربا للحفاظ على دولته بحدودها القائمة آنذاك.

أم أن الجبهة الشرقية عادت تشكل قلقاً على مستقبل الدولة العثمانية، حيث يربط فريق من المؤرخين بين التحول العسكري العثماني نحو الشرق وبين أحداث عالمية، وقعت حول أطراف العالم العربي الشرقية والغربية منه على حد سواء، وتمثلت هذه الأحداث في الاعتداءات الأسبانية والبرتغالية في مغرب الوطن العربي ومشرقه من جهة والخطر الصفوي الذي بات يهدد ظهر الدولة العثمانية من الشرق، وتخوفت الدولة العثمانية من محاولة أوربية للإطباق عليها من الشرق والغرب، واستغلال الصفويين لهذه المحاولة.(٧٧)

هذا الهاجس دفع سليمان القانوني إلى القيام بحملات تطهير وتأديب للقوى الأوربية، سواء تلك التي هددت أطراف الوطن العربي الشرقية والغربية منه، أو تلك الواقعة والمجاورة للجانب الأوربي من الدولة. أما الجبهة الآسيوية، فقد استغرقت معظم جهود سليمان القانوني ووقته، حيث قام بثلاث حملات كبرى ضد فارس (إيران) ما بين (٩٤١-٩٦٣هـ = ١٥٣٤-١٥٥٥م)، وخرجت الدولة العثمانية من هذه الحروب الثلاث منتصرة، محققة مكاسب كبيرة على الأرض بإضافة كل الأراضي شمال شرقي نهر دجلة حتى بحيرة وان في (هضبة أرمينيا)، ومثبتة أقدامها في العراق كله، مما أرغم الشاه الصفوي طهماسب الأول (٩٣١-٩٨٤هـ = ١٥٢٤-١٥٧٦م) إلى عقد صلح مع سليمان القانوني سنة (٩٦٣هـ = ١٥٥٥م)، وتوقيع محالفة ثبتت الحدود بين الدولتين على ما كانت عليه في السنة نفسها.(٧٨)

ولعل هذه الأحداث من الأسباب الكامنة، التي دفعت سليمان القانوني إلى مهادنة الأوربيين، ابتداءً من سنة (٩٤٣هـ = ١٥٣٥م)، حيث أبرمت معاهدة الامتيازات الأجنبية بين سليمان القانوني وملك فرنسا فرنسوا الأول Francis I (٩٢١-٩٥٤هـ =١٥١٥-١٥٤٧م).(٧٩) ومهما تكن الظروف والملابسات التي أفضت إلى إبرامها، لكنها بكل المعايير السياسية المستقبلية، كانت الخنجر السام، الذي طعنت به أوربا قلب الدولة العثمانية ليتفاعل سمه رويداً رويداً ليؤدي في النهاية إلى انهيار الدولة العثمانية، لتتقاسم الدول الغربية (الحلفاء) المنتصرة في الحرب العالمية الأولى (١٣٣٣-١٣٣٧هـ = ١٩١٤-١٩١٨م) التركة العثمانية في الوطن العربي، وتسلبها معظم أملاكها في أوربا نفسها. ومن ثم ليبقى آثار هذا السم الناقع يتفاعل في أعقاب هذه الحرب، باستمرار بسط النفوذ الغربي على العالم العربي، الذي لا يزال يحمل بين طياته طابعه التحكمي، أو العدواني حتى اليوم.(٨٠)

لا شك في أنه بموجب هذه الاتفاقية انتقل مركز الثقل في التوسع العثماني نهائياً من الغرب إلى الشرق، حتى إنه يمكن القول، بأن موقف الدولة العثمانية في الجبهة الغربية بات موقفاً دفاعياً أكثر منه هجومياً، والغريب في الأمر، أن الدولة العثمانية رغم ذلك، أصبحت حكماً في الصراعات بين ملوك أوربا، فهذا التقارب الفرنسي

العثماني إلى درجة التحالف والتطبيع الشامل للعلاقات بينهما على المستويات كافة، جاء في الوقت، الذي كانت فيه فرنسا تحارب أسبانيا (وكلاهما من أتباع المذهب الكاثوليكي الأصولي)! وتدخل سليمان القانوني في هذه الحرب لصالح ملك فرنسا، (فرانسوا الأول)، بموجب تلك الامتيازات التي نظمت العلاقات العثمانية الفرنسية بداية، ثم العلاقات الأوربية العثمانية لاحقاً ولفترة زمنية طويلة.[٨١]

والسؤال هنا، هل يمكن لهذه الأطراف أن تتفق دون تبادل مصالح ومنافع بينها..؟ فهل أخذت أوربا وبالذات أسبانيا وفرنسا وإنجلترا ثمن سكوتها على التوسع العثماني في الشرق حياد الدولة العثمانية بعدم تدخلها بالشأن الأوربي المتعلق بحركة الكشف والاستعمار في الأراضي الجديدة؟! وربما كان من مصلحة العثمانيين في هذا الوقت بالذات، عدم الإنجرار إلى مواجهة كبرى مع الغرب، بعد أن دخلت إنجلترا ميدان المنافسة بقوة مع الأسبان، في عهد الملكة اليزابيث الأولى (٩٦٦-١٠١٢هـ = ١٥٥٨-١٦٠٣م) حيث بدأ التفكير جدياً باستعمار القارة الجديدة (أمريكا) خاصة بعد تحطيم أسطول أسبانيا القوي (الأرمادا) سنة (٩٩٧هـ = ١٥٨٨م)، مما أدى إلى انتقال السيادة على البحار إلى الإنجليز.[٨٢]

وهكذا، يمكن القول في ضوء ما تقدم، أن عصر سليمان القانوني انقضى، وعصره هو أحد عصور القوة للدولة العثمانية، إذ هو آخر سلاطينها العظام، دون أن تحرز الدولة العثمانية، ومعها الأمة الإسلامية - خطوة بحرية واحدة من ألف خطوة على طريق البحر المحيط إلى العالم الجديد، والآن وبمنتهى الشفافية، هل يعفى سليمان القانوني من مسؤولية غياب دولته - ممثلة بأسطوله البحري - عن حركة الكشف في العالم الجديد، وخروجه منها خالي الوفاض صفر اليدين؟!

البحرية العثمانية بعد سليمان القانوني:

بدأت القوة البحرية العثمانية تشهد تراجعاً خطيراً منذ عهد سليم الثاني (٩٧٤-٩٨٢هـ = ١٥٦٦-١٥٧٤م) ابن سليمان القانوني وخليفته. ومن الشواهد الدالة على هذا التراجع والضعف، هزيمة الأسطول العثماني في معركة لابنتو Laponte البحرية

سنة (٩٧٩هـ=١٥٧١م)، وهي المعركة الفاصلة في تاريخ البحرية العثمانية، حيث لم تتمكن من النهوض على قدميها بعدها.(٨٣) إلى أن أفل نجمها مع بداية (القرن الثاني عشر الهجري = الثامن عشر الميلادي) خاصة في عهد السلطان مصطفى الثالث (١١٧١-١١٨٨هـ= ١٧٥٧-١٧٧٤م)، والسلطان عبد الحميد الأول (١١٨٨-١٢٠٤هـ =١٧٧٤-١٧٨٩م)، حيث تخلت الدولة عن استخدام الأساطيل البحرية العسكرية.(٨٤)

وفي هذا السياق، يتناول محمد كرد علي، الحالة المتردية، التي وصل إليها الأسطول العثماني في آخر أيامه، حيث يقول "وانحلت بحرية الترك في أواخر أيامهم، حتى صرت لا تشاهد في ساحل الشام إلا على الندرة مراكب عثمانية، وهي إذا قيست إلى غيرها تبين الفرق العظيم بين بحرية الأمم المتحركة المتجددة وبحرية الأمة الجامدة الخامدة. وكانت الدولة إن صحت عزيمتها - في أواخر وقتها - على إنشاء (مراكب حربية أو مدنية) توصي عليها من صناعات إيطاليا أو فرنسا أو إنجلترا، لأن العلم بذلك فقد من بينها، ولم تسر مع العصر في الرقي البحري، كما سارت مع العصر في الجيش البري، بمعنى أن الدولة العثمانية أصبحت عشية سقوطها دولة برية فقط".(٨٥)

الخاتمة :

فبعد كل هذا الطواف حول إشكالية غياب البحرية العثمانية عن ساحة الكشوف الجغرافية غرباً بخاصة، على الرغم من تأهلها للمنافسة، يبدو أننا ما زلنا بحاجة إلى المزيد من الدراسات العلمية التاريخية الموضوعية تحديد إجابة قاطعة، حول مدى المسؤولية التي تتحملها في حرمان أمتنا من المشاركة العملية في اكتشاف القارة الأمريكية، لكن فيما عرضنا وانتهينا إليه يمكن القول بأن المسؤولية في ذلك ترجع إلى جملة أسباب مجتمعة، بعض هذه الأسباب يُرَدُّ لظروف الدولة الداخلية، وبعضها يرد لتبادل المصالح بين القوى العظمى آنذاك، وبعضها فرضيات لها ما يؤكدها على أرض الواقع. إلا أنه من المحقق، كانت هناك فرصة كبيرة أمامها لتحقيق إنجاز تاريخي ما في هذه القارة، هذه الفرصة، تمثلت في صانعي القرار في الدولة العثمانية، التي تزامن عصرها الذهبي مع حركة الكشوف والاستعمار الأوربي في الأراضي الجديدة (أمريكا)، حيث شهد هذا العصر سلاطين وقادة عظاماً، وجيوشاً جرارة قوية، برية وبحرية، حسنة التنظيم والتسليح، ومع ذلك أضاعوا هذه الفرصة الثمينة الأولى والأخيرة.

لكن إذا كان من عزاء لنا، في هذا الغياب العملي، فإن حضور أمتنا العلمي في هذه الكشوف لا يختلف عليه اثنان، وآية ذلك، تتجلى في الدور الذي لعبه مسلمو الأندلس في نقل العلوم الجغرافية والفلكية والملاحية إلى الأوربيين، التي كانت لاحقاً الأسس التي بنوا عليها صرح كشوفاتهم الكبرى في أمريكا، ورأس الرجاء الصالح، والمحيط الهادئ، وغيرها من الرحلات الجامعة في القرن (العاشر الهجري = السادس عشر الميلادي).

ومن الثابت أن كولومبوس تغذّى بعلومنا، وقرأ الطريق إلى القارة الأمريكية بلغتنا، واستهدى بخرائطنا، وأبحرت سفنه بأشرعتنا، واستعان بأجهزتنا الملاحية ومحققاً حلمه بالوصول إلى شواطئ الأمان – أياً كانت – ببحارتنا. وحسبنا أن المصادر التاريخية الإسلامية منها والأجنبية، تفيض بالمعلومات الدقيقة عن الإنجازات الجغرافية والملاحية والفلكية، التي حققها العلماء العرب والمسلمون، أمثال:

الإدريسي، والمقدسي، والأصطخري، وأبي الفداء، وابن خرداذبة، والمسعودي، وابن فضل الله العمري، وياقوت الحموي، وابن حوقل... الخ. وجاء في دائرة المعارف الفرنسية، أن كولومبوس اطلع على كتب العرب الجغرافية قبل قيامه برحلته التي أدت إلى اكتشاف أمريكا.(٨٦)

ولا حاجة إلى أن أوكد مرة أخرى أن القصد من إثارة هذا الموضوع المثير للجدل والشائك، هو لفت الانتباه إلى إشكالية غياب الدور العثماني في المنافسة البحرية في الكشوف الجغرافية للعالم الجديد، على الرغم من وجود الإمكانيات والندية للمشاركة في هذا السباق العالمي التاريخي، ومن المؤسف أن تكون هذه الإشكالية من القضايا المهملة عند المؤرخين المحدثين، ولا أحسب أنهما موضع العناية والاهتمام، وها أنذا أزرع بذرة في هذا الحقل العلمي، لعلها تكون مقدمة أولية، خليقة بالمزيد من الدراسات والبحوث العلمية الموضوعية، منزهة عن الأهواء الشخصية والأحكام المسبقة، ومبنية على أسس منهجية دقيقة، تثري مكتبتنا العربية، بإضافات علمية، فيما يخص هذه الإشكالية التاريخية، التي لا تقل أهمية عن مثيلاتها من الإشكالات التاريخية، التي تستأثر بالاهتمامات البحثية لعلماء التاريخ الأفاضل. وكلي ثقة، أننا سنرى منهم أعمالاً علمية جادة، تبدد ما يحيط بهذه الإشكالية من ضباب، لتتضح رؤية الطريق المستقيم للوصول إلى الحقيقة، التي ستكون بالضرورة حكم التاريخ، على المعاصرين، من سلاطين الدولة العثمانية، لتلك الحقبة التاريخية المهمة التي شهدت الكشوف الجغرافية الكبرى. ويقيني أن أي عمل علمي مهما وصل من درجات الرصانة العلمية لا يصل أبداً درجة الكمال أو التمام.

" إذا تَمّ أمرٌ بدا نَقصُهُ   توقَّع زوالاً إذا قِيلَ تمْ "

مهما يكن من أمر فإننا نرجو أن تكون هذه الحقائق التي قدمت والأدلة التي أبرزت في هذا الكتاب، كافية لأن تجيب عن تساؤلاتنا حول دور العرب والمسلمين التاريخي في اكتشاف العالم الجديد، وإلى أي مدى تأثرت أوربا بالفكر الجغرافي

العربي والإسلامي، وإلى أي حد كان تأثير هذا كله في كولومبوس ورواد الكشوف الجغرافية الأوربيين في مستهل العصور الحديثة، خصوصاً بعد أن أجمع معظم المؤرخين، وعلماء الآثار، والباحثين في تاريخ الكشوف الجغرافية على التسليم بصلاتنا بالعالم الجديد قبل اكتشاف كولومبوس (لأمريكا) بمئات السنين، ولعل دور كولومبوس التاريخي يكمن في قدرته على استغلال خبرات العرب وعلومهم أفضل استغلال، وفي فهمه كذلك لبعض الأخطاء التي وقع فيها الأسبقون وتجنبها، وفي قراره الشجاع، "الاستعانة بالعلم العربي الإسلامي، ورفضه موروثات أساطير التراث الغربي في العصور الوسطى عن الكون والبحار".

غاية الأمر، إن هذا العمل هو محاولة تقديم دراسة علمية للمهتمين والقراء على حد سواء، لا أرجو من ذلك إلا وجه الله، وإطلاق صيحة مدوية لعلها توقظ أصحاب الضمائر الحية في الأمة، ليشخصوا أسباب العلة التي ألمت بأمتنا، وليصفوا الدواء الناجع والأسلوب الصحيح لإعادتها إلى مدارها القويم كصاحبة رسالة خالدة لا تموت. وحسبي أن كل واحد منا غير راض عن وضع أمتنا الراهن وحالها المؤلم، وأني مقارنة بين حالنا وحال (العالم المتمدن) اليوم تجعل شعورنا يتزايد بعدم الرضا، وهو شعور مشوب بالحزن والقلق البالغ على مستقبلنا. لكن ما يحفزنا للصراع من أجل البقاء الحضاري والنوعي ما يتفاعل في وجداننا من صور رائعة جميلة لأمتنا ماثلة في تاريخها البعيد والقريب، على الصعد كافة (الدين واللغة والعلوم والآداب).

إن كتب التاريخ والآثار وغيرهما حوت معلومات ثرية عن فضل أمتنا على العالم في ميدان الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية بخاصة، وفي مختلف ميادين الفكر والتميز الحضاري بعامة، ولا يحتاج الباحث إلا أن يكلف نفسه عناء البحث والتفتيش بين ثنايا هذه الكتب القيمة، حتى يجد ما يروي ظمأه، سواء في موضوع هذه الدراسة، أو أي فرع من فروع العلم النافع، حيث سيجدها جميعاً تنطق بفضل العرب والمسلمين على العالم، وعزاؤنا أن من يحاول إخفاءها هو أعجز عن ذلك، عجزه عن إخفاء الشمس والقمر. من هنا جاء هذا الاحتشاد العلمي للموضوع (الكتاب) للرد بأضعف الإيمان على أنكر الأصوات، التي لم يكفها أنها ضنّت على أمتنا ولو

بكلمة طيبة واحدة، ووصمتها بأقذع الصفات!؟ متناسية أن نهضة الشرق والغرب في العصور الوسطى – وفي كل العصور – مدينة لأمتنا، التي استطاعت أن تؤثر برسالتها العالمية المتجددة في إعادة الروح والوعي الحضاري الشامل فيهما.

يقول أحمد شاكر الكرمي: "نحن لا نجحد فضل الغرب ولا ننكر أننا في حاجة قصوى إلى علومه وفنونه، أما تعصبه الذميم، ذلك التعصب الذي يمنعه في بلاده، ويبيحه في سواها، فلسنا في حاجة إليه. وقد جاءنا الغرب لسوء الحظ حاملا علومه وفنونه على مركبة من التعصب، إنه فتح أعيننا للنور، ولكنه ملأ قلوبنا بغضاً وحقداً، ولم يستطع أو لم يرد، أن يعلمنا كيف نحب، إلا أنه استطاع أن يلقننا كيف نبغض ".(٨٧) لقد فات هذه القوى الغشومة أننا أمة تفخر بانتمائها إلى أشرف رسالة إنسانية في الوجود. على الرغم من أننا لم نكن في يوم من الأيام أسوأ حالاً من هذه الأوقات السوداء العبوس القمطريرة، التي يحدث فيها لأول مرة في تاريخنا مثل هذا الانحدار الخطير، والانحطاط الفظيع والتصحر المريع، الذي انعكس على مجمل شؤون حياتنا، مهدداً لوجودنا وهويتنا واقتلاع أوتادنا وجذورنا.

ولعل ما يجعل المستقبل أكثر قتامة، أننا بعد أن كنا جبل الحضارة الأشم الذي يناطح الغيوم فيفجرها، فتنهمر مياهها ينابيع ثجاجة لتروي ما دونه، أصبحنا اليوم ولعوامل كثيرة داخلية وخارجية في الدرك الأسفل من سلّم الحضارة، وفي السفح من الجبل، وارتفعت على هاماته جبال أخرى، تتدفق من قممها سيول من مزيج حضاري، غمرنا، وحاصرنا من كل حدب وصوب، اختلط فيها الماء الفرات بالآسن الأجاج. لكن على الرغم من ذلك، يمكن أن نرتفع من جديد كالطود الشامخ، نتسامى بذراه إلى القمر،شرط أن نعود إلى ديننا الصحيح، عندئذ سنتذوق طعم الماضي اللذيذ، ونصنع منه سلماً نرتقي به أسباب قوة الغد العالمية، يقول جورج سارتون G. Sarton أحد أبرز علماء التاريخ والمؤرخين في أمريكا "لقد سبق للعرب أن قادوا العالم في مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم الإنساني طوال ألفي سنة على الأقل قبل اليونان، ثم في العصور الوسطى مدة أربعة قرون تقريباً، وليس ثمة ما يمنع هذه الشعوب أن تقود العالم ثانية في المستقبل القريب أو البعيد".(٨٨)

في الواقع، لم يكن الغرض من إعداد هذا الكتاب، البحث عن أوسمة جديدة، نعلقها على صدر أمتنا المزدان والمثقل بها، فأمجادنا ومفاخرنا تفوق نجوم السماء ، إن أمة قلدها الله وشاح النبوة، وأتمنها على رسالته للناس كافة، وجعل منها حضارة -هي باعتراف العقلاء - أهل الأرض عامة، أعظم حضارة شهدها العالم أجمع في الخلفقين، وميزها بالصفات الكاملة، وبنى له بيتاً على أرضها - في مكة المكرمة مدينة الله الفاضلة - وقبلة الإنسان في كل مكان، أمة لا تخشى من أصابع الحاسدين أن ترتفع لتحجب شمس الله، شمس الإسلام المتوهجة أبداً ضماناً لبقاء الزمان والمكان. إن الأمة قوية بإيمانها، عزيزة بدينها، واثقة بربها، أمة ردت للعالم بصره، ونظمت دقات قلبه بعد اضطراب، وأضاءت عقله، وبددت ظلماته بكلمة جاءت من عند الله على غير مثال سابق أو لاحق، وتمكنت في زمن قياسي من تحويل العالم إلى مدرسة إسلامية كبرى، تلاميذها الناس من كل الأجناس، ومنها الأساتذة، أمة لن يضيرها من يحرث في خضم بحورها الزواخر، أو من يلقى أمام نهرها العباب حصوات وقشات حاقدة حاسدة، في محاولة لإيقافه أو عرقلة جريانه، أو من يحاول أن يلتقط من سقط متاعها شيئاً أثيراً يكبر به، ولا يصغرها.

إن أمة مسحت دموع الإنسانية، عندما لم تجد غيرها، يمسح دموعها، ويبلسم جراحها، وحملت هَمَّ الدنيا دون أن تنتظر أحداً أن يحمل همها، وأنقذت العلم من براثن الذين اضطهدوه في كل دار غير ديارها، وانتشلت أوربا من إفلاس حضاري وشفا جرف هار، ونشرت العلم في كل ركن من أركان أرض وصلتها، أو لفحت وجهها رياح حضارتها، وأهدت العالم الألوف من رموزها العلماء الخالدين، أمة لن تصاب بالعقم، وما زالت، وستبقى ربة للشباب الدائم الذي لا يشيخ، يأتي من رحمها كل حين بإذن ربها علماء وقادة مصلحون ونجوم للأرض لليوم وللغد، إن أمة أعطت الأوائل والأواخر، وأرست مثلاً وفضائل ثابتات، ومساجد جامعات، ومنارات ومآذن عاليات، حولت العالم إلى بيت صغير في مسجد كبير، أمة لن تهون، ولن تحزن، ولن تهمش، وستظل أبداً هي القاعدة وما دونها استثناء، لها صنع التاريخ، ولغيرها أن يأخذ دوراً في الطابور للحصول على مقعد فيه أو مساحة لهامش.

نقول للذين ينعون مجد الأمة، بأننا لا ننكر أن التغني بالماضي من شيم الضعفاء، وجلد للذات، وأن خير أمة أخرجت للناس تعيش اليوم في مؤخرة الركب الحضاري، على الرغم من امتلاكها لكل عناصر القوة والاستمرار، وإن فتنا كقطع الليل المظلم تلف عالمنا، وتدفعنا في اتجاه حافة اليأس والقنوط إلا من رحمة الله، لكننا في الوقت نفسه نؤمن أصدق الإيمان بأن دياجير الظلام هذه ليست إلا حالة مؤقتة، تزول بزوال الأسباب، وهي ليست من الثوابت بأي حال من الأحوال، وإن أمتنا ما زالت تملك دينامية الطاقة الإسلامية التي لا تنفد، المادية منها والروحية، وهي بذلك تستطيع النهوض من جديد، وتأخذ زمام المبادرة مرة أخرى، وستبقى كأمة وسط ضمانة ضرورية لا غنى عنها لتحقيق التوازن بين البشر. ومع أن السلحفاة قد تباهي اليوم أمتنا بسرعتها – الأمة التي أُرغمت على السكون، وتصوير حركتها بالبطء، ليظهر العدو متفوقاً بسرعته المذهلة عليها، ويتجاوزها بمسافات بعيدة مقلقة – إلا أننا نذكر العدو المتغطرس بأن السلحفاة الصبورة الذكية، سبقت عند خط النهاية، الأرنب المدعي المغرور؟! إن ما يقوم به الغرب اليوم من محاولات مستميتة للتعتيم على شخصيتنا ودورنا الأهم في بناء أسس الحضارة الإنسانية، والتقليل من قيمة كنوز قدراتنا الفكرية والعلمية، والتمادي بالأذى، والإمعان في تشويه أصول تراثنا العربي الإسلامي، وإضعاف انتمائنا لديننا وعروبتنا وأمتنا الواحدة، أشبه ما يكون في نظرنا بعملاق يقف على رجلين من طين، وجبال ثلج ضخمة، يظنها الجاهلون صرحاً من جرانيت صوّان، لكن سرعان ما تشرق شموسنا ثانية بعد كسوف، فتذوب هذه الجبال الثلجية، وتصبح أثراً بعد عين، وتتحلل الأرجل الطينية، ويسقط العملاق أرضاً! "**كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال**" (الرعد:١٧). إن أمتنا هي قصة الماضي، والماضي قصتها، وصانعة الحاضر، والحاضر صنعها، وخطة المستقبل، والمستقبل خطتها...

" مضى السلفُ الأبرارُ يَعْبَقُ ذكرهمُ — سيرُوا كما سارُوا على الأرضِ واصنعُوا
ومـا الفخـرُ بالماضِي إذا لمْ يكُنْ له — مِنَ الحـاضرِ الـزاهي بِنـاءٌ مـرفـعُ "

هوامش الفصل الرابع والخاتمة:

١. انظر الهامش رقم ٢٧.

٢. انظر أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٢م، ص١٠٢.

٣. انظر رأفت الشيخ، في تاريخ العرب الحديث، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ٢٤ وما بعدها. انظر أيضا محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي، (١٥١٤هـ-١٩١٤م) مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٠م، ص١٠٢-١٠٣.

٤. قارن أحمد مصطفى، المرجع السابق، ص١٠٢ وما بعدها. كذلك رأفت الشيخ، المرجع السابق ص٢٥ وما بعدها.

٥. عن أحوال الوطن العربي عشية وصول العثمانيين، انظر الشيخ، المرجع السابق، ص٢٠-٢٤. كذلك راجع وقارن محمد الخضري بك، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية) المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٧٠م، ص٤٨٣-٥٠٣. انظر هنا ص ٤٨٧؛ أيضا Richard N. Frye, ed., The Near East and the Great Powers, Harvard University Press. USA., 1951,. P. 29.

٦. مثل الجزائر التي احتلها الفرنسيون سنة (١٢٤٦هـ = ١٨٣٠م) ثم امتد هذا الاحتلال إلى تونس والمغرب العربي عموما، بدءاً من السنة (١٢٩٩هـ = ١٨٨١م). هذا في الوقت الذي احتل فيه الإنجليز مصر سنة (١٣٠٠هـ = ١٨٨٢م). حيث دام هذا الاحتلال لأكثر من ٧٥ سنة. انظر الشيخ، المرجع السابق، ص٣٢٧ وما بعدها؛ انظر أيضا. أحمد عزت عبد الكريم، دراسات في تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٠م، ص٤١٠ وما بعدها.

٧. انظر، See John Marlowe, Arab Nationalism and British Imperialism, The Cresset Press, London, 1961, pp.17ff. كذلك Brian Gardner, Allenby of Arabia, Coward McCann Inc., New York, 1966, pp.66ff.. وانظر أيضا عبد العزيز نوار وعبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر (أوربا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية) دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٣م، ص٤٧١ وما بعدها.

٨. انظر محمد بيرم الخامس التونسي، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ج١، دار صادر، بيروت، صورة من الطبعة الأولى للكتاب، بالمطبعة الإعلامية، القاهرة، ١٨٨٥م، ص٣-٤ في (الباب الثالث – الفصل الأول)؛ انظر كذلك؛ عبد العزيز نوار، الشعوب الإسلامية (الأتراك العثمانيون – الفرس – مسلمو الهند) دار النهضة العربية، بيروت، = = ١٩٩١م، ص٢٥ وما بعدها؛ علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية، ط٢، المكتب الإسلامي، بيروت،

١٩٨٢م، ص١١ وما بعدها وهنا وهناك؛ مصطفى، المرجع السابق، ص١١ وما بعدها؛ انظر أيضا حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٢٥٦ وما بعدها؛ See also Herbert A. Gibbons, Foundation of the Ottoman Empire; a history of the Osmanlis up to the death of Bayezid I (1300-1403). (Islam and the modern world,9.) Oxford, 1916, repr. London, 1968, pp. 25, 263, 267.

٩. حدد كتاب تاريخ الإمبراطورية العثمانية لمجموعة من الباحثين، بإشراف المؤرخ روبير مانتران، والصادر بالفرنسية عن دار فايار، باريس، ١٩٨٩م، بعنوان Histoire de L'empire Ottoman, Sous la Direction de Robert Mantran, Fayard, Paris 1989. والصادر بالعربية (ترجمة بشير السباعي) عن دار الفكر للدراسات، القاهرة، ١٩٩٣م. يحدد تاريخ إنشاء الدولة العثمانية بسنة (١٣٠٢م)؛ انظر المرجع نفسه ص١٧، انظر كذلك نقولا زيادة، " تاريخ الإمبراطورية العثمانية في قراءة شاملة " في الحياة (جريدة) العدد ١٣٠٣٠، ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٨م، ص١٨.

١٠. انظر محمود السيد الدغيم، " أضواء على تاريخ البحرية الإسلامية العثمانية حتى نهاية عهد السلطان سليم الأول " بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي، ضمن مجموعة بحوث مشاركة في ندوة "الحضارة الإسلامية وعالم البحار" والتي عقدها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، في الفترة ٦-٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٣م، ص٣٧٩-٣٨٠ .

١١. عن مكانة العرب والمسلمين في عالم البحار، انظر فهمي توفيق مقبل، دور العرب في اكتشاف العالم الجديد، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩٤م ص١٣-٢٤ وهنا وهناك؛ انظر كذلك: الدغيم، المرجع السابق، ص٣٨١-٤١٦؛ فاروق عثمان أباظة، " القوى البحرية الإسلامية ومواجهة النشاط البحري الاستعماري في فجر العصور الحديثة " بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي، ضمن مجموعة بحوث مشاركة في ندوة "الحضارة الإسلامية وعالم البحار" والتي عقدها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، في الفترة ٦-٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٣م، ص٣٤١ وما بعدها؛ مؤنس، المرجع السابق، ص ٢٧٦-٢٨٤ وهنا وهناك؛ حسن صالح شهاب، فن الملاحة عند العرب، دار العودة، بيروت، ١٩٨٢م، ص١٥ وما بعدها؛ يعقوب (جورج)، المرجع السابق، ص٢٩-٣٠.

١٢. انظر أعمال المؤتمر العالمي الثامن للدراسات العثمانية حول: " البحرية والطرق التجارية العثمانية " الذي نظمته مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات في تونس، في الفترة من ١٥-١٩ تشرين أول (أكتوبر) ١٩٨٨م.

١٣. آيدين وصاروخان، الأولى مدينة تقع جنوب غرب تركيا بالأناضول (جنوب شرقي أزمير). والثانية شمال أزمير على بحر ايجه. من المعروف أنه بعد سقوط دولة السلاجقة، تجزأت

أملاكهم في آسيا الصغرى (الأناضول) إلى عشر إمارات صغيرة، وهي، قرة سي، وصاروخان، وآيدين، وتكة، والحميد، والقرمان، وكرميان، وقسطموني، ومنتشا، وقونية، ثم انضمت بالتدريج إلى الدولة العثمانية، انظر فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص١١٥، ١٣٧، ١٣٩. للمراجعة انظر المنجد، في اللغة والإعلام، ط٢٨، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٣م، ص١٠٠ و ٤٢٠؛ كذلك مؤنس، المرجع السابق، خريطة رقم ١٦١.

١٤. انظر مصطفى، المرجع السابق، ص٣٧؛ كذلك انظر الدغيم، المرجع السابق، ص٣٧٩؛ وقارن، Cf. John Bagot Glubb, A Short History of The Arab Peoples, Quartet Books, London, 1978, pp. 220-222.

١٥. انظر محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، ط٢، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٣م، ص ١٢٦؛ كذلك مصطفى، المرجع السابق، ص٤٥-٤٧؛ الدغيم، المرجع السابق، ص٣٧٩؛ مؤنس، المرجع السابق، ص٣٥٧.

١٦. مقدونيا وتراقيا، الأولى اسم بلاد كان يطلق على المنطقة المتوسطة في شبه الجزيرة البلقانية، تقاسمها بعد الحرب العالمية الأولى اليونان وبلغاريا ويوغسلافيا (السابقة). والثانية منطقة في جنوب أوربا الشرقية تقاسمتها منذ (١٣٣٨-١٣٤٢هـ=١٩١٩-١٩٢٣م) كل من اليونان (تراقيا الغربية) وبلغاريا (تراقيا الشمالية) وتركيا (تراقيا الشرقية وأهم مدنها استنبول). ومقدونيا وتراقيا تعنيان كذلك (الروميللي) بالمصطلح الحديث. انظر فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص١٥٠؛ مصطفى، المرجع السابق، ص٤٨؛ المنجد، المرجع السابق، ص١٨٤ و ٦٧٩.

١٧. انظر الدغيم، المرجع السابق، ص٣٨٤-٣٨٥؛ أيضا مصطفى، المرجع السابق، ص٤٩-٥٠؛ كذلك Also Glubb, op. cit, pp.222; P.M. Holt, Egypt and the Fertile Crescent (1516-1922) A Political History, Cornell University Press. London, 1966, pp.25- 27.

١٨. انظر الدغيم، المرجع السابق، ص٣٨٥؛ كذلك Holt, op. Cit., p.25

١٩. انظر فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص١٤٤؛ انظر كذلك: مصطفى، المرجع السابق، ص ٥٥؛ Also Holt, op. Cit., p.26.

٢٠. للوقوف على خلفيات وأسباب هذه المعركة، راجع فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص١٤٦-١٤٨؛ مصطفى، المرجع السابق، ص٥٥-٦٢؛ أنيس، المرجع السابق، ص٤٥-٥٤؛ أيضا Also Glubb, op. cit., pp.224-226; Holt,op.cit., p26. كذلك نوار، المرجع السابق، ص٣٦-٣٨.

٢١. انظر الدغيم، المرجع السابق، ص٣٨٥؛ انظر وقارن أنيس، المرجع السابق، ص٨١-٨٤.

٢٢. انظر فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص ١٥٣-١٥٥؛ أيضا الدغيم، المرجع السابق، ص٨٥-٨٦؛ حسون ، المرجع السابق، ص ٢٥-٢٦.

٢٣. انظر كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ط٧، ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٧م، ص٤٦٨-٤٦٩؛ وانظر أيضا See also, Holt op. cit., p.27 and Passim, op. cit., p.227. كذلك الدغيم، المرجع السابق، ص٢٨٦-٢٨٨؛ وللمزيد من التفاصيل انظر فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص١٦٠-١٧٨؛ انظر هنا: ص١٦١-١٦٤؛ مصطفى، المرجع السابق، ص٦٥-٧٢؛ حسون، المرجع السابق، ص٣١-٤٢.

٢٤. انظر فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص ١٧٥-١٧٦؛ انظر أيضا الدغيم، المرجع السابق، ص ٣٨٨؛ انظر أيضا الشيخ، المرجع السابق، ص ٢٣، ٢٥ و ٣٦.

٢٥. انظر الدغيم، المرجع السابق، ص٣٨٨-٣٩٠؛ وانظر وقارن Cf. W. The Expantion, of Islam, An Arab religion, in the non- Arab World, Edinburgh Wilson Cash House Press, London, 1928, pp.122-145, see here, p. 126.

٢٦. المورة Morea اسم أطلق في العصور الوسطى على شبه جزيرة بيلوبونيز Peloponnesus وهو اسمها القديم، وتقع هذه الجزيرة في القسم الجنوبي من بلاد اليونان. انظر International, A. World Book (The) Encyclopedia, vol. 15, World book Scott Fetzer Co., London, Chicago, 1994, p.249. انظر أيضا المنجد، المرجع السابق، ص١٧٨.

٢٧. القرم أو القريم Crimea إقليم (شبه جزيرة) جزء من جمهورية أوكرانيا، إحدى جمهوريات الإتحاد السوفيتي السابق. تفصل شبه جزيرة القرم البحر الأسود عن بحر آزوف ومساحتها ٢٥٠٨٨٠ كم٢. وقعت فيها الحرب الشهيرة المعروفة باسمها "حرب القرم" (١٢٧٠-١٢٧٣هـ=١٨٥٣-١٨٥٦م) والتي دارت رحاها بين القوات الروسية من جهة، وبين قوات الحلفاء الدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا وسردينيه (بيامونته – مقاطعة في شمال غرب إيطاليا) من جهة أخرى. للمزيد انظر World Book (The) op. cit., vol. 4, pp. 439-441 وانظر أيضا: المنجد، ص ٥٤٨. وللمزيد من المعلومات والتفاصيل عن أسباب الحرب ونتائجها، انظر فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص ٤٩١-٥٢٣.

٢٨. انظر مصطفى، المرجع السابق، ص٧٢؛ وانظر كذلك فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص١٧٦-١٧٧.

٢٩. عن شخصية كولومبوس وسيرته. انظر مقبل، المرجع السابق، ص٦٣ وما بعدها؛ وانظر أيضا: World Book (The) op. cit., vol. 4, pp. 206-213.

٣٠. انظر مؤنس، المرجع السابق، ص٣٥٩؛ كذلك مصطفى، المرجع السابق، ص٧٣-٧٤؛ الدغيم، المرجع السابق، ص٣٩٠-٣٩٣؛ وكذلك Holt, op. Cit., p.28

٣١. انظر مؤنس، المرجع السابق، ص٣٥٩؛ وفريد بك المحامي، المرجع السابق، ص ١٨٥؛ والدغيم، المرجع السابق، ص ٣٩٣.

٣٢. انظر الدغيم، المرجع السابق، ص٢٩٣-٢٩٤؛ أيضا قارن Cf. Holt, op. cit., pp.36ff. ؛ وانظر كذلك أمين توفيق الطيبي، " المواجهة العثمانية البرتغالية بالبحر الأحمر بالقرن السادس عشر"، في الحياة (جريدة) العدد ١١٩١٧، ٨ تشرين أول (أكتوبر) ١٩٩٥م، ص٢٢؛ بروكلمان، المرجع السابق، ص٤٦٩.

٣٣. انظر فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص٢٠٥-٢٠٦؛ مؤنس، المرجع السابق، ص ٣٥٩؛ الدغيم، المرجع السابق، ص٣٩٤-٣٩٩؛ مصطفى، المرجع السابق، ص٨٧-١٠٤؛ انظر هنا ص ٨٩ وما بعدها.

٣٤. انظر الدغيم، المرجع السابق، ص٣٩٤-٣٩٥؛ أيضا Holt, op. cit., pp52-57 ؛ فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص٢٠٣؛ حسون، المرجع السابق، ص٤٦ وما بعدها؛ وكذلك بروكلمان، المرجع السابق، ص٤٥٢-٤٥٥.

٣٥. عن الأسطول الأسباني (الأرمادا) راجع World Book (The) op. cit., vol. 18, pp.183, 188-189 موسوعة المعرفة العالمية، المرجع السابق، م٤ ، ص ٧٠٠-٧٠١.

٣٦. انظر فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص٢٥٣؛ أيضا الدغيم، المرجع السابق، ص٣٩٩؛ مؤنس، المرجع السابق، ص٣٥٩-٣٦٠.

٣٧. انظر مقبل، المرجع السابق، ص ٣٥ وما بعدها.

٣٨. انظر مؤنس، المرجع السابق، ص٢١٠؛ كذلك عبد الحميد نعنعي، تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية الحديث، دار النهضة العربية،بيروت، ١٩٨٣م، ص١٢-١٣؛ الشيخ، المرجع السابق، ص٣٥-٣٦؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢م، ص٢٤٩ وما بعدها؛ بروكلمان، المرجع السابق، ص٤٤٨ وما بعدها. مصطفى، المرجع السابق، ص٨٤-٨٥.

٣٩. انظر عبد الفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى (النهضات والحضارة والنظم) ج٢، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٠م، ص٤٨٣ وما بعدها. انظر أيضا مقبل، المرجع السابق، ص٧٧ وما بعدها.

٤٠. آل بربروس أربعة أخوة، اسحق، وأوروج (يكتب ويلفظ خطأ عروج) وخضر (خير الدين) وإلياس، والدهم يعقوب، اشتهر منهم خضر (خير الدين باشا البحري) وأروج، ويعود أصلهم إلى

جزيرة (مدللي) وتعرف كذلك باسم لسبوس وتلفظ أيضا لسفوس، وتقــع فــي = = الأرخبيــل اليوناني في بحر ايجة (عاصمتها ميتيلين) مساحتها ٢٠١٥٤كم٢. وقد اشتهر خير الدين في كتـب الغرب باسم (بارب بروس) وتلفظ على عدة أوجه بربورس، وباربارس، وبربـــاروس، أي ذي اللحية الصهباء أو الحمراء. أسس الأخوين بربروس دولة الجزائر منذ مطلــع القــرن (العاشــر الهجري = السادس عشر الميلادي) وقد قتل الأسبان أروج في تلمسان سنة (٩٢٤هـــ = ١٥١٨م) في السنة نفسها التي استنجد فيها شقيقه خير الدين بالسلطان العثماني سليم الأول لتصبح من هـــذا التاريخ جزءاً من الدولة العثمانية وحتى احتلال فرنسا لها سنة (١٢٤٦هـــ=١٨٣٠م) وقد توفــي خير الدين سنة (٩٥٣هـــ = ١٥٤٦م) في استانبول. للمزيد عن الأخوين بربروس انظر فريد بــك المحامي، المرجع السابق، ص٢٣٠؛ وانظر أيضا الدغيم، المرجع الســابق، ص٣٩٦؛ خاصــة الهامش رقم ١٠٠؛ المنجد، المرجع السابق، ص١٢٣ و ٦١٣؛ World Book (The) op. cit., vol. 12 p.182 ؛ بروكلمان، المرجع السابق، ص٤٥٣-٤٥٥.

٤١. انظر الدغيم، المرجع السابق، ص٣٩٧. كذلك مؤنس، المرجع السابق، ص٣٥٩.

٤٢. انظر مصطفى، المرجع السابق، ص٧-٩. وقــارن Cf. Cash, op. cit., pp.127 ff.; Holt, op. cit., pp.23 ff.

٤٣. انظر حسون، المرجع السابق، ص ٤٢. وقارن فريد بــــك المحــامي، المرجــع الســابق، ص١٨٣-١٨٥؛ أيضا Glubb, op. Cit., 231 ff

٤٤. انظر نعنعي، المرجع السابق، ص٨ وما بعدها؛ أباظة، المرجع السابق، ص٣٤٧ وما بعدهــا؛ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، معالم التاريخ الأوروبي الحديث والمعـــاصر، دار المتنبـــي، الدوحـــة (قطر) ١٩٨٢م، ص٤٧-٤٩؛ World Book The) op. cit., vol.9, pp. 155-156) ، مؤنس، المرجـــع الســـابق، ص ٢٨٥؛ Basheer A. Kazim "Portuguese Explorations and Their Aims", in al-Watheekah, (magazine) The Historical Documents centre, Bahrain, July, 1988, pp. 218-228. See here p. 224. ؛

٤٥. See Husam al-Khadim, " Ibn Majid (his role in the discovery of a sea route to India and Evidence of Scientific Thinking His Writings)" in al-Watheekah, (magazine)The Historical Documents Centre, Bahrain, January, 1989, pp. 219-235. See here p. 228. See also World Book (The) op. cit., vol.5, p. 4. انظر كذلك مؤنس، المرجع السابق، ص٢١٠؛ علي شوك، " ازدهـــار الملاحــة العربية وأفولها، فاسكو دي جاما يؤسس للاستعمار الأوربي بمذابح ضد المسلمين"، فــي الحيــاة (جريدة) العدد ١٢٦٥٧، تشرين أول (أكتوبر) ١٩٩٧م، ص٢١؛ نعنعي، المرجع السابق، ص١١. وعن جذور الصراع على تجارة المحيط الهندي، انظر شهاب، المرجع الســابق، ص٣٧-١٥١؛ انظر هنا ص٤٦؛ أباظة، = = المرجع السابق، ص٣٤٧-٣٤٩؛ جمال الدين الشيال، التــاريخ

الإسلامي، وأثره في الفكر التاريخي الأوربي في عصر النهضة، دار الثقافة، بيروت، د.ت.، ص٨٧.

٤٦. انظر فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص١٨٤-١٨٥. وانظر أيضا حسون، المرجع السابق، ص٤٢؛ وقارن الدغيم، المرجع السابق، ص٣٩٣؛ World Book (the) op. cit., vol.1, p269 ؛ بروكلمان، المرجع السابق، ص٢٤٢ وما بعدها.

٤٧. انظر فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص١٧٩، ١٨٦-١٨٧؛ كذلك انظر مصطفى، المرجع السابق، ص٧٤-٧٥؛ Holt, op. Cit., pp.27 ff.

٤٨. انظر مصطفى، المرجع السابق، ص٥٠-٥١. وقارن بروكلمان، المرجع السابق، ص٤٢٢.

٤٩. See Kazim, op. cit., pp. 224-226. كذلك بروكلمان، المرجع السابق، ص٤١٩؛ أباظة، المرجع السابق، ص٣٥١ وما بعدها؛ نعنعي، المرجع السابق، ص٩؛ عبد الرحيم، المرجع السابق، ص٤٤.

٥٠. انظر نعنعي، المرجع السابق، ص٧-١٤؛ انظر هنا: ص١٠. كذلك قارن عبد الرحيم، المرجع السابق، ص٤٤-٤٦؛ Cf. Kazim, op. Cit., pp. 226-228.

٥١. انظر الدغيم، المرجع السابق، ص٣٩٣. وقارن Cf. Holt, op. cit., p.28.

٥٢. توردسيلا مدينة في أسبانيا تقع قرب فالادوليد (بلد الوليد) في غرب البلاد، قريبة من الحدود البرتغالية. انظر Also see The New Oxford Atlas, University Press, Ely House, London, 1975, p. 35. Also see (Index) p. 193. انظر هنا نعنعي، المرجع السابق، ص١١؛ أيضا عبد الرحيم، المرجع السابق، ص٥٨.

٥٣. انظر نعنعي، المرجع السابق، ص١١.

٥٤. انظر محمد رفعت، أشهر المعارك الحربية التي غيرت وجه التاريخ، مؤسسة عز الدين، بيروت، ١٩٨٨م، ص١٦٠. انظر وقارن أيضا: عبد الرحيم، المرجع السابق، ص٥-١٢؛ انظر هنا: ص٥-٧؛ الطاهر محمد مكي، " خمسة قرون على الخروج من الأندلس "، في العربي (مجلة) العدد آذار (مارس) ١٩٢٢م،ص١٣٢-١٣٧؛ وقارن تاريخ الكشوف البحرية منذ أقدم عصورها وحتى العصر الحديث (عربية وأوربية). كذلك World Book (the) op. cit., vol. 6, pp. 417-428. See here pp. 420-423.

٥٥. انظر أباظة، المرجع السابق، ص٣٤٣. وانظر كذلك: فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص١٨٦-١٨٧؛ مصطفى، المرجع السابق، ص٧٦.

٥٦. انظر عبد الجليل التميمي، دراسات في التاريخ العثماني (١٤٥٣-١٩١٨م) مركز الدراسات والبحوث العثمانية، زغوان (تونس) ١٩٩٤م، ص٦٧ وما بعدها. أيضا انظر مصطفى، المرجع

السابق، ص١٠٢-١٠٣؛ فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص١٩٥وما بعدهـا = = أيضا Glubb, op. cit., pp. 230 ff.; Holt, op. cit., pp. 36-41, 43-46 Passim

٥٧. انظر World Book (the) op. cit., vol. 20, p. 349. وانظر كذلك: مقبل، المرجع السابق، ص ٥٦-٦٦.

٥٨. انظر حسون، المرجع السابق، ص٤٦. انظر أيضا وقارن أباظة، المرجع السابق، ص٣٤٣-٣٤٦؛ World Book (the) op.cit., vol. 12,p. 178.

٥٩. انظر محمد كرد على، مخطط الشام، ط٢، ج٥، دار العلـم للملايين، بيروت، ١٩٧١م، ص٤٥.

٦٠. عن مارتن لوثر وحركته الدينية المسيحية الإصلاحية، انظر World Book (the) op. cit., vol.12, pp. 418-420؛ أيضا راجع عبد الرحيم، المرجع السابق، ص٧٩-٩٥. انظـر هنـا: ٨٤-٨٨؛ كذلك انظر وقارن محمد رفعت، المرجع السابق، ص١٦٠-١٦١.

٦١. انظر مصطفى، المرجع السابق، ص٨٧.

٦٢. غاليبولي (كليبولي) Gallipoli peninsula، مدينة ذات أهمية استراتيجية تقع علـى ضفـة بوغاز الدردنيل The Dardanelles ، الممر الوحيد بين بحار أوربا وبحر مرمرة، وتقع علـى مسافة ١٤٠كلم من مدينة ادرنة، وتقع في آخر مضيق الدردنيل في الجـانب الأوربـي، نظمـت المرور فيه معاهدة مونترو (مدينة في سويسرا) سنة (١٣٥٥هـ = ١٩٣٦م). انظر فريـد بـك المحامي، المرجع السابق، ص١٢٦ هامش١؛ انظر أيضا: World Book (The) op. cit., vol.8, p. 17 وانظر Ibid., vol. 5, pp. 33-34 ، أيضا انظر حـول مجريـات الحـرب العالمية الأولى، وما يتعلق بهذا المضيق الحيوي؛ Ibid., vol.21, pp.362-379; see here p. 369.

٦٣. انظر الدغيم، المرجع السابق، ص٣٩٣-٣٩٤.

٦٤. انظر أنيس، المرجع السابق، ص٨٣-٨٤. أيضا الدغيم، المرجع السابق، ص٣٩٤. وقـارن موفق بني المرجة، صحوة الرجل المريض أو السلطان عبد الحميد والخلافة الإسلامية، ط٨، دار البيارق، بيروت ١٩٩٦م، ص٤٠-٤١؛ Holt, op. cit., pp. 36-38؛ أيضا انظـر وقـارن: أعمال مؤتمر جمعية آرام العاشر المنعقد في بيروت من ١٤-١٦ نيسان (إبريل) فـي رحـاب الجامعة الأمريكية في بيروت تحت عنوان " العصر العثماني الأول في بـلاد الشـام القرنـان السادس عشر والسابع عشر. تاريخ وآثار ". راجع هنا: بحث د. نقولا زيادة بخاصة، " الاحتـلال العثماني لبلاد الشام وآثاره المباشرة ".

٦٥. انظر أنيس، المرجع السابق، ص٤٧.

٦٦. انظر عبد الرحيم، المرجع السابق، ص٤٧.

٦٧. انظر مصطفى، المرجع السابق، ص١٠٣. انظر أيضا: عبد الرحيم، المرجع السابق، ص٥٩-٦٠ و ٦٢-٦٥؛ رفعت، المرجع السابق، ص١٦٠؛ وقارن عبد الفتاح حسن أبو علية، تاريخ الأمريكيتين والتكوين السياسي للولايات المتحدة الأمريكية، دار المريخ، الرياض، ١٩٨٧م، ص١٣ وما بعدها؛ ولتثمين الآثار الاقتصادية المترتبة على الكشوف الجغرافية في العالم الجديد انظر بني المرجة، المرجع السابق، ص٤٤.

٦٨. انظر الشيخ، المرجع السابق، ص٢٤-٢٥. وانظر كذلك: إسماعيل ياغي، العالم العربي في التاريخ العثماني، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٩٩٧م، ص٣١ وما بعدها. وقارن فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص١٨٩ وما بعدها؛ Cf. W. B. Fisher, The Middle East (A Physical, Social, and Regional Geographies) Methuen, London, 1961, pp. 150-154.

٦٩. عن شخصية سليمان القانوني العالمية بعيون غربية، انظر See Merle Severy, "The World of Suleyman the Magnificent", in National Geographic (Magazine) vol. 172 No.5, November, 1987, pp. 552-601، انظر كذلك Holt., op. cit., p. 29; also World Book (the) op. cit., vol.18, p.397، انظر هنا: بني المرجة، المرجع السابق، ص٤١-٤٣؛ أيضا فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص١٩٨؛ مصطفى، المرجع السابق، ص٨٨-٨٩.

٧٠. انظر سامي ريحانا، المجتمعات العسكرية عبر التاريخ، دار الحداثة، بيروت، ١٩٩٦م، ص٢٤٤. انظر وقارن عبد الحليم سليمان، تاريخ الموانئ المصرية في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م، ص٤٢ وما بعدها. عن تشكيل القوات البحرية العثمانية، انظر محمود شوكت، التشكيلات والأزياء العسكرية العثمانية، منذ بداية تشكيل الجيش العثماني حتى ١٨٢٥م، ترجمة عن التركية يوسف نعيسة ومحمود عامر، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٨م، ص٥٧-٥٩.

٧١. انظر الشيخ، المرجع السابق، ص٣٦. أيضا الطيبي، المرجع السابق، ص٢٢. كذلك سليمان، المرجع السابق، ص٤٦-٤٧.

٧٢. انظر مؤنس، المرجع السابق، ص٣٥٩. أيضا الشيخ، المرجع السابق، ص٢٥؛ كذلك Severy, op. cit., pp. 568 ff.

٧٣. انظر مؤنس، المرجع السابق، ص٣٥٩.

٧٤. انظر نعنعي، المرجع السابق، ص٣٤. أيضا نوار، المرجع السابق، ص٥٣٧؛ كذلك Severy, op. cit., pp. 564.

٧٥. للإطلاع على نص معاهدة " الامتيازات الأجنبية " "Capitulations" ، انظر فريـــد بـــك المحامي، المرجع الســـابق، ص٢٢٣-٢٢٩. والامتيازات الأجنبية عبارة عن انعامات خاصة في التجارة والأحوال الشخصية يتكرم بها الباب العالي (السلطان العثماني) علـــى بعـض دول = = أوربا، بشأن رعاياها القاطنين " الإمبراطورية " العثمانية. أشهرها الامتيازات الفرنسية. عقـــدت أولاها مع فرنسوا الأول ملك فرنسا والسلطان سليمان القانوني (٩٤٢هـ = ١٥٣٥م) ثم تجـددت مراراً آخرها سنة (١١٥٣هـ=١٧٤٠م). فأعطت فرنسا حق حماية المرسلين وزوار الأراضـــي المقدسة، مما بسط حماية فعلية على المسيحيين الشرقيين، فكان هذا تثبيتـــاً للوجـود الفرنســي سياسيـــاً بثوب تجاري. وقد نالت امتيازات تجاريـــة كل مـــن انجلـترا (٩٨٧هـــ = ١٥٧٩م) وهولندا (١٠٢٢هـ = ١٦١٣م) ثم أسبانيا وروسيا. ألغيـــت الامتيـــازات ســنة (١٣٣٣هـــ = ١٩١٤م) عشية دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا. للمزيد انظر قيس العزاوي، الدولة العثمانية، قراءة جديدة لعوامل انحطاط، الدار العربية للعلوم،بـــيروت، ومركـــز دراسات الإسلام، فلوريدا، (الولايات المتحدة الأمريكية) ١٩٤٤م، ص١٧-٢٩؛ أيضـــا محمـــد طقوش، العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب علـــى الخلافـــة (٦٩٨-١٣٤٣هـــ = ١٢٩٩-١٩٢٤م)، دار بيروت المحروسة، بيروت، ١٩٩٥م، ص١٧٢،١٨٤ وما بعدها. انظر هنا كذلـك المنجد، المرجع الســـابق، ص٦٤. وانظر وقارن: نقولا زيادة، " تاريخ الإمبراطورية العثمانيـــة في قراءة شاملة " المرجع السابق، ص١٨.

٧٦. انظر مؤنس، المرجع السابق، ص٣٥٩. أيضا نقولا زيـــادة، " تـــاريخ الامبراطوريـــة... " المرجع السابق، ص١٨؛ الشيخ، المرجع السابق، ص٤٢.

٧٧. انظر ياغي، المرجع السابق، ص٣١. أيضا Severy, op. cit., p. 566; Holt, op. cit., p. 56.

٧٨. انظر مؤنس، المرجع السابق، ص٢٥٩. وقارن عبد الكريم، المرجع الســـابق، ص٢٦-٢٧. أيضا Severy, op. cit., pp. 585-587

٧٩. انظر الهامش رقم ٧٥.

٨٠. See Charles Swallow, The Sick Man of Europe (Ottoman Empire to Turkish Republic 1789-1923) Ernest Benn, London 1973, pp.5 ff., 106-120. انظر أيضا عبد الكريم، المرجع السابق، ص٢٨-٣١.

٨١. انظر أنيس، المرجع السابق، ص٨٣. انظر هامش رقم ٧٥.

٨٢. انظر نعنعي، المرجع السابق، ص٣٤. أيضا أباظة، المرجع السابق، ص٣٦١. Also see World Book (The) op. cit., vol. 18, pp. 183, 188-189.

٨٣. انظر ريحانا، المرجع السابق، ص ٢٤٤-٢٤٥. أيضا الدغيم، المرجع السـابق، ص ٤٠٦ وما بعدها. وقارن Cf. Holt, op. cit., p. 61.

٨٤. انظر ريحانا، المرجع السابق، ص٢٤٥. انظر see Swallow, op. cit., p. 12 وانظـر كذلك: فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص٣٣٥-٣٣٦. أيضا قارن بني المرجـة، المرجـع السابق، ص٤٨-٤٩. وقارن التونسي، المرجع السابق، ص٥٥ وما بعدها.

٨٥. انظر محمد كرد علي، المرجع السابق، ج٥، ص٤٥.

٨٦. انظر مقبل ، المرجع السابق، ص١١-١٢. أيضا عاشور، المرجـع السـابق، ص٥١٠-٥١١.

٨٧. نوري الجراح (الناقد أحمد شكري الكرمي في رحلة إلى درة التاج) مسلسلة في حلقات فـي الحياة (جريدة)، العدد ١٠٧١٦، ١١ حزيران (يونيو) ١٩٩٢م. انظـر هنـا الحلقـة السادسـة، ص١٥.

٨٨. انظر الدواليبي، المرجع السابق، ص٧٩.

ثبت بأهم المصادر والمراجع

(أولاً) العربية :

١) أباظة، فاروق عثمان، " **القوى البحرية الإسلامية ومواجهة النشاط البحري الاستعماري في فجر العصور الحديثة** "، بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي، ضمن مجموعة بحوث مشاركة في ندوة "**الحضارة الإسلامية وعالم البحار**" والتي عقدها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، في الفترة من ٦-٨ تشرين أول (نوفمبر) ١٩٩٣م.

٢) إبراهيم محمد فؤاد، وآخرون، موسوعة المعرفة العالمية، في ١٨ جزءاً، ترادكسيم، جنيف، ترجمة دار الأهرام، القاهرة، د.ت.

٣) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد (ت ٤٥٦هـ=١٠٦٣م)، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، (٥ أجزاء) المطبعة الأدبية، القاهرة، ١٩٠٣م .

٤) ابن سعيد الأندلسي (ت٦١٠-٦٨٥هـ = ١٢١٣-١٢٨٦م)، **نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب**، (جزآن)، تحقيق نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٢م .

٥) أبو علية، عبد الفتاح، **تاريخ الأمريكيتين والتكوين السياسي للولايات المتحدة الأمريكية**، دار المريخ، الرياض، ١٩٨٧م .

٦) أحمد، عبد السلام سيد، "**وداعاً يا سنة كولومبوس، ولنعد الاعتبار إلى اولئك السكان الأصليين**"، في الحياة (جريدة) العدد ١٠٨٧٣ ، ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٢م .

٧) الأنصاري، عبد الرحمن الطيب، **قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية**، جامعة الرياض (الملك سعود) الرياض، ١٩٨٢م .

٨) أنيس، محمد، **الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤-١٩١٤م)**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،١٩٩٠م.

٩) بروكلمان، كارل، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ط٧، ترجمة نبيه فارس ومنير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٧م.

١٠) البهنسي، عفيف، "**تراثنا الغريب في متاحف العالم**"، في المنهل (مجلة) العدد ٤٥٤ السنوي المتخصص (الأثر والآثار) أيار (مايو) - حزيران (يونيو) ١٩٨٧م .

١١) البوريني، عبد الرحمن، "**لغات العالم لهجات من العربية بحث جديد في أن اللغة العربية أصل اللغات جميعها**"، في النور (مجلة) العدد ٧٣.

١٢) التميمي، عبد الجليل، **دراسات في التاريخ العربي العثماني (١٤٥٣-١٩١٨م)** مركز الدراسات والبحوث العثمانية، زغوان (تونس) ١٩٩٤م.

١٣) التونسي، محمد بيرم الخامس، **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**، في جزئين، دار صادر، بيروت، صورة عن الطبعة الأولى للكتاب، بالمطبعة الإعلامية، القاهرة، ١٨٨٥م.

١٤) جعفر، إحسان، "**ابن الوردي، وصف أمريكا قبل اكتشافها بأكثر من مائة عام**"، في الفيصل (مجلة) العدد ١٧٩.

١٥) الجوهري، يسرى، **الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية**، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٩م.

١٦) حسون، علي، **تاريخ الدولة العثمانية**، ط٢، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢م.

١٧) حمادة، ماهر، **المكتبات في الإسلام، نشأتها وتطورها ومصائرها**. مؤسسة الرسالة، بيروت ، ١٩٧٩م.

١٨) حوراني، جورج فضلو، **العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى**، ترجمة يعقوب بكر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة (د.ت).

١٩) الخازن، نسيب وهيب (الشيخ)، **من الساميين إلى العرب**، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩م.

٢٠) الخضري، محمد بك، **محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية**، في جزئين، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٧٠م.

٢١) الخطابي، محمد محمد، **وصول كولومبوس إلى العالم الجديد تصادف مع سقوط غرناطة آخر معاقل الإسلام في إسبانيا**، في الشرق الأوسط (جريدة) العدد ٤٩١٥، ١٣ أيار (مايو) ١٩٩٢م.

٢٢) الخطيب، محمد نمر (الشيخ)، **موقف الدين من العلم**، دار العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٢م.

٢٣) الدغيم، محمود السيد، " **أضواء على تاريخ البحرية الإسلامية العثمانية حتى نهاية عهد السلطان سليم الأول** "، بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي، ضمن مجموعة بحوث مشاركة في ندوة "**الحضارة الإسلامية وعالم البحار**"، والتي عقدها المؤرخين العرب بالقاهرة في الفترة من ٦-٨ تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩٩٣م.

٢٤) الدفاع، علي عبد الله، **الموجز في التراث العلمي الإسلامي**، دار جون وايلي وأولاده، نيويورك، ١٩٧٩م.

٢٥) دهمان، محمد أحمد، "**علم الساعة والعمل بها**"، في البصائر (مجلة فصلية تبحث في التراث الشرقي، تصدر عن الاتحاد الثقافي في فرنسا) العدد ٤، ١٩٨٥م .

٢٦) الدواليبي، محمد معروف، **دراسة تاريخية عن أصل العرب وحضاراتهم الإنسانية**، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧١م .

٢٧) دوركي، نور الدين، **الدراسات العلمية التاريخية تؤكد أن العرب اكتشفوا أمريكا قبل كولومبوس**، في أهلاً وسهلاً (مجلة) تصدر عن السعودية (الخطوط الجوية) العدد١٠، تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٥م .

٢٨) رفعت، محمد، **أشهر المعارك الحربية التي غيرت وجه التاريخ**، مؤسسة عز الدين، بيروت، ١٩٨٨م.

٢٩) ريحانا، سامي، **المجتمعات العسكرية عبر التاريخ**، دار الحداثة، بيروت، ١٩٩٦م .

٣٠) الريحاوي، عبد القادر، **العمارة العربية الإسلامية، خصائصها وأثرها في سوريا**، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٩م .

٣١) زكريا، هاشم زكريا، **فضل الحضارة الإسلامية على العالم**، دار نهضة مصر، القاهرة،١٩٧٠م .

٣٢) زيادة، نقولا، " **تاريخ الإمبراطورية العثمانية في قراءة شاملة** "، في الحياة (جريدة) العدد ١٣٠٣٠، تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩٨٨م.

٣٣) زيادة، نقولا، "**الجزيرة العربية حتى ظهور الإسلام... دول شمال الجزيرة العربية**"، في الخفجي (مجلة) عدد نيسان (أبريل) ١٩٨٨م .

٣٤) سالم، السيد عبد العزيز، **دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام**، مؤسسة الشباب، الجامعة الإسكندرية، د.ت.

٣٥) سعاده، ايلي، "**على هامش العثور على حطام السفينة الفينيقية .. التجارة والمستعمرات في عصر ملاحتهم الذهبي**"، في الحياة (جريدة) العدد ١٣٠٥٠ ، ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٨م .

٣٦) سليمان، عبد الحميد، **تاريخ الموانئ المصرية في العصر العثماني**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٩٥م.

٣٧) سوداح، سعاده، "احتفالات عربية وإسلامية بذكرى الوصول إلى القارة الأمريكية – الأدلة الاثارية والتاريخية على وصول الفينيقيين والمسلمين إلى "الأرض الجديدة"، في الحياة (جريدة) العدد ١٢٦٦٩ ، ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٧م.

٣٨) شاهين، طلعت، "**سيمون الحايك : أول من شاهد أمريكا موريسكي عربي**"، في الحياة (جريدة) العدد ١٠٩٣٣، كانون الثاني (يناير) ١٩٩٣م .

٣٩) شحاته، عبد الله، **تفسير الآيات الكونية**، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٠م .

٤٠) شهاب، حسن صالح، فن الملاحة عند العرب، دار العودة، بيروت، ١٩٨٢م.

٤١) الشوك، علي، "ازدهار الملاحة العربية وأفولها، فاسكو دا جاما يؤسس للاستعمار الأوربي بمذابح ضد المسلمين"، في (الحياة) جريدة العدد ١٢٦٥٧، تشرين أول (أكتوبر) ١٩٩٧م.

٤٢) شوكت، محمود، التشكيلات والأزياء العسكرية العثمانية منذ بداية تشكيل الجيش العثماني حتى ١٨٢٥م، ترجمه عن التركية يوسف نعيسة وحمود عامر، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٨م.

٤٣) الشيال، جمال الدين، التاريخ الإسلامي، وأثره في الفكر التاريخي الأوربي في عصر النهضة، دار الثقافة، بيروت، د.ت.

٤٤) الشيخ، رأفت، في تاريخ العرب الحديث، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩٢م.

٤٥) صادق، عادل أحمد (ترجمة) "بحيرات الربع الخالي، وهم هي أم حقيقة"، في القافلة (مجلة) العدد الخامس، المجلد الثامن والثلاثون، ١٩٨٨م .

٤٦) طقوش، محمد، العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب العثماني (٦٩٨-١٣٤٣هـ = ١٢٩٩-١٩٢٤م) دار بيروت المحروسة، بيروت، ١٩٩٥م.

٤٧) الطويل، توفيق، في تراثنا العربي الإسلامي، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٥م .

٤٨) الطيبي، أمين توفيق، "المواجهة العثمانية البرتغالية بالبحر الأحمر بالقرن السادس عشر"، في الحياة (جريدة) العدد ١١٩١٧، ٨ تشرين أول (أكتوبر) ١٩٩٥م.

٤٩) عاشور، سعيد عبد الفتاح، أوربا العصور الوسطى، النهضات والحضارة والنظم، ج٢، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٠م .

٥٠) عاشور، سعيد عبد الفتاح، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢م.

٥١) عبد الحافظ، حسني، "المسلمون وصلوا إلى القارة الأمريكية قبل كولومبوس"، في الخفجي (مجلة)، عدد نيسان (أبريل) ١٩٨٧م .

٥٢) عبد الرحمن، حكمت نجيب، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، جامعة الموصل ١٩٧٧م
.

٥٣) عبد الرحيم، عبد الرحمن، معالم التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر، ط٢، دار المتنبي للنشر، الدوحة (قطر) ١٩٨٢م .

٥٤) عبد العليم، أنور، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، سلسلة عالم المعرفة، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٧٩م .

٥٥) عبد الكريم، أحمد عزت، **دراسات في تاريخ العرب الحديث**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢م.

٥٦) العريس، إبراهيم، (عرض وتعليق) **"يوم دمر الغرب ذاته وهو يعتقد إنه إنما يدمر الآخر"**، في الحياة (جريدة) العدد ١٠٦٦٥، ٢١ نيسان (إبريل) ١٩٩٢م .

٥٧) العزاوي، قيس، الدولة العثمانية، **قراءة جديدة لعوامل الانحطاط**، الدار العربية للعلوم، بيروت، ومركز دراسات الإسلام والعالم، فلوريدا، (الولايات المتحدة الأمريكية) ١٩٩٤م.

٥٨) العسقلاني، أحمد بن حجر (الحافظ) (ت ٨٥٣هـ=١٤٤٩م)، **تهذيب التهذيب**، ج١، دار صادر، بيروت، (د.ت).

٥٩) عصفور، محمد أبو المحاسن، **معالم الحضارات الشرق الأدنى القديم**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م .

٦٠) عصفور، محمد أبو المحاسن، **المدن الفينيقية**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م .

٦١) علام، نعمت إسماعيل، **فنون الشرط الأوسط في العصور الإسلامية**، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢م .

٦٢) علاوي، إبراهيم، **"نظريات جديدة تربط حضارات شبه الجزيرة العربية والبحر المتوسط: اكتشاف وبار قد يحل بعض ألغاز التاريخ العربي القديم"**، في الحياة (جريدة) العدد ١٠٦٢٩، ١٥ آذار (مارس) ١٩٩٢م .

٦٣) علي، محمد كرد، **خطط الشام**، ط٢، في ٦ أجزاء، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧١م.

٦٤) عويس، عبد الحليم، **"جهود إسلامية في اكتشاف العالم الجديد"**، في الخفجي (مجلة) عدد أيار (مايو) ١٩٨٩م .

٦٥) فايد، يوسف ومحسوب، محمد، **جغرافية الأمريكيتين**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٢م .

٦٦) فراج، عز الدين، **فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٨م.

٦٧) فروخ، عمر، **تاريخ العلوم عند العرب**، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠م .

٦٨) فريد بك، محمد (المحامي)، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، **تحقيق إحسان حقي**، ط٢، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٣م.

٦٩) الفنجري، أحمد شوقي، **"فضل علماء المسلمين على العلم الحديث"**، في الخفجي (مجلة) عدد نيسان (أبريل) ١٩٨٧م .

٧٠) فوزي، حسين، **"المعارف الملاحية العربية في القرون الوسطى وأثرها في عصر النهضة"**، في كتاب أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية، رئيس التحرير، محمد خلف الله أحمد، من منشورات مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) القاهرة ١٩٨٧م .

٧١) قاسم، عون الشريف، **في معركة التراث**، دار القلم، بيروت ١٩٨٠م .

٧٢) قلعجي، قدري، **الخليج العربي**، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٥م .

٧٣) الكسان، جان، **"٥٠٠ عام على اكتشاف أمريكا ١٤٩٢- ١٩٩٢ – هل اكتشف العرب والمسلمون القارة الأمريكية قبل كولومبوس؟"** في الخفجي (مجلة) عدد تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٢م .

٧٤) لوبون، غوستاف، **حضارة العرب**، ط٢، نقله إلى العربية عادل زعيتر، (الناشر) البابي الحلبي، القاهرة ١٩٤٨م .

٧٥) ليسي، دان، **الثورة الأمريكية دوافعها ومغزاها**، ترجمة سامي ناشد، جزآن، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٦٦م .

٧٦) ماجد، عبد المنعم، **تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٨م .

٧٧) المبارك، خالد، **"اكتشاف ثقافي جديد، الأثر اللغوي العربي في سيراليون"**، في الحياة (جريدة) العدد١٠٦٩٢، أيار (مايو) ١٩٩٢م .

٧٨) محمد، محمد محمود، **"تساؤلات حول قضية إرشاد ابن ماجد لفاسكو دي جاما إلى طريق الهند"**، في مجلة كلية الآداب، م٦، جامعة الرياض (الملك سعود) الرياض ١٩٧٩م.

٧٩) محمود، إبراهيم كايد، **"مقدرة اللغة العربية على استيعاب مصطلحات العلوم والثقافة"**، في رسالة الخليج العربي، (مجلة) يصدرها مكتب التربية لدول الخليج، العدد٤١ ، ١٩٩٢م .

٨٠) محمود، مصطفى، **"اللغة التي تكلم بها آدم"** أخبار اليوم (جريدة) العدد رقم ١٩٨٩.

٨١) مراد، عادل، **"كريستوفر كولومبوس أعظم المغامرين إلى المجد على ظهر بغل"**، في الشرق الأوسط (مجلة) العدد٢٩٠، ص١٥-٢١، ٢٢-٢٨، كانون (يناير) ١٩٩٢م .

٨٢) مرجان، مصطفى، **"١٤٩٢م-١٩٩٢ كريستوفر كولومبوس...أمريكا – إسهام الملاحة العربية في الكشف عن القارة الأمريكية"**، في الحياة (جريدة) العدد ١٠٦٥٥ و ١٠٦٥٦، ١٢ نيسان (إبريل) ١٩٩٢م .

٨٣) المرجة، موفق بني–، **صحوة الرجل المريض، أو السلطان عبد الحميد والخلافة الإسلامية**، ط٨، دار البيارق، بيروت، ١٩٩٦م.

٨٤) مصطفى، أحمد عبد الرحيم، **في أصول التاريخ العثماني**، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٢م.

٨٥) مظهر، جلال، **مآثر العرب على الحضارة الأوربية**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٠م .

٨٦) المعلوف، رفيق، "**روائي مكسيكي يقترح على اسبانيا الاحتفال بذكرى الفتح العربي**"، الحياة، (جريدة) العدد ١٠٦٨٨، ٢٤ نيسان (إبريل) ١٩٩٢م .

٨٧) مقبل،فهمي توفيق ، **دور العرب في اكتشاف العالم الجديد**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٢م.

٨٨) مقبل، فهمي توفيق، **الفاطميون والصليبيون**، الدار الجامعية، بيروت، ١٩٨٠م .

٨٩) مكرم، عبد العال سالم، "**الدلالة التاريخية واللغوية لكلمة (عرب)**"، **في الكتاب التذكاري بحوث في اللغة والأدب، بمناسبة مرور عشرين عاماً على تأسيس قسم اللغة العربية وآدابها**، جامعة الكويت، إعداد وإشراف سهام الفريح، الناشر مكتبة المعلا، الكويت ١٩٨٧م.

٩٠) مكي، الطاهر أحمد، " **خمسة قرون على الخروج من الأندلس** "، في العربي (مجلة) العدد ٤٠٠، آذار (مارس) ١٩٩٢م.

٩١) مهران، محمد بيومي، **دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ط٢، من إصدارات لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٩٨٠م .

٩٢) مؤنس، حسين، **أطلس تاريخ الإسلام**، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٧م.

٩٣) مؤنس، حسين، **تاريخ قريش: دراسة في تاريخ أصغر قبيلة عربية جعلها الإسلام أعظم قبيلة في تاريخ البشر**، الدار السعودية، جدة ١٩٨٨م .

٩٤) نعنعي، عبد المجيد، **تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية الحديث**، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٣م .

٩٥) نوار، عبد العزيز، **الشعوب الإسلامية (الأتراك العثمانيون – الفرس – مسلمو الهند)** دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٣م.

٩٦) نوار، عبد العزيز وعبد المجيد نعنعي، **التاريخ المعاصر (أوربا في الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية)** دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٣م.

٩٧) الهمداني (الحسن بن أحمد بن يعقوب)، **صفة جزيرة العرب**، ط٣، تحقيق محمد بن علي الأكوع، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار الآداب، بيروت ١٩٨٣م .

٩٨) هونكة، زيغريد، **شمس العرب تسطع على الغرب، وأثر الحضارة العربية في أوربـــا**، ط٢، نقله عن الألمانية فاروق بيضون وكمال الدسوقي، المكتـــب التجـــاري للطباعـــة، بـــيروت ١٩٦٩م.

٩٩) ياغي، إسماعيل أحمد، **العالم العربي في التاريخ العثمـــاني**، مكتبـــة العبيكـــان، الريـــاض، ١٩٩٧م.

١٠٠) يعقوب، جورج (المستشرق الألماني)، **أثر الشرق في الغرب خاصة في العصور الوســـطى**، نقله إلى العربية فؤاد حسنين علي، من منشورات لجنة البيان العربي، دار مطبعـــة مصـــر، القاهرة، ١٩٤٦م.

ثانياً: الأجنبية:

1) Abercombie, Thomas J."When the Moors Ruled Spain" in National Geographic (Magazine) vol. 174, No.1, July 1988.

2) Baugh, Albert C. and Thomas Cable, A History of the English Language, 3rd ed., Routledge and Keagan Paul, London 1980.

3) Bayard, Dodge, Muslim Education in Medieval Times, The Middle East Institute, Washington, D.C. 1962.

4) Cash; W. Wilson, The Expansion of Islam, An Arab Religion in the non-Arab World, Edinburgh House Press, London 1928.

5) Childe; Gordon, New Light on the Most Ancient East, Edinbrugh University, 1943.

6) Deagon; A Kathleen, "La Navidad, 1492 Searching for

(Magazine), vol.172, No.5, November 1987.

7) Dorothee Metlitzki, The Matter of Arab in Medieval England, Yale University Press, New Haven, Conn., U.S.A. 1994.

8) Eigeland, Tor, "The Tiles of Iberia" in Aramco World (Magazine) March-April 1992.

9) Fisher, W.B. The Middle East, (A Physical, Social, and Regional Geography) Methuen, London. 1961.

10) Frye, Richard N. ed., The Near East and the Great Powers, Harvard University Press, USA 1951.

11) Gardner, Brian, Alenby of Arabia, Coward Mc Can Inc. New York 1966.

12) Gibbons, Herbert A. Foundation of the Ottomans Empire, a history of the Osmanlis up to the death of Bayazid I (1300-1403). (Islam and the modern world 9) Oxford, 1916, repr. London 1968.

13) Glubb, John Bagot, A Short History of the Arab Peoples Quartet Books, London 1978.

14) Hammond, Philip C. (Petra: Myth and Reality); in Aramco World (Magazine), vol. 42, No. , Sep. Oct. 1992.

15) Hell Joseph, The Arabic Civilization, translated from German by Khuda Bukhsh, Cambridge, England 1925.

16) Hitti, Philipe, History of the Arabs, Oxford 1960.

17) Hodgson Marshal, G.S.
Conscience and History in a World Civilization. 3 vols. The University of Chicago Press, Chicago 1974.

18) Holt, P.M., Egypt and the Fertile Crescent (1516-1922) A Political History, Cornell University Press, London, 1966.

19) Kazim, Basheer A. "Portugese Explorations and Their Aims", in Al-Watheekah (Magazine) The Historical Documents Centre, Bahrain, July 1988.

20) Al-Khadim, Husam, "Ibn Majid, His role in discovery of a sea route to India and Evidence of Scientific Thinking His Writings, in Al-Watheekah (Magazine) The Historical Documents Centre, Bahrain, January 1989.

21) Lord Lewis with Sarah Burke,"Those First Americans", in 1992.

22) Lunde, Paul, "The Middle East and the Age of Discovery" (Special Issue), in Aramco World (Magazine), vol.43, No.3, May-June 1992.

23) Makdisi
Learning in Islam and the West, Edinburgh University Press, Edinburgh 1981.

24) Marlowe, John, Arab Nationalism and British Imperialism, The Cressent Press, London 1961.

25) New Oxford Atlas (The) Oxford University Press, Ely House, London 1975.

26) Miller; Peter, "Riddle of the Pyramid Boats", in National Geographic (Magazine) vol.173, No.4, April 1988.

27) Nakosteen; Mehdi, History of Islamic Origins of Western Education, A.D. 800 1350. University of Colorado Press, Boulder, Colorado (N.D.).

28) Osman, Nabil, Kleines Lexikon Deutscher Worter Arabischer Herkunft, C.H. Beek Munich, Germany, 1999.

29) Planhoi de Xavier, The World of Islam, ed., Cornel university Press, London 1949.

30) Severy, Merle, "The World of Suleyman The Magnificent" in National Geographic (Magazine) vol. 172 No. 5, November 1987.

31) Swallow, Charles, The Sick Man of Europe (Ottoman Empire to Turkish Republic, 1789-1923) Ernest Benn, London 1973.

32) Times Atlas of the World (the), Times Books, London, in collaboration with John Barhtolomew and Son Limited, 6th ed., London 1980.

33) Tritton; A. S., Materials on Muslim Education in the Middle Ages, Luzac and Co. Ltd., London 1957.

34) United States Information Agency, An Outline of American History, Published by U.S.I.A. Itself, Washington, 1994.

35) United States Information Agency, An Outline of American Geography, Published by U.S.I.A. Itself, Washington, (N.D.).

36) Barwood, Aileen, "Columbus: What if?", Aramco World (magazine), vol.43, No.1, Jan.-Feb. 1992.

فهرس الأعلام والأماكن

أولاً: الأعلام

ا

ق

ك

ل

ثانياً: الأماكن

أ

ب

ش

ص

فهرس